نفحات الولاية

# شرح نهج البلاغة

## شرح عصري جامع

لسماحة آية الله العظمى
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

## الجزء العاشر

من رسالة ٣٢ إلى ٥٣

طبعة منقحة ومزيدة

دار جواد الأئمة (ع)

www.haydarya.com

بسم الله الرحمن الرحیم

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي دام ظله

# نفحات الولاية

## شرح عصري جامع لنهج البلاغة

من رسالة ٣٢ إلى ٥٣

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم / ٥٤١٢٠
التاريخ

الجزء العاشر

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

دار جواد الأئمة (ع)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى

1432هـ - 2011 م

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

ت: 73 73 13 / 03 - 12 29 69 70 00961

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

# ٣٢

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ معاوية[1]

### نظرة عامّة للرسالة

تتشكل هذه الرسالة (طبقاً لما أورده السيّد الرضي في نهج البلاغة) من ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: يتضمّن نصيحة لمعاوية، النصيحة المقترنة بالتوبيخ والتحذير من إضلال الناس وإعادتهم إلىٰ عصر الجاهليّة، وأنّه ينبغي عليه أن يتدبّر في عاقبة هذا الأمر.

وفي القسم الثاني، يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين يحيطون بمعاوية وهم

---

١. سند الرسالة:
لم ينقل في مصادر نهج البلاغة سند خاص لهذه الرسالة سوى ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في مقدمة هذه الرسالة وصرّح في ختامها أنّ ما ذكر السيّد الرضي في نهج البلاغة يمثّل مقطعاً من رسالة الإمام علي عليه السلام والتي ذكرها أبوالحسن علي بن محمّد المدائني بكاملها، وهذا يشير إلىٰ وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة لدى ابن أبي الحديد حيث نقل عنه عبارات أخرى لهذه الرسالة (علي بن محمّد المدائني من مؤرخي في القرن الثالث الهجري وتوفي في سنة ٢٢٥، وقد ورد في بعض العبارات أنّ الطبري والبلاذري نقلوا عنه في كتبهم التاريخيّة، وقيل إنّ اسم الكتاب فتوحات الإسلام، طبقاً لنقل ريحانة الأدب ونقلاً عن دائرة المعارف دهخدا (بالفارسية)، مادة مدائني).

السائرون في خط الضلالة والانحراف ويعيشون التفاخر القومي والقبلي ويتّبعون معاوية على هذا الأساس، ولكن ثمّة جماعة من أهل البصيرة عندما اطّلعوا على مسلك معاوية المشبوه والفاسد تركوا التعاون معه وأداروا ظهورهم إليه وأنابوا الله تعالى، وفي ختام هذا المقطع من الرسالة، يدعو الإمام علي عليه السلام معاوية إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتّباع الشيطان ويذكّره بأنّ الدنيا فانية وغير ثابتة على كلّ حال وأنّ الآخرة قريبة.

وفي القسم الثالث، يدعو معاوية إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتّباع الشيطان ثم يلفت نظره إلى إقتراب أجله وأنّه عما قريب سوف يواجه صحيفة أعماله في محكمة العدل الإلهيّة.

꧁꧂

وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ ٱلنَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ ٱلظُّلُمَاتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ ٱلشُّبُهَاتُ، فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى ٱللّٰهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى ٱلصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ ٱلْقَصْدِ. فَاتَّقِ ٱللّٰهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ ٱلشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَٱلْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَٱلسَّلامُ

## الشرح والتفسير

### لا تهلك نفسك ولا الناس

ما أورده السيّد الرضي من هذا الكتاب يمثّل مقطعاً من رسالة كان الإمام عليعليه السلام قد أرسلها لمعاوية، ويتحدّث الإمامعليه السلام في مطلعها، طبقاً لنقل المؤرخ المعروف المدائني، من موقع النصيحة والتحذير من الغرور بالدنيا الخداعة والمتقلبة وأن يلتزم بالتقوى ويعلم أنّ الله تعالى للظالمين بالمرصاد، فالدنيا سريعاً ما تنقلب عليه وتعرض عنه وسيواجه حينئذٍ الحسرة والندامة، فينبغي عليه في هذا السن المتقدمة من العمر أن يفكر في نهاية حياته واقتراب أجله وأن لا يعمل شيئاً يكون وبالاً عليه يوم القيامة.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام تعرض لهذا الموضوع، وهو أنّك ستتحمل، مضافاً لمسؤوليّة ضلالك وانحرافك، مسؤوليّة إضلال جمهور من الناس، وكما ذكر السيّد الرضي فإنّ

الإمام عليه السلام يقول في مستهل حديثه: «وَأَرْدَيْتَ[١] جِيلاً[٢] مِنَ ٱلنَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ ٱلظُّلُمَاتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ ٱلشُّبُهَاتُ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ معاوية يتحمل مسؤوليّة انحراف جمهور غفير من المسلمين الذين خدعهم بمكره وغيّه وسوف يقف يوم القيامة ليجيب عن ذلك.

وعبارة «مَوْجِ بَحْرِكَ» تعبير لطيف عن الحوادث والأزمات التي تشبّه عادة بأمواج البحر، وهي الحوادث الصعبة التي يصعب مواجهتها والتصدي لها، لأنّ الأمواج العاتية كالجبال في البحر تقذف بالبشر من هنا إلىٰ هناك كالريشة في مهبّ الريح، وأحياناً تقتلعهم في مطاويها ودواماتها ويعيش الإنسان في تلك اللحظات الحرجة الظلمة والشدّة بحيث تسودّ الدنيا في عينيه.

والتعبير بـ «ٱلظُّلُمَاتُ» وَ«ٱلشُّبُهَاتُ» إشارة إلىٰ أعمال معاوية من قبيل طرح مسألة قتل عثمان والدفاع عنه، ورفع قميصه الدامي وإثارة الناس ضد الإمام عليه السلام والخليفة بالحقّ لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك (والعياذ بالله) الأمر بلعن الإمام علي عليه السلام على المنابر وسبّه وشتمه في المحافل، فهل هناك ظلمة أشدّ من هذا، أو شبهة أوحش من هذه؟

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلىٰ نتيجة هذه الأساليب الماكرة والشبهات المضللة ويقول: «فَجَازُوا[٣] عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا[٤] عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا[٥] عَلَى أَحْسَابِهِمْ[٦]»، أي أنّ هذه الأمور أدّت إلىٰ عودة بعض الناس عن الحقّ إلىٰ

---

١. «أرديت» من مادة «إرداء» بمعنى إهلاك.

٢. «جيل» الجماعة والصنف والنسل.

٣. «جاوزوا» من مادة «جواز» وتعني العبور والعدول.

٤. «نَكَصُوا» من مادة «نكوص» بمعنى العودة والرجوع.

٥. «عَوَّلُوا» من مادة «تعويل» وهي الاعتماد والاتكال.

٦. «أحساب» جمع «حَسَب» على وزن «نَسَب» تأتي أحياناً بمعنى الفضائل التي تنسب للآباء والأجداد ويفتخر بها الإنسان، وأحياناً أخرى تعني الصفات البارزة والملكات المشهودة للإنسان نفسه كالشجاعة والسخاء والعلم والمعرفة.

زمان الجاهليّة وأعرضوا عن الإسلام والرسالة الإلهيّة وأخذوا يتفاخرون بالحسب والنسب كما كان العرب يتفاخرون في الجاهليّة.

ونعلم أنّ معاوية كان من بقايا العصر الجاهلي، وأبوه أبوسفيان العدو الأوّل للإسلام والنّبي الأكرمﷺ وأنّ غالبية الحروب والفتن ضد الإسلام كانت بقيادة أبي سفيان، وقد أعلن أبوسفيان الإسلام ظاهراً وأخذ ينتظر اليوم الذي تملك فيه بنو أُميّة مقاليد الأمور ويسيطروا على أجهزة الحكومة الإسلاميّة ويجلسون مجلس النّبي الأكرمﷺ وحينئذٍ يتحركون على مستوى إعادة الناس إلىٰ قيم وثقافة الجاهليّة، ويذكر التاريخ أنّ هؤلاء قد نجحوا في مسعاهم غاية النجاح، ولولا حادثة عاشوراء ومقتل الإمام الحسينعليه السلام وأصحابه في كربلاء ويقظة المسلمين في ظلّ هذه الحوادث الدامية بحيث لم تستمر حكومتهم أكثر من ثمانين عاماً، فإنّه لا يعلم أحد ما سيجري على الإسلام والمسلمين.

ثمّ يستثني الإمامعليه السلام طائفة من أهل الشرف والدين والإيمان، هؤلاء من الذين انخدعوا بأساليب معاوية وكلامه البراق، ولكنّهم عندما رأوا عن كثب أعماله وعرفوا حقيقة أمره أعرضوا عنه والتحقوا بالإمام عليعليه السلام وأصحابه يقول الإمامعليه السلام: «إِلَّا مَن فَاءَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَىٰ ٱللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ[1]، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى ٱلصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ ٱلْقَصْدِ».

مفردة «إلّا» استثناء من «جيل» التي قالها الإمامعليه السلام في مطلع الرسالة وإشار إلىٰ المخدوعين والمغرورين الذين تأثروا بشبهات معاوية من قبيل شبهة قتل عثمان والمطالبة بدمه وشبهات أخرىٰ والتحقوا به، ولكنّهم عندما رأوا أعماله وسلوكياته عن كثب وشاهدوا فساد أعوانه وأنّهم عموماً من بقايا عصر الجاهليّة أو من أبنائهم،

---

١. «مُوازَرَة» من مادة «وزر» تعني الحمل الثقيل، وإنّما سمي الوزير وزيراً لأنّه يحمل مسؤولية ثقيلة على عهدته، وموازرة تأتي أيضاً بمعنى المعاونة والمساعدة، لأنّ الإنسان عندما يعين الشخص الآخر فإنّما يحمل قسماً من عمله ومسؤوليته على عهدته.

فالتفتوا بسرعة إلىٰ خطئهم وغفلتهم وابتعدوا عنه. هذه الفئة رغم أنّهم قلّة في مقابل الكثير ممّن اتّبعه، ولكن مقامهم الكريم يستوجب أن يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم أهل البصائر والسائرون في طريق الحقّ والمنيبون إلىٰ الله تعالى.

ويذكر المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغة ذيل الخطبة ١٥٥ أسماء جماعة من أهل البصائر الذين التحقوا بالإمام علي عليه السلام في معركة صفين ومنهم: ابن عم عمرو بن العاص وابن أُخته شرحبيل، وعبدالله بن عمرو العنسي، وكذلك جماعة من قراء القرآن[1].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من هذه الرسالة يوصي معاوية بتقوى الله ويقول: «فَاتَّقِ ٱللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ[2] ٱلشَّيْطَانَ قِيَادَكَ[3]، فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَٱلْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَٱلسَّلَامُ».

ورغم أنّ معاوية بعد شهادة الإمام علي عليه السلام بقي على قيد الحياة عشرين سنة، ولكن مع الالتفات إلىٰ أنّ عمره ستون في ذلك الزمان الذي كتبه الإمام عليه السلام هذه الرسالة فإنّه قد مضى عليه الشطر الأكبر من حياته وكل شخص في مثل هذا العمر لابدّ أن يفكر في نهاية عمره وعاقبته.

وجملة «وَجَاذِبِ ٱلشَّيْطَانَ قِيَادَكَ»، تشير إلىٰ أنّ معاوية قد سلّم زمام أموره بيد الشيطان، فالإمام عليه السلام يوصيه بأن يمسك زمامه ولا يترك الشيطان يقوده في دروب الضلالة والانحراف، لأنّ نهاية عمره قريبة وأهم شيء في حياة الإنسان هو حسن العاقبة حيث يمكنه حلّ مشكلاته بهذه الطريقة.

والعجب أنّ مثل هؤلاء الجبّارين عندما يحين أجلهم، كما هو حال فرعون عندما غمرته أمواج النيل، ينتبهون من غفلتهم وفي حين أنّه قد ولّىٰ وقت جبران

---

١. أنظر: شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ١٠، ص ٢٦٩.

٢. «جَاذِبِ» صيغة أمر، يعني مأخوذ من مادة «جذب» بمعنى جر الشيء إلىٰ نفسه.

٣. «قِيَاد» بمعنى زمام، وأصلها من «قيادة» وهي الزعامة وتولي أمور الآخرين.

الأخطاء وتغير المسار فلا ينفع الندم والحسرة، وربّما لو عادوا لساروا في نفس الخط وكما يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

يقول ابن كثير في كتاب «البداية والنهاية»: عندما اشتد المرض بمعاوية ويأس من شفائه ورأى نفسه مشرفاً على الموت أخذ ينشد هذه الآبيات:

لَعَمْري لَقَدْ عَمَّرْتُ فِي الدَّهْرِ بُرْهَةً وَدانَتْ لِي الدُّنْيا بِوَقْعِ الْبَواتِرِ
وَأُعْطِيتُ حُمْرَ الْمالِ وَالْحُكْمِ وَالنُّهىٰ وَلي سُلِمَتْ كُلُّ الْمُلُوكِ الْجَبابِرِ
فَأَضْحَى الَّذي قَدْ كانَ مِمّا يَسُرُّني كَحُكْمٍ مَضىٰ فِي الْمُزْمَناتِ الْغَوابِرِ
فَيا لَيْتَني لَمْ أَغْنِ فِي الْمُلْكِ ساعَةً وَلَمْ أَسْعَ فِي لَذّاتِ عَيْشٍ نَواضِرِ
وَكُنْتُ كَذي طِمْرَيْنِ عاشَ بِبُلْغَةٍ فَلَمْ يَكُ حَتّى زارَ ضيقَ الْمَقابِرِ

ولا يبعد أنّ لقب «ذي طمرين» إشارة إلىٰ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يتأسف معاوية على أنّه لم يختر طريقه ولم يسلك في طريق الحقّ، لأنّ هذه الكلمة قد وردت في كلام الإمام علي عليه السلام نفسه في الرسالة ٤٥ من نهج البلاغة حيث يقول: «أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ...». ولكن التأسف والتحسر في مثل هذه المواقع كاذب، فلو زالت الأزمة وحلّت المشكلة لعادوا إلىٰ حالهم السابق وتحركوا في نفس الخط.

## تأمّل

### رسائل متوالية

يستفاد من شرح ابن أبي الحديد لهذه الرسالة وجود مراسلات بين أميرالمؤمنين علي عليه السلام ومعاوية في هذا المقطع الزمني وبلغت بمجموعها خمس رسائل من قِبل الإمام عليه السلام وأربع رسائل من قِبل معاوية، وفي كلّ رسالة كان معاوية يزداد وقاحة وجرأة على الإمام عليه السلام، والعجيب أنّه يتحدّث عن نفسه وكأنّه من أولياء الله المقرّبين

---

١. سورة الأنعام، الآية ٢٨.

وقد نسي ماضيه وحاضره وأخذ يتحدّث في رسائله بكلمات نابية وعبارات وقحة.

والملفت أنّ ابن أبي الحديد بعد نقله لهذه الرسائل يتحدّث بما خلاصته: «وأعجب وأغرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة، أن يفضي أمر عليّ عليه السلام إلىٰ أن يصير معاوية نداً له ونضيراً مماثلاً يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساوى فيما يواجه أحدهما صاحبه، ولا يقول له عليّ عليه السلام كلمة إلّا قال مثلها، وأخشن مسّاً منها، فليت محمّداً صلى الله عليه وآله كان قد شاهد ذلك عياناً لا خبراً أنّ الدعوة التي قام بها وقاسى أعظم المشاق في تحملها، وكابد الأهوال في الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها وشيّد أركانها وملأ الأفاق بها، خلصت صفواً وعفواً لأعدائه الذين كذبوه لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانه لما حض عليها وأدموا وجهه وقتلوا عمّه وأهله، فكأنّه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم كما قال أبوسفيان في أيّام عثمان وقد مرّ بقبر حمزة وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به، ثمّ آل الأمر إلىٰ أن يفاخر معاوية عليّاً كما يتفاخر الأكفاء والنضراء...».

إذا عَيَّرَ الطّائي بِالبُخْلِ مادِرٌ ... وَقَرَّعَ قُسّاً بِالفَهاهَةِ باقِلُ
وَقالَ السُّها لِلشَّمْسِ أَنْتَ خَفِيَةٌ ... وَقالَ الدُّجىٰ يا صُبْحَ لَوْنُكَ حائِلُ
وَفاخَرَتَ الأَرْضُ السَّماءَ سَفاهَةً ... وَكاثَرَتِ الشُّهْبِ الحِصىٰ وَالجَنادِلُ
فَيا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَياةَ ذَمِيمَةٌ ... وَيا نَفْسُ جِدي إِنَّ دَهْرَكَ هازِلُ[1]

٭٭٭

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٣٦.

# ٣٣

# وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

## إلىٰ قُثَمِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلىٰ مَكَّةَ[1]

## نظرة عامّة للرسالة

تتشكل هذه الرسالة من قسمين:

القسم الأوّل: يمثّل تحذيراً من الإمام عليه السلام إلىٰ قثم بن العباس واليه علىٰ مكّة

---

١. سند الرسالة:

ورد في مصادر نهج البلاغة أنّ ابن أبي الحديد وابن مثيم في شرحهما لنهج البلاغة ذكرا في شأن صدور هذه الرسالة: أنّ معاوية أرسل جماعة من أهل الشام بشكل خفي إلىٰ مكّة في موسم الحج لدعوة الناس للإنضمام إليه واطاعته والتمرد على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو تقوية هذه الشبهة في الأذهان أنّ الإمام علي عليه السلام هو قاتل عثمان أو على الأقل لم يمد له العون والنصرة في الموقع المناسب، وفي كلا الحالتين فإنّ علي بن أبي طالب لا يصلح لمقام الإمامة والخلافة، وكذلك يتحدثون عن كرم معاوية وسخائه وما إلىٰ ذلك، وعندما وصل هذا الخبر إلى الإمام علي عليه السلام كتب هذه الرسالة إلىٰ واليه على مكّة قثم بن عباس وحذره من هذه المؤامرة.

ثمّ إنّ صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة يستنتج ممّا تقدم أنّ ابن أبي الحديد وابن ميثم كانا يملكان مصدراً آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣١٩)، ولكن لا يبعد أنّهما أخذا هذا الكلام من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي المتوفي سنة ٣١٤، حيث أورد هذا الكلام فيما يتصل بهذه الرسالة (الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢).

واللافت وجود سند آخر لهذه الرسالة في كتاب «الغارات»، وهو كتاب الذي تمّ تأليفه في القرن الثالث وقبل ولادة السيّد الرضي بسنوات، وهو يختلف عمّا أورده السيّد الرضي، ولكنّ أساس كلا الرسالتين واحد (الغارات، ج ٢، ص ٥٠٩).

وينبهه إلى أنّ جماعة من أزلام معاوية ممن باعوا بدينهم بدنياهم أرسلهم معاوية في موسم الحج ليثيروا الفتنة وليعملوا على تغيير الواقع لصالح معاوية على حساب إضعاف المؤيدين للإمام عليه السلام، وقد تحدّث الإمام في هذه الرسالة عن أزلام معاوية بكلمات دقيقة وبليغة حيث نجد نظائر هؤلاء في كلّ عصر وزمان وخاصّة في عصرنا الحاضر.

وفي القسم الثاني يوصيه أن يأخذ جانب الحيطة والحذر في مقابل هذه المؤامرة الخطيرة ولا يعمل شيئاً يحتاج بعده إلىٰ الإعتذار وطلب الصفح.

ﮨﮧ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي - بِالْمَغْرِب - كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى ٱلْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّامِ ٱلْعُمْيِ ٱلْقُلُوبِ، الصُّمِّ ٱلْأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ ٱلْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ ٱلْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ ٱلْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ ٱلدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ ٱلْأَبْرَارِ ٱلْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلاَ يُجْزَى جَزَاءَ ٱلشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ ٱلْحَازِمِ ٱلصَّلِيبِ، وَٱلنَّاصِحِ ٱللَّبِيبِ، وَٱلتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلاَ تَكُنْ عِنْدَ ٱلنَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلاَ عِنْدَ ٱلْبَأْسَاءِ فَشِلاً، وَٱلسَّلاَمُ.

## الشرح والتفسير

### راقب أوضاع مكّة بدقّة

كما أشرنا آنفاً أنّ هذه الرسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلىٰ قثم بن العباس عندما وصل الخبر إلىٰ الإمام عليه السلام من مكّة من قِبل بعض عيونه وجواسيسه، أنّ معاوية بعث جماعة من أهل الشام لإشاعة الأكاذيب وتسميم الأجواء ضد أميرالمؤمنين عليه السلام في أيّام الحج، ويستفاد من كلام ابن الأعثم الكوفي في الفتوح أنّ معاوية أرسل جيشاً مكوّناً من ثلاثة آلاف رجل ومعهم العدّة الكاملة بشكل خفي إلىٰ مكّة ليقوموا بانتفاضة عندما تسنح الفرصة المناسبة ويواجهوا أنصار الإمام علي عليه السلام ويربكوا أوضاع الحج.

وكيف كان فالإمام في مستهل هذه الرسالة يقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي[1]

١. «عين» أصلها في اللغة العضو المبصر في الوجه، ولكن بما أنّ عناصر الاستخبارات في الحكومة بمثابة العين لرئيس الحكومة فاطلقت هذه الكلمة عليهم.

-بِالْمَغْرِب[١] -كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَىٰ ٱلْمَوْسِمِ[٢] أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّامِ».

ثمّ يذكر صفاتهم في ثلاث جمل مختصرة وأعمالهم في أربع، ويقول: «ٱلْعُمْيِ[٣] ٱلْقُلُوبِ، الصُّمِّ[٤] ٱلْأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ[٥] ٱلْأَبْصَارِ».

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من الآية الشريفة في قول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٦].

وكما ورد في تفسير الآية الشريفة أيضاً أنّ طرق معرفة الإنسان ثلاثة: العقل، الذي يفكر ويتدبر به، العين التي يرى بها الحوادث المختلفة، والتجارب المتنوعة، والأذن، التي يسمع بها العلوم النقليّة، والأشخاص الذين يفقدون هذه الأعضاء الثلاثة فإنّ جميع طرق المعرفة ستكون موصدة أمامهم.

أجل، فمعاوية اختار هؤلاء البعيدين عن الله والأزلام الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والدنيا على الآخرة، ومهمتهم أن يبثوا الإشاعات المغرضة والأكاذيب الملفقة ويرتكبوا ما يحلوا لهم من ذنوب وآثام للوقيعة بأتباع أميرالمؤمنين عليه السلام وإثارة الفتنة في صفوف حجاج بيت الله الحرام.

ثمّ تحدّث الإمام عليه السلام عن أعمالهم وقال: «الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ[٧] ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ،

---

١. «المغرب»: في هذه العبارة تعني الشام لأنّها تقع شمال غرب العراق.

٢. «المَوْسِم» من مادة «وَسَمَ» على وزن «رسم» في الأصل تعني جعل علامة، ثمّ أطلقت على محل الاجتماع أو زمان الاجتماع، لأنّ ذلك المحل أو الوقت علامة على ذلك التجمع، وتطلق هذه الكلمة ولا سيما في الفقه على أيام الحج.

٣. «العمى»، جمع «أعمى».

٤. «الصم»، جمع «أصم».

٥. «الكُمه»، جمع «أكمه».

٦. سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

٧. «يلتبسون» من مادة «لَبَس» على وزن «حَبَس» وهو التشويش وخلط الأمور، و«لُبس» على وزن «خُمس» تعني اللباس والملبس.

وَيُطِيعُونَ ٱلْمخْلُوقَ فِي مَعْصِيةِ ٱلْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ[١] ٱلدُّنْيَا دَرَّهَا[٢] بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ ٱلْأَبْرَارِ ٱلْمُتَّقِينَ».

وبديهي أنّ الأشخاص الذين يعيشون العمي في القلب، والصمم في الأسماع لا ينتبهون إلىٰ هذه الأمور ومن أجل التمويه على الناس يخلطون الحقّ بالباطل، ومن أجل كسب رضا المخلوق ونيل الجوائز والعطايا لا يطيعون أمر الله ولا يمتثلون لتعاليمه، ومن أجل تحصيل متاع الدنيا يبيعون رأسمالهم الديني، هؤلاء الذين بلغ العمش في بصيرتهم إلىٰ درجة أنّهم لا يرون سوى دنياهم الفانيّة والملذات الرخيصة ويغفلون عن الآخرة وما فيها من المواهب المعنويّة والماديّة العظيمة والأبديّة، ولهذا السبب لا يعيرون أهمّية للآخرة ويبيعونها بأبخس الأثمان من أمور الدنيا.

وبديهي أنّ معاوية لا يختار أبداً الأشخاص الذين يملكون بعض الإيمان ولهم سابقة في الإسلام لهذه لأعمال الشنيعة، بل يبحث عن الأشخاص الذين لا يملكون ذرة من الإيمان أو العقل أو الوجدان، فهم عبيد وغلمان وضعوا أرواحهم فوق أكفّهم سمعاً وطاعة لأوامر السلطان، وهذا هو منهج جميع حكّام الجور وقوى الاستكبار والهيمنة.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام أشار إلىٰ هذه الحقيقة، وهي أنّ كلّ إنسان يعمل الخير أو يقترف المنكر فسوف يثاب ويعاقب حسب عمله، يقول: «وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَىٰ جَزَاءَ ٱلشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ».

وهذا المفهوم مقتبس من الآيات الشريفة قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[٣].

وهو إشارة إلىٰ أنّ هؤلاء عندما يتحركون في خط خلق الفتنة وإيجاد المفسدة

---

١. «يَحْتَلِبُونَ» من مادة «حَلَبَ» على وزن «حَمَدَ» بمعنى اخراج اللبن من الضرع.

٢. «دَرّ» بمعنى اللبن أو اللبن الكثير، وبمعناها المصدري تعني هطول المطر أو السوائل الأخرى.

٣. سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

والاختلاف بين المسلمين لا ينالون في نهاية المطاف سوى الشر والفساد وسوف تصل إليهم وإلى زعيمهم هذه النار وتحرقهم.

ثمّ يخاطب الإمام عليه السلام قثم بن العباس ويقول: «فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ[١]، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ[٢]، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ».

وبهذه الطريقة يثير فيه الإمام عليه السلام العزيمة والروحية وتقوية الإرادة لأداء المهمّة الملقاة على عاتقه في مقابل مؤامرات معاوية وأتباعه من أهل الشام ويؤكّد له ضمناً أنّه مشرف وناظر لأعماله.

وبهذا البيان الموجز والعميق في محتواه يبيّن الإمام عليه السلام شروط القائد الموفق والوالي الناجح، كسعة آفاق التفكير، الاستقامة والصمود في مقابل الحوادث والتحديات، وحبّ الخير للناس، والإطاعة لإمامه ومقتداه وإمتثال أوامره، ومعلوم أنّ هذه الشروط إذا توفرت في كلّ مدير أو قائد فسوف يكون مُوفّقاً في عمله وإدارته وباستطاعته مواجهة مؤامرات الأعداء وإحباطها.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في ختام هذه الرسالة يذكر تحذيراً آخر لعامله ويقول: «وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلاَ تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً[٣]، وَلاَ عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً[٤]، وَالسَّلاَمُ».

ثمّة مثل معروف متداول بين الناس يقولون: «إنّ الاعتذار لا يعيد ماء الوجه للإنسان» فصحيح أنّ الإنسان ينبغي أن يعتذر للطرف المقابل من خطئه وما صدر منه من خطيئة وزلة، ولكن يجب الالتفات إلىٰ أنّ هذا الإعتذار لا يعيد مكانة الإنسان إلىٰ سابق عهدها، فالأفضل أن يعيش الإنسان الانتباه والحذر لئلا يضطر

---

١. «الصّليب» من مادة «صلب» على وزن «صبح» الشدّة والصلابة في كلّ شيء، وإنّما يقال للصليب «صليب» لأنّه يستخدم في صنعه أخشاب صلبة لتعليق المصلوب.

٢. «اللّبيب» هو صاحب العقل والفهم، وأصلها من «لُب» وتعني الدماغ والمخ.

٣. «بَطِرَ» هو الشخص الغارق في النعمة، وأصلها من «بطَرَ» على وزن «نظَر».

٤. «فَشِلَ» وهو الشخص الكسول والضعيف وأصلها من «فشل» على وزن «نظر» يعني الضعف والاستكانة أو الضعف المقترن بالخوف.

للإعتذار، وكذلك يجب أن يكون مسلطاً على نفسه ويملك شخصيّة قويّة بحيث لا يتأثر باقبال أو إدبار النعم الدنيويّة، ولا يكون كالأشخاص من الضعفاء النفوس بحيث يفرحون بشدّة لأدنى نجاح إلىٰ درجة أنّهم يخرجون عن طورهم وفي المقابل يتأثرون ويغتمون من أدنى اخفاق وفشل إلىٰ درجة أنّهم يفقدون مشاعرهم ولا يسيطرون على أنفسهم.

وعندما ننظر إلىٰ هذه الرسالة المختصرة للإمام عليه السلام من موقع الدقّة والعمق فسوف نرى أنّها تتضمن كلّ شيء، وهذه آية جلية من آيات الفصاحة والبلاغة لكلام الإمام عليه السلام وتشير إلىٰ سعة إطلاعه ومعرفته بجميع الأمور السياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة.

## تأمّل

### من هو قثم بن العباس؟

«قثم» في الأصل «قاثم» بمعنى الشخص الكريم الجواد «ثمّ سقطت ألفه» وهذا الاسم يعتبر بالنسبة لقثم ابن العباس اسماً على المسمى، لأنّه كان من الأجاويد والكرماء المشهورين، وهو ابن عم النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وابن أخ عبدالمطلب وأُمّه أُم الفضل لبابة بنت الحارث أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكروا أنّ أُمّه كانت بعد خديجة أول امرأة اعتنقت الإسلام، وجاء في كتب الرجال والتواريخ أنّ القثم كان رجلاً قوياً وذو فضائل، وفي زمان خلافة الإمام علي عليه السلام كان والياً على المدينة لمدّة معينة ثمّ صار والياً على مكّة من قِبل الإمام عليه السلام وظّل في هذا المنصب إلىٰ زمان استشهاد أميرالمؤمنين عليه السلام، وفي سنة ٣٨ للهجرة اختير أميراً للحجاج من قِبل الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام ويقال إنّ أميرالمؤمنين عندما ضربه ابن ملجم في محراب مسجد الكوفة، كان قثم حاضراً في المسجد وهو الذي قبض على ابن ملجم وهو يحاول الفرار.

وفي أيّام معاوية بسبب صداقته مع سعيد بن عثمان والي خراسان توجه قثم إلىٰ خراسان وحضر في حرب ضد الكفّار في سمرقند ونال درجة الشهادة هناك[1].

١. مكاتيب الأئمّة، الاستيعاب، أُسد الغابة، ولغةنامة دهخدا (بالفارسية).

# ٣٤

## وَمِنْ كِتابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

## إِلىٰ مُحَمَّدِ بْنِ أَبي بَكْرٍ لَمَّا بَلَغَهُ تَوَجُّدُهُ مِنْ عَزْلِهِ بِالأَشْتَرِ عَنْ مِصْرَ، ثُمَّ تُوفي الأَشْتَرُ في تَوَجُّهِهِ إِلىٰ هُنٰاكَ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَيْهٰا[١]

### نظرة عامّة للرسالة

نعلم أنّ معاوية بعد قصة التحكيم كان يروم إثارة القلاقل في المناطق الخاضعة لسيطرة حكومة الإمام علي عليه السلام، فكان يهجم على المناطق الحدوديّة من جهة، ومن جهة أخرى كان قد أعطى عهداً لعمرو بن العاص بسبب خدماته الجليلة له أنّه إذا نجح في تولي الخلافة واستلام زمام الحكومة الإسلاميّة فإنّه سيعطيه مصر، ومن أجل تحقيق هذه الغاية بذل هذان الرجلان جهوداً كبيرة في هذا السبيل.

وكان الإمام علي عليه السلام قد شعر بأنّ محمّد بن أبي بكر واليه على مصر وإن كان رجلاً أميناً، إلّا أنّ مصر تحتاج إلىٰ رجل أقوى وأشدّ منه وأكثر تجربة ليقف في

---

١. سند الرسالة:
نقل هذه الرسالة قبل السيّد الرضي أبو الحسن المدائني، والظاهر أنّه نقلها من كتاب فتوحات الإسلام، وإبراهيم بن الثقفي في كتاب «الغارات»، والطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٨، والبلاذري في شرح حال الإمام علي عليه السلام في كتابه «أنساب الأشراف» (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٢٢).

مواجهة مؤامرات معاوية، ولذلك اختار مالك الأشتر لهذا الأمر وكتب له عهده المعروف بـ«عهد مالك الأشتر».

وعندما اطلّع معاوية على هذا الخبر وأنّ مالك الأشتر توجه إلىٰ مصر أصابه القلق من ذلك ودبّر له مكيدة لقتله قبل وصوله إلىٰ مصر، فأمر أحد جواسيسه الذي كان على إرتباط وثيق بآل عمرو بن العاص، أن يقتل مالكاً بالسم بأية صورة، فجاء هذا الرجل إلىٰ مالك وأظهر له المودة وعرّف نفسه أنّه من شيعة الإمام علي عليه السلام ومن أتباع أهل البيت عليهم السلام وتحدّث له عن فضائل الإمام وبني هاشم إلىٰ أن صدّقه مالك ووثق به واعتقد أنّه واقعاً من أتباع أهل البيت عليهم السلام وفي ذلك الوقت أهدى هذا الرجل طعاماً مسموماً لمالك «والمعروف أنّه كان عسلاً مسموماً» وعندما تناول مالك من هذا العسل شعر بالتسمم، وقبل وصوله إلىٰ مصر توفي في منطقة يقال لها «قلزم».

وعندما وصل خبر تنصيب مالك الأشتر والياً على مصر إلىٰ محمّد بن أبي بكر، بدا منه تأثراً من ذلك، فكتب له الإمام عليه السلام الرسالة أعلاه ليرفع قلقه ويزيل استياءه وأبقاه في منصبه[1].

وعلى ضوء ذلك فإنّ الغرض من هذه الرسالة رفع ما خالج محمّد بن أبي بكر من تأثر واستياء من جراء تنصيب مالك الأشتر مكانه، وقد أكد له الإمام عليه السلام في هذه الرسالة أنّه راضٍ تماماً عن أفعاله وأنّ استبداله بمالك الأشتر لا يعني أنّه قد قصّر في مهمته بل لغرض كان محمّد بن أبي بكر يعلم به أيضاً، وكذلك تهدف هذه الرسالة لتقوية إرادة محمّد بن أبي بكر وتحكيم موقفه في مقابل العدو لحفظ حكومة مصر، ويوصيه الإمام عليه السلام بالتوكل على الله والاستقامة في طريق التصدي للأعداء.

❊❊❊

١. أقتبس من: مصادر نهج البلاغة وكتب أخرى.

**أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ ٱلْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ ٱسْتِبْطَاءً لَكَ فِي ٱلْجَهْدِ، وَلاَ ٱزْدِيَاداً لَكَ فِي ٱلْجِدِّ وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلاَيَةً.**

**إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً، فَرَحِمَهُ ٱللّٰهُ! فَلَقَدِ ٱسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلاَقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلاَهُ ٱللّٰهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ ٱلثَّوَابَ لَهُ! فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَٱمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ ٱلْإِسْتِعَانَةَ بِاللّٰهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ.**

## الشرح والتفسير

## تطييب خاطر محمّد بن أبي بكر

لقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة المختصرة إلىٰ عدّة نقاط مهمّة فقال أوّلاً:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ[1] مِنْ تَسْرِيحِ[2] ٱلْأَشْتَرِ إِلَىٰ عَمَلِكَ[3]، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ ٱسْتِبْطَاءً[4] لَكَ فِي ٱلْجَهْدِ، وَلاَ ٱزْدِيَاداً لَكَ فِي ٱلْجِدِّ».

وبهذا الكلام سعى الإمام عليه السلام لتطييب خاطر محمّد بن أبي بكر وأكّد له أنّه راضٍ

---

١. «مَوْجِدَة» بمعنى الغضب والاستياء.

٢. «تَسْرِيح» ارسال الشخص لطلب شيء وأداء عمل معين، وتستعمل لكلّ تحرير وإزالة القيود، ومن هنا يطلق على الطلاق بأنّه تسريح لأنّ الزوج يطلق ويسرح زوجته من قيود الزوجيّة.

٣. «عَمَل» في هذا المورد تعني الولاية والامارة، ولذلك يقال للوالي أنّه «عامل». في الرسالة السابقة قرأنا أنّها رسالة من الإمام علي عليه السلام إلىٰ «قثم بن العباس» عامله على مكّة.

٤. «اَسْتِبْطاء» ضد الاسراع، أي تأخر في سيره، بطيءً من مادة «بطء» على وزن «كُفر».

عن عمله وأنّ هذا التغيير والاستبدال لا يعني أبداً أنّ محمّد بن أبي بكر مقصّر في عمله، أو أنّ الإمام عليه السلام مستاء منه.

ثمّ واصل الإمام عليه السلام كلامه مخاطباً لمحمّد بن أبي بكر لتهدئة نفسه أكثر ورفع أي التباس في ذهنه وقال: «وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً».

وفي الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام بذكره لهاتين النقطتين، وهما أنّه راضٍ من جهة عن أعمال محمّد بن أبي بكر، ومن جهة أخرى أنّه لو عزله عن موقع معين فإنّه سيختار له موقعاً أفضل، وبذلك رفع أي إلتباس وقلق من واليه على مصر.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنّه سيعطيه مكاناً أفضل وأيسر مؤنة، وهي ولاية حكومة خراسان أو بلاد فارس أو اليمن، لأنّ جميع مناطق البلاد الإسلاميّة في ذلك الوقت ما عدا الشام، كانت تحت حكومة الإمام علي عليه السلام[1].

ثمّ ذكر الإمام عليه السلام السبب في اختياره لمالك الأشتر والياً على مصر، ليرفع من جهة الشبهة عن ذهن محمّد بن أبي‌بكر، ومن جهة أخرى يلفت نظره إلىٰ بعض نقاط الضعف والقصور في شخصيّته ليتمكن من إصلاحها واستبدالها بنقاط قوّة، يقول:

«إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً[2]، فَرَحِمَهُ ٱللّٰهُ! فَلَقَدِ ٱسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَاقَى حِمَامَهُ[3]، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ[4] ٱللّٰهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ ٱلثَّوَابَ لَهُ!».

---

١. أنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

٢. «ناقِم» المنكر والمعترض، وإذا كان اعتراضه على مستوى العمل والممارسة فتعني الانتقام من مادة «نَقَم» على وزن «قلم».

٣. «حِمام» من مادة «حَمّ» على وزن «غمّ» بمعنى الشيء المقدر، وبما أنّ الموت يعدّ تقديراً إلهيّاً على الإنسان فلذلك يطلق عليه الحمام.

٤. «أولى» من مادة «ولاية» وتعني الشخص الذي يكلّف بعمل معين أو يوضع في اختياره شيء، وهنا جاءت بالمعنى الثاني، يعني أنّ الله تعالى يضع رضاه وجنّته التي تعتبر نتيجة رضا الله تعالى في اختيار مالك الأشتر.

والحقيقة أنّ مالك الأشتر ﷺ كان كذلك، بلاءه المشهود في صفين ودفاعه الحاسم عن الإمام ﷺ في مواقع مختلفة ووفاءه المطلق واستقامته في جميع الحوادث الصعبة التي وقعت في ذلك العصر، كلّها شاهد حي على صحة كلام الإمام ﷺ في حق الأشتر، فقد كان الأشتر هو القائد الفذ الذي جعل جيش معاوية في صفين يصل إلىٰ حدّ الهزيمة الكاملة، ولكن مؤامرة رفع المصاحف على الرماح أجهضت سعيه وأعاقت تحقيق النصر على معاوية.

يقول ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عند وصوله لجملة «فَرَحِمَهُ اللهُ»: «ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه ويدخله الجنّة، ولا فرق بينها وبين دعوة رسول الله ﷺ، وَيَاطُوبىٰ لِمَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ عَلِيٍّ ﷺ بَعضُ هَذا»[1].

وقد تحدّث الإمام ﷺ في رسائل عدّة في نهج البلاغة عن مالك الأشتر بوصفه شخصيّة ممتازة وعالي الهمة، وهذا الثناء يشير إلىٰ أنّ للأشتر مكانة سامية عند الإمام ﷺ الذي كان يكنّ له الحبّ والاحترام، وقد تحدّثنا في شرح الرسالة ١٣ عن بعض فضائل مالك الأشتر وامتيازاته النادرة، وسنشير في ذيل هذه الرسالة والرسائل أخرى أيضاً إلىٰ أمور أخرى عن هذه الشخصيّة الإسلاميّة الفذة.

ثمّ يشير الإمام ﷺ إلىٰ نقطة ثالثة: ولكن الآن حيث استشهد مالك ولا أعرف أفضل منك لتولي هذا المنصب فعليك بالبقاء فيه والاستعداد لمواجهة العدو بشجاعة وبصيرة: «فَأَصْحِرْ[2] لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ[3] لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ».

وجملة «فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ» إشارة إلىٰ هذه النقطة، وهي أنّ الإمام ﷺ أكد عليها في خطبة الدعوة للجهاد حيث قال: «وَقُلْتُ لَكُمْ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللهِ مَا غُزِيَ

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

٢. «أَصْحِرَ» فعل أمر من مادة «اصحار» وتعني الخروج والظهور في الصحراء.

٣. «شمّر» من مادة «تشمير»، وأصل شمّر على زون «تمر» وتعني الجمع وحسب المنتوج والاستعداد لعمل معين.

قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا».

وجملة «وَٱمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ» أمر بضرورة التزام الحذر التام والانتباه الكامل في مقابل مؤامرات العدو وأن يتحرك بدقّة متناهية لإبطال مساعيه وإجهاض مؤامرته.

وجملة «وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ» إشارة من جهة إلىٰ أنّك لا تبدأ بالحرب، ومن جهة أخرى إذا بدأك العدو بالحرب فاستعد لدحره ودفع خطره وكن على أهبة الاستعداد بشكل دائم.

وهذه التوصيات الثلاث للإمام عليه السلام لا تخصّ محمّد بن أبي بكر فقط بل تشمل جميع المسلمين في كلّ زمان ومكان، فإذا عملوا بها فذلك سيقودهم إلىٰ النصر المحتم.

وفي ختام الرسالة يدعوه الإمام عليه السلام للتوجه إلىٰ الله تعالى والتوسل به فبيده مفتاح جميع المشكلات ولا يمكن تحقيق أي هدف إلّا بمعونته، ويقول الإمام عليه السلام: «وَادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الاِسْتِعَانَةَ بِاللّٰهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزَلُ[1] بِكَ، إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ».

ومعلوم أنّ مثل هذا الإيمان والاعتقاد وهذا التوجه للذات المقدّسة لا يورث الإنسان الأثر المعنوي الكبير فحسب، بل يمنحه القوّة الروحية والاستقامة في العمل والنشاط في المشاعر والانفتاح، وهذه هي الأمور التي تتسبب في إنتصار جيش المسلمين على قوى الكفر والضلالة في عصر النّبي الإسلام صلى الله عليه وآله في حين أنّ المسلمين كانوا أقل عدداً وعدّة من أعدائهم.

---

١. «يُنْزَلُ» بصيغة فعل المضارع من باب «إفعال» وفاعلها الله تعالى، ولكن في هذا المورد لا يتناسب هذا المعنى، ولذلك وردت هذه الجملة في الكثير من نسخ نهج البلاغة بصيغة «نزل» وبصيغة الفعل الماضي بدون الإسناد الى الله. ولكنّ بعض الكتّاب ذكرها بصيغة الفعل المضارع من الثلاثي المجرّد، أي «ينزل» بفتح الياء لا من باب الإفعال بضم الياء.

## تأمّل

### من هو محمّد بن أبي بكر؟

محمّد بن أبي بكر، كما يتبيّن من اسمه، هو ابن الخليفة الأوّل، ومع إنتمائه لمثل هذا الأب، كان يعيش العشق الشديد للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومستعد لكلّ أشكال التضحية في سبيله، وبدوره فالإمام علي عليه السلام أيضاً كان يعتمد على محمّد بن أبي بكر اعتماداً كاملاً، ومن هذه الجهة اختاره على مصر، ولكنه استشهد على يد عمّال معاوية وقد تأثر الإمام عليه السلام كثيراً بمقتله.

وسبق أن ذكرنا سيرته وترجمة حياته في ذيل الخطبة ٦٨ من الجزء الثالث من هذا الكتاب[1].

۞

١. أنظر: نفحات الولاية، ج ٣، ص ٧٦.

# ٣٥

## ومن كتاب له عليه السلام

## إلى عبدالله بن العباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر[1]

### نظرة عامّة للرسالة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة الموجزة إلىٰ ثلاث نقاط:

الأُولى: أنّه أبلغ ابن عباس بشهادة محمّد بن أبي بكر في مصر على يد أزلام معاوية وتحدّث عن محمّد بوصفه ابن له ورجلاً صالحاً وشجاعاً ومدافعاً عن الحقّ.

والثانية: أشار الإمام عليه السلام إلىٰ هذه النقطة، وهي أنّه كان يتوقع مثل هذا الأمر، وبذلك طلب من أهل العراق أن يهبوا لمساعدة محمّد سرّاً وعلانية بكل سرعة ولكن مع الأسف فإنّ العناصر الانتهازية وأصحاب الادعاءات الجوفاء لم يصغوا إلىٰ هذه الدعوة وبالتالي وقعت هذه المصيبة في أرض مصر واستشهد محمّد على أثرها.

والثالثة: يدعو الإمام عليه السلام الله تعالى من قلب متحرق يحكي عن الحزن الشديد

---

١. سند الرسالة:

من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضي، الطبري في تاريخه بتفاوت يسير في حوادث سنة ٣٨، وكذلك إبراهيم بن هلال الثقفي في كتابه «الغارات» (نقلاً عن مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص٣٢٦).

الذي جرح قلب الإمام عليه السلام، والإمام هنا يسأل الله تعالى أن يخلصه من هؤلاء الناس من ضعفاء الإيمان والمعرضين عن الحقّ ويقسم أنّه لولا عشقه للشهادة لما أحبّ أن يبقى يوماً واحداً مع هؤلاء الناس.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- قَدِ ٱسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ ٱللّٰهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دافِعاً. وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ ٱلنَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ ٱلْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ ٱلآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ ٱلْقَاعِدُ خَاذِلاً. أَسْأَلُ ٱللّٰهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً؛ فَوَٱللّٰهِ لَوْلاَ طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي ٱلشَّهَادَةِ؛ وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى ٱلْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلاَءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلاَ أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَداً.

## الشرح والتفسير

### شكوى من الأتباع الضعفاء

كما هو الملاحظ في عنوان هذه الرسالة، أنّ الإمام عليه السلام يخاطب فيها عبدالله بن العباس، وكان في ذلك الزمان والياً من قِبل الإمام عليه السلام على البصرة، وفي مطلع هذه الرسالة يخبره الإمام عليه السلام عن سقوط مصر بيد جيش معاوية واستشهاد محمّد بن أبي بكر ويقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- قَدِ ٱسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ ٱللّٰهِ نَحْتَسِبُهُ[1]».

---

١. «نحتسِب» من مادة «احتساب» و«حسبة» بمعنى استلام الأجر، وعليه فإنّ «إحتساب» تأتي بمعنى طلب الأجر، رغم أنّ «إحتساب» في الأصل تعني كلّ عمل يعمله الإنسان بنيّة التقرب إلى الله تعالى ويجعله في حسابه في الآخرة، ومعناه بالملازمة طلب الأجر من الله تعالى (لمزيد من الاطلاع راجع كتاب مقايس اللغة ولسان العرب).

ثمّ يضيف: «وَلَداً[١] نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً[٢]، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دافِعاً».

وهذه الصفات الأربع لشخصية محمّد بن أبي بكر متجلية بشكل واضح في سيرته وشخصيّته وتعكس هذه العبارات عن جملة من فضائله. في البداية يشير إلىٰ كونه من أهل الخير وبمنزلة الابن له، فمحمّد لم يكن فقط الابن الروحاني للإمام عليّ عليه السلام، بل مع الالتفات أنّ أُمّه أسماء تزوجت بعد وفاة أبي بكر من الإمام علي عليه السلام وكان محمّد قد تربى في حجر الإمام عليه السلام فإنّه يعدّ بمثابة الابن للإمام عليه السلام[٣].

ثمّ يشير الإمام إلىٰ صفة العامل الكادح لمحمّد في منصب الوالي على مصر وأنّه كان ماضي الهمة وشديد العزيمة ومدبّراً خبيراً، ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لمواقف محمّد في مقابل الأعداء ويقول عنه أنّه كان سيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، وبعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلىٰ لجوء محمّد باتخاذ تدابير دفاعية في مقابل هجوم الأعداء والحوادث المؤسفة ويشبهه بالعمد القوي والأساس الصلب والركن الدافع الذي يمنع البناء من الإنهيار ويدفع عنه البلايا والأخطار.

ومن أجل أن لا يتوهم أحد أنّ الإمام عليه السلام قصّر في الدفاع عن محمّد بن أبي بكر وحفظه يقول: «وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ[٤] ٱلنَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ ٱلْوَقْعَةِ[٥]، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً[٦]، فَمِنْهُمُ ٱلآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ

---

١. «وَلَداً» ذكر البعض أنّ ولداً منصوب بوصفه عطف بيان، والبعض الآخر ذهب إلى أنّه بدل من ضمير المفعول في «نحتسبه»، ولكن لا يمكن أن يكون مفعولاً ثانياً لنحتسب، لأنّ معنى الجملة سيتبدل.

٢. «كادح»، وهو الشخص الذي يبذل الكثير من الجهد والسعي، وأصلها من «كدح» على وزن «مدح» بمعنى السعي الحثيث والعمل الجاد.

٣. وأمّ محمّد أسماء بنت عميس الخثعمية وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وآله، وأخت لبابة أم الفضل وعبدالله زوج العباس بن عبدالمطلب، وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب فولدت له هناك محمّد بن جعفر، عبدالله، عوناً، ثمّ هاجرت المدينة، فلمّا قتل جعفر تزوجها أبوبكر، فولدت له محمّد بن أبي بكر هذا، ثمّ مات أبوبكر فتزوجها الإمام علي عليه السلام وولدت له يحيى بن علي ولا خلاف في ذلك. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٢).

٤. «حَثَثْتُ» بمعنى التشويق والإثارة.

٥. «ٱلْوَقْعَةِ»، الحادثة، وأحياناً تأتي بمعنى وقوع الحرب والقتال، وهنا قصد منها المعنى الثاني.

٦. «عَوْداً» و«بَدْءاً» تعني كما ورد في بعض كتب اللغة أولاً وآخراً، وفي بعضها بمعنى تكرار الشيء، وهنا يحتمل فيها كلا المعنيين.

ٱلْمُعْتَلُّ[١] كَاذِباً، وَمِنْهُمْ ٱلْقَاعِدُ خَاذِلاً[٢]».

وينقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٨ أنّ الإمام عليه السلام في هذه الأثناء دعا أهل الكوفة إلىٰ التجمع: فقام عليٌّ بالناس وقد أمر فنودي الصلاة الجامعة، فاجتمع الناس فحمد الله وأثناء عليه وصلى على محمّد صلى الله عليه وآله، ثمّ قال:

«أمّا بَعدُ فَإِنّ هٰذا صَرِيخُ مُحَمّد بنِ أَبِي بَكرٍ وَأخوانُكُم مِنْ بلادِ مِصرَ قَدْ سَارَ إِلَيهِم ابنُ النَّابِغَةِ عَدوَّ اللهِ ووَلِّي مَنْ عَادَ اللهَ، فَلا يَكُونَنَّ أَهلُ الضَّلالِ إِلىٰ بَاطِلِهِم وَالرُّكُونِ إِلىٰ سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أَشَدُّ إِجتِمَاعاً مِنْكُم عَلىٰ حَقِّكُم هَذا، فَإِنَّهُم قَدْ بَدَأُوكُم وَإِخوانُكِم فِي الغَزو فَعَجِّلُوا إِلَيهِم المُواسَاةَ وَالنَّصرَ عِبادُ اللهِ إِنَّ مِصرَ أَعظَمُ مِنَ الشَّامِ وَأَكثَرِ خَيراً وَخَير أَهَلاً فَلا تُغلَبُوا عَلىٰ مِصر فَإِنَّ بَقَاءَ مِصر فِي أيدِيكُم عَزٌّ لَكُم وَكَبتٌ لِعَدوِّكُم أُخرجُوا إِلىٰ الجُرعَةِ بَينَ الحِيرَةِ وَالكُوفَة، فَوافُونِي بِها هَناكَ غَداً إِنْ شَاءَ الله».

ثمّ يضيف الطبري: فلما كان من الغد خرج يمشي فنزلها بكرة، فأقام بها حتى التصق النهار يوم ذلك فلم يوافيه منهم رجل واحد، فرجع، فلمّا كان من العشية بعث إلىٰ أشراف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب فقال:

«الحَمْدُ للهِ عَلىٰ مَا قَضىٰ مِن أَمرٍ وَقَد قَدّرَ مِن فِعلٍ وَابتَلاني بِكُم أَيَّتُها الفُرقَةُ مِمَن لا يُطيعُ إِذا أَمرتُ وَلا يُجِيبُ إِذا دَعوتُ، لا أَباً لِغَيرِكُم مَاذا تَنتَظِروا بِصَبِركُم وَالجِهادِ عَلىٰ حَقِّكُم».

(والقسم المهم من هذه الخطبة أوردناه في ١٨٠ من الجزء السادس من هذا الكتاب).

وينقل الطبري في قسم آخر من كلامه هذا الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قاله بعد استشهاد محمّد بن أبي بكر حيث أخذ يوبخ أتباعه بشدّة ويقول:

«دَعَوتُكُم إِلىٰ غِياث إِخوانِكُم مُنذُ بِضعٍ وَخمسِينَ لَيلَةً فَتَجَرجَرتُم جَرجَرَةَ الجَمَلِ

---

١. «ٱلْمُعْتَلّ» تعني المريض، وأحياناً تعني الشخص الذي يعتذر لفعله ويأتي بمبررات لتسويغ فعله.

٢. «خاذِل» وهو الشخص الذي يمتنع من مدّ يد العون إلى الآخر وبالتالي يؤدّي إلى ذلّة ومهانة الطرف المقابل.

**الأَشدقِ وَتَثاقَلتُم إِلىٰ الأَرضِ تَثاقُلَ مَنْ لَيسَ لَهُ نُيّة فِي جِهادِ العَدوّ وَلا اكتسابِ الأجرِ...»**[1].

وهذه الطوائف الثلاث الذين يتحدّث عنهم الإمامعليه السلام لا ينحصر تواجدهم في ذلك العصر، توجد مثل هذه الشخصيّات الهزيلة والنفوس المريضة في كلّ عصر وزمان وينخرطون في أحد هذه الطوائف الثلاث، فالأشخاص الذين يواجهون المصاعب ويحضرون إلىٰ الميدان كارهين لا يوفّقون للقيام بأي عمل إيجابي، والفئة الثانية هم الذين ينسلون من ميدان المواجهات بتبريرات وأعذار مختلفة لابعاد أنفسهم عن مواجهة العدو، والفئة الأخيرة هم الذين يخالفون الحضور في الميدان بصراحة ويحرضون الناس على القعود معهم، فالويل للمجتمع الذي تكون فيه الغالبية من الناس من هذه الطوائف الثلاث، فمهما أُوتي القادة لهذا المجتمع من قدرة وعزم وحنكة في إدارة الأمور فإنّهم وبسبب عدم توفر الأنصار والأتباع الذين يعيشون روح التضحية والشجاعة والمسؤوليّة، فإنّهم لا يحققون أي نتيجة لمجتمعم ولا ينجحون في تجسيد طموحاتهم وتطلعاتهم على أرض الواقع المجتمعي.

إنّ التدبّر في الآيات القرآنيّة يرشدنا إلىٰ أنّ هذه الطوائف الثلاث كانت موجودة أيضاً في عصر رسول اللهصلى الله عليه وآله، رغم أنّ جماعة المؤمنين المخلصين كانت هي الغالبة.

يقول القرآن الكريم بالنسبة للطائفة الأُولى في ذلك العصر: **﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾**[2].

وفيما يخص الطائفة الثانية يستعرض القرآن الكريم قضايا معركة الأحزاب ويقول: **﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾**[3].

أمّا بالنسبة للطائفة الثالثة فيقول: **﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ**

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٨١ - ٨٣.

٢. سورة الأنفال، الآية ٦.

٣. سورة الأحزاب، الآية ١٣.

وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[١].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام ينطلق بالدعاء ويتوجّه إلىٰ الله تعالى من أعماق قلبه ويسأله أن يخلصه من هذا الواقع الأليم: «أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً».

ولغرض التأكيد على هذه الحقيقة يضيف الإمام عليه السلام: «فَوَاللَّهِ لَوْلاَ طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوْطِينِي[٢] نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلاَءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلاَ أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَداً».

إنّ نذالة هؤلاء الأتباع وخسّتهم وصلت إلىٰ درجة أنّ الإمام عليه السلام بما يملك من صبر واستقامة بحيث بقي خمس وعشرين عاماً في زاوية البيت وفي الحلق شجى وفي العين قذى كما يقول الإمام عليه السلام نفسه وقد تحمل ذلك، ولكن في هذه المدّة القصيرة من خلافته واجه الإمام عليه السلام ضغوطات وصعوبات بحيث إنّه تمنى أن لا يبقى مع هؤلاء الناس ولا يوماً واحداً، وما يدعوه للبقاء معهم هو شوق الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومثل هذا الكلام ذكره الإمام عليه السلام في الخطبة ١١٩ حيث قال: «وَاللَّهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ ـ وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ ـ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ ...».

## تأمل

### روعة البلاغة في هذه الرسالة

تعتبر هذه الرسالة من أفصح وأبلغ رسائل وكتب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام والتي كتبها بعبارات موجزة وكلمات بليغة بحيث أدّى حقّ المطلب تماماً.

وقد تأثر ابن أبي الحديد كثيراً بفصاحة وبلاغة هذه الرسالة فقال في شرحه لهذه

---

١. سورة التوبة، الآية ٨١.

٢. «تَوْطِين» تعني تهيئة الشيء، وأصلها من «وطن» على وزن «بطن» وتعني اختيار الوطن، وبما أن كلّ إنسان عندما يختار محلاً للسكن فإنّما يهيىء نفسه للحياة في ذلك المكان، فالتوطين يعني التهيؤ.

الرسالة: «انظر إلىٰ الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملّكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلوا بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه، بِلسلة سهلة تتدفق من غير تعسّف ولا تكلّف، حتى انتهى إلىٰ آخر الفصل فقال: «يَوْماً وَاحِداً، وَلاَ أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَداً». وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قَسْرَها بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بيّن، وعلامة واضحة، وهذا الصِّنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبدالقاهر، قال: انظرْ إلىٰ سورة النّساء وبعدها سورة المائدة، الأُولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب، ولو مزجت إحدى السورتين بالأُخرى لم يمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.

ثمّ إنّ فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكلّفية، ثمّ انظر إلىٰ الصفات الموصوفات في هذا الفصل، كيف قال: «وَلَداً نَاصِحاً»، ، «وَعَامِلاً كَادِحاً»، «وَسَيْفاً قَاطِعاً»، «وَرُكْناً دافِعاً». لو قال: «ولداً كادحاً» و«عاملاً ناصحاً»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً. فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرفَ بالحكمة ودقائق العلوم الإلهيّة من إفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانيّة، لأنّ قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يربَّ بين الشجعان، لأنّ أهل مكّة كانوا ذوِي تجارة، ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجعَ من كلّ بشرٍ مشى على الأرض، قيل لخَلف الأحمر[1]: أيّما أشجع عَنبسة وبِسطام أم عليّ بن أبي طالب؟ فقال: إنّما يذكر عَنبسة وبسطام مع البَشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة. فقيل له: فعلى كلّ حال، قال: والله لو صاح في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما، وخرج أفصحَ سَحبان

١. خلف الأحمر من علماء القرن الثاني للهجرة وهو صاحب اليد الطولى في الشعر والأدب والتاريخ.

وقُسّ، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جُرْهم وإن لم يكن لهم نَباهة، وخرج أزهد الناس في الدنيا، وأعفّهم، مع أنّ قريشاً ذوو حرص ومحبّة للدنيا، ولا غرو فيمن كان محمّدﷺ مربّيه ومخرُجه، والعناية الإلهيّة تمدّه، وترفُدُه أن يكون منه ما كان»[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٥ و ١٤٦ (مع التلخيص).

# ٣٦

# وَمِنْ كِتَابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

## إلى أخيهِ عَقيلِ بن أبي طالب، في ذِكْر جَيْشٍ أنْفَذَه إلىٰ بَعْضِ الأَعْداءِ وَهُوَ جَوابُ كِتابٍ كَتَبَهُ إليْهِ عَقيلُ[١]

### نظرة عامّة للرسالة

ورد في المصادر التاريخيّة في قصّة هذه الرسالة أنّ معاوية بعد واقعة التحكيم سمع أنّ الإمام علي عليه السلام عازم مرّة أخرى على مواجهته وقتاله، فخاف خوفاً شديداً وأخذ يعمل في إضعاف معنويات أهل الكوفة والعراقيين من خلال برنامج إعلامي مدروس ومن ذلك أنّه أرسل الضحاك بن قيس مع ثلاثة آلاف نفر إلىٰ العراق وقال له: «سرّ حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ماااستطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة عليٍّ فأغر عليه، وإن وجدته له مصلحة (أي معهم السلاح) أو خيلاً فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلدة فأمسي في أخرى، ولا تقيمن لخيل ويبلغك أنها

---

١. سند الرسالة:

جاء في مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الرسالة نقلها قبل السيّد الرضي، إبراهيم بن الثقفي في كتابه «الغارات»، وأبو الفرج الاصفهاني في كتاب «الأغاني» وابن قتيبة الدينوري في كتاب «الإمامة والسياسة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٢). وتقدّم شرح أكثر عن سند هذه الرسالة فيما يتصل بالخطبة ٢٩ للإمام علي عليه السلام في الجزء الثاني من هذا الكتاب (نفحات الولاية، ج ٢، ص ١٣٥).

سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها».

فأقبل الضحاك ونهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب...

فوصلت أخبار حملة الضحاك إلىٰ عقيل وهو في مكّة، فقلق من ذلك وكتب كتاباً لأخيه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة وتقاعدهم عنه:

«لعبدالله علي أميرالمؤمنين من عقيل بن أبي طالب، سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو، أمّا بعد فإنّ الله حارسك من كلّ سوء، وعاصمك من كلّ مكروه، وعلى كلّ حال إني فقد خرجت إلىٰ مكّة معتمراً فلقيت عبدالله بن سعد بن أبي سرح، في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، ـ عرفت المنكر في وجوههم ـ فقلت إلىٰ أين يا أبناء الشانئين، أبمعاوية تلحقون؟ عداوة والله لنا منكم قديماً ظاهرة غير مستنكرة، تريدون بها اطفاء نور الله، وتبديل أمره فأسمعني القوم وأسمعتهم.

ثمّ قدمت مكّة فسمعت أهلها يتحدّثون: أنّ الضحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء ثمّ إنكفأ راجعاً سالماً، فأُف لحياة في دهر جرأت عليك الضحاك، وما الضحاك! إلّا فقع بقرقر وقد وطئت، وقد توهمّت ـ حيث بلغني ذلك ـ أنّ شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إليَّ ـ يابن أُمي ـ برأيك، فإن كنت الموت تريد تحملت إليك بولد أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومتنا معك إذا مت، فوالله ما أُحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً، وأُقسم بالأعزّ الأجل إنّ عيشاً أعيشه بعدك في هذه الدنيا لغير هنيء ولا مرىء، ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[1].

فكتب إليه الإمام عليه السلام هذه الرسالة جواباً له واطمئنه على أنّ جيش الضحاك قد هرب مولياً ومُني بهزيمة منكرة وقتل منهم من قتل، فسّر عقيل لذلك.

والملفت للنظر أنّ مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة بعد أن يورد هذه الرسالة (رسالة عقيل للإمام عليه السلام) يقول: مع الأخذ بالحسبان أنّها وقعت في أواخر عمر الإمام علي عليه السلام وأنّ عقيل قد كتب هذه الرسالة له وبثّ فيها من شجونه وعواطفه ممّا

---

١. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٢٩ و ٣٣٠.

يحكي عن محبّة شديدة وطاعة مطلقة لأوامر أخيه الإمام علي عليه السلام، فما يقال من أنّ عقيل ترك أخيه أميرالمؤمنين عليه السلام والتجأ إلىٰ معاوية، ادّعاء محض وأُكذوبة فاضحة.

وتشير هذه الرسالة إلىٰ عدّة أمور:

١. هجوم جماعة من أتباع معاوية على أطراف الكوفة ومواجهتهم لجيش الإمام علي عليه السلام الذي أدى إلىٰ إندحارهم وفرارهم.

٢. شكوى الإمام عليه السلام من قريش وأنّهم هم الذين وقفوا في مواجهة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهيّة واتحدوا ضد الرسالة الإلهيّة وأنّهم اتفقوا على معاداة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

٣. رأي الإمام عليه السلام بالنسبة للأشخاص الذين نكثوا بيعته والتحقوا بعدوّه وأنّه يجب التصدي لهم وجهادهم إلىٰ أن يعودوا إلىٰ الحقّ.

٤. التذكير بهذه الحقيقة، وهي أنّ إقبال وإدبار الأفراد لا يؤثر على روحياته ومعنوياته، فهو صامد كالجبل الشامخ في مقابل الأعداء ولا يأبه لكثرة التحديات والمؤامرات ولا يضعف لما يواجهه من مصائب ومصاعب.

٭٭٭

## القسم الأول

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَكَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ ٱلطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَّلَتِ ٱلشَّمْسُ لِلْإِيَابِ فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاَ وَلاَ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ ٱلرَّمَقِ، فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا. فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي ٱلضَّلاَلِ وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ وَجِمَاحَهُمْ فِي ٱلتِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ ٱللّٰهِ ﷺ قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي ٱلْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ٱبْنِ أُمِّي.

## الشرح والتفسير

### قصّة الضحاك بن قيس

كما رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالة عبارة عن جواب من الإمام عليه السلام لأخيه عقيل بن أبي طالب فيما يتصل بحملة الضحاك بن قيس على أطراف الكوفة وهزيمتهم وفرارهم، ومن هنا فإنّ الضمير في «إليه» يعود إلىٰ الضحاك، رغم أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة يعتقدون أنّ هذه القصة تتعلق بحملة «بسر بن ارباط» على اليمن، والأعجب من ذلك أنّ بعضهم ذهب إلىٰ أنّ الضمير يعود إلىٰ معاوية في حين أنّ كلا هذين المعنيين بعيدان عن الصواب.

وعلى أية حال، فالإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة، الذي حذفه السيّد الرضي اختصاراً (وطبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغة ومصادر نهج البلاغة) بعد أن حمد الله أثنى عليه ودعا بالخير لعقيل أعلن له أنّ رسالته وصلت إليه بواسطة

عبدالله بن عبيد الأزدي وفهم منها الإمامعليه السلام قلق عقيل من حملة الضحاك على أطراف الكوفة.

ومن أجل رفع هذا القلق كتب الإمامعليه السلام هذه الرسالة لأخيه عقيل يشرح له حادثة حملة جيش معاوية بقيادة الضحاك ويقول له: «فَسَرَّحْتُ[1] إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً[2] مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَكَصَ[3] نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ ٱلطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَّلَتِ ٱلشَّمْسُ لِلإِيَابِ».

«كَثيفاً» يعني المزدحم والجمع الغفير، وطبقاً لبعض الروايات فإنّ عدد جيش الإمامعليه السلام في هذه الحملة أربعة آلاف نفر من الرجال المستعدين لانزال العقاب بالأعداء والذين ينقضون كالصقر، ولهذا السبب قرر أزلام معاوية وتلول الضحاك الفرار على القرار وندموا على هجومهم وعدوانهم على أطراف الكوفة، ولكن جيش الإمامعليه السلام ظلّ يتعقبهم إلىٰ أن أوشكت الشمس على المغيب، حيث يبيّن الإمامعليه السلام في العبارات اللاحقة أخطار هذه المواجهة.

وعبارة «مِنَ المُسلِمينَ» إشعار إلىٰ أنّ الجيش المعادي وقائدهم الأصلي في الشام ليسوا من المسلمين.

وجملة «شمّر هارباً» يقصد بها السخرية من الضحاك، لأنّ شمّر تأتي عادة بمعنى الشخص الذي يرفع كميه استعداداً للقيام بعمل مهم لا للفرار والنكوص وهو ما اختاره الضحاك في هذه المواجهة الحاسمة.

وجملة «طَفَّلَتِ ٱلشَّمْسُ» مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «طفول» بمعنى الاقتراب، فالجملة إشارة إلىٰ أنّ الجيشين التقيا عندما أوشكت الشمس على الأفول في الأُفق، والتعبير بـ«الإِيَابِ» كناية عن أنّ الشمس تطلع في الصباح الباكر وكأنّها تخرج من

١. «سَرَّح» من مادة «تسريح»، وكما تقدّم في شرح الرسالة ٣٤ أنّها تعني ارسال شخص لعمل معين، وتستعمل أيضاً بمعنى مطلق الارسال والتحرير.

٢. «كَثيف» يعني الغليظ والكثير الملتف، وأصلها من «كثافة».

٣. «نَكَصَ» من مادة «نكص» على وزن «مكث»، والنكوص يعني التراجع والعودة.

مقرها وفي وقت العصر تعود إلىٰ مكانها الأوّل، وهذا تعبير لطيف عن ظاهرة غروب الشمس.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه عن هذه الواقعة ويقول: «فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاَ وَلاَ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً[1] بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ[2]، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلأْياً بِلأْيٍ مَا نَجَا».

والجدير بالذكر أننا أشرنا إلىٰ هذه الواقعة ذيل الخطبة ٣٩، وهذه الرسالة متناغمة مع مضامين تلك الخطبة.

وعبارة «كَلاَ وَلاَ» تعني أنّ هذا العمل تمّ انجازه بسرعة وانسجام تام كما في لفظة «لا ولا»، وفي بعض عبارات العرب يقال: «لا وذا»، وكليهما إشارة إلىٰ المدّة القصيرة من الزمان، كما يقال في المثل: «كلمح البصر».

وعبارة «بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ»، والمخنق تعني ما يشير إلىٰ الرقبة والحنجرة التي تتعرض للخنق بضغط يسير، وهو إشارة أنّ جيش الإمام عليه السلام أوصلوا الضحاك وجيشه إلىٰ حدّ الموت بحيث لم يبق منهم سوى رمق ضئيل، وهذه العبارة متداولة في اللغة العربية وفي اللغات الأُخرى فعندما يواجه الشخص على رقبته ضغوطاً شديدة يقال إنّه بلغ به الخناق، أو ضيق عليه الخناق.

واللافت أنّ إبراهيم الثقفي ينقل في كتابه «الغارات» واقعة معينة تتضمن تفسيراً وشرحاً لعبارة الإمام عليه السلام في قوله: «وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ»، ويقول: عندما هرب الضحاك من «حجر بن عدي» قائد جيش الإمام علي عليه السلام شعر بالعطش الشديد، لأنّه أضل إبله التي تحمل الماء، وعرضت عليه سِنة من النوم في ذلك الوقت، وبذلك انحراف عن الطريق، وعندما انتبه من نومه لم يجد من جيشه سوى عدّة نفر ولم

---

١. «جريض» هو شخص المختنق من شدّة الحزن أو الهيجان.

٢. «الْمُخَنَّق» هو محل الخنق، من مادة «خنق» على وزن «حرب» وهو الضغط على المخنق أو ضغط رقبة الشخص.

يكن معهم شيء من الماء، فأرسل بعضهم لطلب الماء ولكنّهم لم يعثروا على شيء، وفجأة ظهر رجل وقال له الضحاك: ياعبدالله أنني عطشان فاسقني، فقال: والله لا أسقيك حتى تدفع لي ثمنه، فقال الضحاك: وما ثمنه؟ فقال: ثمن الماء دينك، ثمّ واصل حكاية القصة إلىٰ وصلوا لجماعة كان معهم الماء وشربوا منه[1].

وعبارة «لَأْياً بِلَأْيٍ»، ومع الالتفات أنّ لأي تعني الشدّة، فمفهوم هذه العبارة أنّ الضحاك ومن بقي معه من فلول جيشه واجهوا الشدة بعد الشدّة إلىٰ أن نجوا بجلودهم من الهلكة.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في مقطع آخر من رسالته لعقيل أنّ عبدالله بن سعد، أخ عثمان بن عفان من الرضاعة، كان يسير مع أربعين رجلاً من شباب قريش باتجاه غير معلوم، فسأله عقيل: إلىٰ أين تذهبون يا أبناء أعداء النّبي، هل تريدون اللحاق بمعاوية؟ هنا يقول الإمام عليه السلام: وأمّا حديثك عن مخالفة قريش لي فإنّ قريش بجميع مساعيها في طريق الضلال والشرك والعداء لا زالوا يتحركون في متاهات الضلالة والشقاق: «فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ[2] فِي ٱلضَّلَالِ وَتَجْوَالَهُمْ[3] فِي الشِّقَاقِ[4] وَجِمَاحَهُمْ[5] فِي ٱلتِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صلى الله عليه وآله قَبْلِي».

ثمّ يضيف: «فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي ٱلْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ٱبْنِ أُمِّي».

جملة: «فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي ٱلْجَوَازِي!»، مع الالتفات إلىٰ أنّ الجوازي جمع جازية، وتعني الجزاء والمكافأة على العمل، فمفهوم الجملة أنّ جزاء أعمال قريش

---

١. الغارات، ج ٢، ص ٤٣٩.

٢. «تَرْكَاض» هو الركض الشديد، من مادة «ركض» على وزن «ضرب»، والتركاض صيغة مبالغة للركض.

٣. تجوال، بمعنى كثرة الجولان والتراكض في الميدان.

٤. الشقاق، بمعنى العداوة والمخالفة والانفصال.

٥. «الجماح» بمعنى التمرد، و«جموح» على وزن «قبول» وأصله بمعنى الحيوان المتمرد والمنفلت، ثمّ استعملت في الإنسان المتمرد والحوادث التي ليست باختيار الإنسان وإرادته إطلاقاً.

سيصيبهم عمّا قريب وسيواجهون عاقبة أعمالهم السيئة هذه، وهذه الحقيقة بمثابة الدعاء عليهم لأنّهم لم يراعوا حقّ رحمه وقرابته منهم ولم يسمحوا للإمام عليه السلام بتسلم مقاليد الخلافة التي قررها الله تعالى له عليه السلام وأكد عليها النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والضامنة لسعادة المسلمين في الدنيا والآخرة.

أجل، هؤلاء كانوا في عصر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله من ألد أعدائه وأعداء الرسالة السماوية وكانوا يشعلون نيران الحروب ضد الإسلام وكانت قريش المحور لهذه الفتن والحروب وتتزعم هذه الحروب وكانت آخر من أسلم أو استسلم للنّبي الأكرم عليه السلام في حين أنّ إسلام الكثير منهم يعدّ إسلاماً صورياً لا حقيقياً.

وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله سلكوا ذات الطريق والمنهج مع خليفته ووصيه الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، بل إنّهم كانوا أشدّ وأنكى على الامام عليه السلام لما كانوا يعيشونه من حالات الحقد والانتقام ضده.

ونقرأ في الحديث الشريف للنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال يوماً مخاطباً لعلي بن أبي طالب عليه السلام وهو يبكي ويذرف الدموع: «**ضَغَائِنُ فِي صُدُورِ أقوَامٍ لا يُبْدُونَها لَكَ إلَّا مِنْ بَعدِي**»[1].

وقد أوردنا في ذيل الخطبة ١٧٢ من الجزء الثالث من هذا الكتاب في بيان شكوى الإمام عليه السلام إلى الله تعالى من قريش، بحثاً مفصلاً عن عداوة قريش للإمام علي عليه السلام.

وعبارة «**اَبْنِ أُمِّي**»، عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إمّا من جهة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام كليهما من أبناء فاطمة المخزومية بنت عمرو بن عمران أم عبدالله والد النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأم أبي طالب (والد أميرالمؤمنين) أو من جهة أنّ فاطمة بنت أسد أُم أميرالمؤمنين عليه السلام وكان في ذاك زمان النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله تحت تكفل أبي طالب وقامت بتربية النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله كأمّه، ولذلك قال النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله عنها: «**فاطِمَةُ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي**».

---

١. مجمع الزوائد، الهيثمي، ج ٩، ص ١١٨؛ كنز العمال، ج ١٣، ص ١٧٦، ح ٣٦٥٢٣.

## القسم الثاني

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي ٱلْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ ٱلْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقى ٱللّٰهَ؛ لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ ٱلنَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً، وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ أَبِيكَ -وَلَو أَسْلَمَهُ ٱلنَّاسُ- مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلاَ مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً، وَلاَ سَلِسَ ٱلزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلاَ وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ ٱلْمُتَعَقِّدِ، وَلٰكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ:

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ ٱلزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

## الشرح والتفسير

### لا أكف عن مقارعة الخائنين

إنّ كلام الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة ناظر إلىٰ ما ذكره عقيل في نهاية كتابه إليه وقد سبق ذكره حيث يقول: «فاكتب لي يابن أُمي برأيك، إن كنت الموت تريد فحملت إليك بني أخيك وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومتنا معك إذا مت...»، أي أنّك إذا أردت قتال هؤلاء الناكثين للبيعة فأمرنا لنقاتلهم معك في هذا السبيل، فكتب له الإمام عليه السلام من قوله: «وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي ٱلْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ ٱلْمُحِلِّينَ[1] حَتَّى أَلْقى ٱللّٰهَ».

وكلمة «محلّين» إمّا أنّها تشير إلىٰ الأشخاص الذين نقضوا بيعتهم للإمام ورفعوا

---

1. «ٱلْمُحِلِّين» جاء في صحاح اللغة أنّ «المحل» يقال للشخص الذي ينقض عهده وينكث بيعته ويخرج من إطاره.

لواء التمرد والفتنة في البصرة ووقعة الجمل والأشخاص الذين التحقوا بهم بعد ذلك، أو إشارة إلىٰ قوى الضلالة في الشام الذين أحلّوا سفك الدماء في معركة صفين والذين استمروا في نفس المسار الشيطاني، أو إشارة إلىٰ الطائفتين.

ثمّ يتحرك الإمام عليه السلام ليبيّن عزمه الراسخ وإرادته الجازمة لأخيه عقيل في قتال هؤلاء المتمردين ويؤكّد له أنّ كثرة المخالفين له والخارجين عليه لا تؤثر شيئاً في عزمه وإرادته ويقول: «لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ ٱلنَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً». وهذا الشعار، الذي ينطلق من موقع العمق الفكري والشعور الوجداني والمقتبس من الآيات الشريفة: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ...﴾[1]، أو ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي...﴾[2]، وأمثالها، تشير إلىٰ أنّ أولياء الله والعظماء من رجال الحقّ وبالاعتماد على الذات المقدّسة، لا يشعرون بشيء من الوحشة من كثرة مخالفيهم ولا يعيشون حالات الغرور من جموع الموافقين، فلو أنّ جميع المسلمين اتّخذوا كلام الإمام عليه السلام هذا شعاراً لهم في حياتهم وسلوكياتهم، فمن بالبديهي أنّهم لا يصابون بالاهتزاز والخور في مقابل الغزو السياسي والعسكري والثقافي للغرب وسيحققون النجاحات في جميع هذه الجبهات.

ثمّ يخاطب الإمام عليه السلام أخيه في كلام زاخر بالحيوية والعمق ويقول: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ أَبِيكَ ـ وَلَوْ أَسْلَمَهُ ٱلنَّاسُ ـ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلاَ مُقِرّاً لِلضَّيْمِ[3] وَاهِناً، وَلاَ سَلِسَ[4] ٱلزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلاَ وَطِيءَ[5] ٱلظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ ٱلْمُتَعَقِّدِ».

في هذه العبارات الأربع يبيّن الإمام عليه السلام المراحل المختلفة للتسليم والإذعان في

---

١. سورة الزمر، الآية ٣٦.

٢. سورة المائدة، الآية ٤٤.

٣. «ضَيم» بمعنى الظلم والجور ويأتي مصدره على هذا الوزن أيضاً، ويعني ايقاع الظلم على الآخر وقهره والتغلب عليه.

٤. «سَلِس» المطيع والمنقاد، وأحياناً تأتي بمعنى السهل واليسير.

٥. «وَطِيء» صفة مشبهة بمعنى اللين والملائم.

مقابل العدو، أحدها أسوأ من الأخرىٰ، الأولى أن يتّخذ أُسلوب التضرع والخشوع والتوسل في مقابل العدو، والأخرىٰ أن يخشى قدرة العدو ويشعر بالضعف والخور ويستسلم له، والثالثة، أنّه مضافاً إلىٰ الاستسلام يفقد زمام أموره من يده ويسلم قياده لعدوه ليرى رأيه فيه «وَلاَ سَلِسَ ٱلزِّمَامِ لِلْقَائِدِ»، وأخيراً يحني ظهره ليركبه العدو ويسوقه إلىٰ حيث يريد «وَلاَ وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ».

ما أروع هذه العبارات الدقيقة والحيّة التي تحكي عن غاية الفصاحة والبلاغة في كلام الإمام عليه السلام وأنّ الإمام ينفي عنه نفسه أي شكل من أشكال الاستسلام والخضوع في مقابل العدو.

وكلمة «متقعد» وردت في بعض النسخ «مقتعد»، وتعني الشخص الذي اختار مكاناً للجلوس والقعود، وهو إشارة إلىٰ راكب الدابة الذي يركب دابته ولا يستفيد منها في المسير فقط، بل في جميع حاجاته، فتارة يقف ويتحدّث إلىٰ شخص آخر، وأخرى يشتري حاجات من السوق وهو راكب، وأحياناً يعطي شيئاً لآخر وأمثال ذلك، والخلاصة أنّه جالس على مركبه ويقوم بأعماله ووظائفه دون أن يهتم لهذه الدابة وثقله.

وفي ختام هذه الرسالة، ومن أجل التأكيد أكثر على عزمه الراسخ وإرادته الصلبة في مقابل العدو، يستشهد الإمام عليه السلام بشعر شاعر من طائفة بني تميم ويقول: إنّ حالي كَمَا قَالَ أَخُوبَنِي سَلِيم:

فَـإِنْ تَسْأَلِـينِي كَـيْفَ أَنْتَ فَـإِنَّنِي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ[1] ٱلزَّمَانِ صَلِيبُ[2]
يَـعِزُّ عَـلَيَّ أَنْ تُـرَى بِـي كَـآبَةٌ[3] فَيَشْمَتَ[4] عَـادٍ[5] أَوْ يُسَـاءَ حَـبِيبُ

---

١. «رَيْب» تأتي أحياناً بمعنى الشك وأخرى بمعنى الحوادث المشكلة والتحديات الصعبة.

٢. «صَلِيب» تعني المحكم والشديد، وأصلها من «صلب».

٣. «كَآبَة» تعني الحزن والغم والانكسار الناشيء منه.

٤. «يَشْمَت» من مادة «شماة» وهي فرح العدو.

٥. «عَاد» يعني العدو، من مادة «عداوة».

وهنا خلاف في الشاعر الذي ينسب إليه هذا الشعر، فابن أبي الحديد ينسبه في شرحه لنهج البلاغة إلىٰ عباس بن مرداس السلمي، ولكنّه يقول إنني لم يجده في ديوانه.

يقول المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغة: «قال بن أبي الحديد: الشعر نسب إلى العباس بن مرداس السلمي، ولم أجده في ديوانه»[١].

قلت: بل الظاهر أنّ هذين البيتين لصخر بن عمرو السلمي، قال في الأغاني كان صخر طعن في جنبه في حرب، فمرض قريباً من حول وقد نتأت في موضع الطعنة قطعة مثل الكبد، فأحمسوا له شعرة، ثمّ قطعوها لعله يبرأ، فسمع أن أخته تقول: كيف كان صبره؟ فقال: بهاتين البيتين»[٢].

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٢.

٢. شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ٧، ص ٥٠٢.

# ٣٧

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلى معاوية[١]

### نظرة عامّة للرسالة

هذه الرسالة، كما ورد في تمام نهج البلاغة في بحث سندها، تبتديء بكلام لم يذكره السيّد الرضي للاختصار، ولكن من أجل استيعاب محتوى الرسالة وفهم مضامينها لابدّ من استعراض المقطع الأوّل منها، وقبل ذلك ينبغي الالتفات إلىٰ هذه النقطة، وهي أنّ هذه الرسالة لم تكن رسالة ابتدائية من الإمام عليه السلام لمعاوية بل هي جواب عن رسالة أرسلها معاوية للإمام عليه السلام، ورغم أنّ نص رسالة مفقود ولم يتعرض له أحد من شرّاح نهج البلاغة ولكن يتبيّن من جواب الإمام عليه السلام إجمالاً أنّ معاوية أشار في رسالته إلىٰ ثلاثة أمور:

الأوّل: إنّه استند في إثبات حقانيّته أنّه منصوب من قبل عمر بن الخطاب لهذا المقام.

والآخر: أنّه اقترح على الإمام عليه السلام أن يضع بيده وتحت اختياره الشام ومصر وأن

---

١. سند الرسالة:
لهذه الرسالة مطلع حذفه السيّد الرضي طبقاً لمنهجه في الانتقاء، وقد اقتصر على ذكر ذيل هذه الرسالة، وقد نقل المرحوم ابن ميثم وابن أبي الحديد صدر هذه الرسالة كما سنشير إلىٰ ذلك لاحقاً، وهذا يشير إلىٰ أنّهما عثرا على مدرك ومصدر غير نهج البلاغة ذكر فيه صدر الرسالة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٢).

يوافق الإمام عليه السلام على أن تكون الخلافة من بعد الإمام له.

الثالث: أنّه اتّهم الإمام عليه السلام بالمشاركة في قتل عثمان وادّعى المطالبة بثأره والانتقام من قاتله.

فكتب إليه الإمام عليه السلام جواباً على ذلك يقول:

«أمّا بعد، فإنَّ الدُّنيا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ ذَاتُ زِينَةٍ وَبَهجَةٍ، لَمْ يَصْبُ إِلَيهَا أَحَدٌ إِلّا شَغَلَتْهُ بِزِينَتِها عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِنهَا وَبِالآخِرَةِ أُمِرنا، وَعَلَيهَا حُثِثنا فَدَعْ، يا مُعاوِيةُ، مَا يَفْنىٰ اعْمَلْ لِمَا يَبقىٰ، واحْذَرْ المَوْتَ الَّذِي إِلَيهِ مَصِيرُكَ، وَالحِسابَ الَّذِي إِلَيهِ عَاقِبَتُكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ ـ تَعَالى ـ إِذا أَرَداَ بِعَبْدٍ خَيْراً حَالَ بَينَهُ وَبينَ مَا يَكْرَهُ، وَوَفَّقَهُ لِطَاعَتِهِ، إِذا أَرَداَ بِعَبْدٍ سُوءاً أَغْرَاهُ بِالدُّنيَا، وَأَنسَاهُ الآخِرَةَ، وَبَسَطَ لَهُ أَمَلَهُ، وَعَاقَهُ عَمّا فِيهِ صَلاحُهُ وَقَدْ وَصَلَنِي كِتابُكَ فَوَجَدْتُكَ تَرْمِي غَيرَ غَرَضِكَ، وَتَنْشُدُ غَيرَ ضَالَّتِكَ، وَتَخبِطُ فِي عَمَايَةٍ وَتَتِيهُ فِي ضَلالَةٍ وَتَعْتَصِمُ بِغَيرَ حُجَّةٍ، وَتَلُوذُ بِأَضْعَفِ شُبهَةٍ فَأَمَّا سُؤالِكَ إِلَيَّ المُتارَكَةَ وَالإِقرارَ لَكَ عَلَىٰ الشَّامِ، فَلَو كُنْتُ فَاعِلاً ذٰلِكَ اليَومَ لَفَعَلتُهُ أمسِ، وَأَمَّا قَولُكَ: إِنَّ عُمَرَ وَلّاكَها، فَقَدْ عَزَلَ مَنْ كَانَ وَلّاهُ صَاحِبُهُ، وَعَزَلَ عُثمَانُ مَن كَانَ عُمَرُ وَلّاهُ وَلَمْ يُنصَب لِلنّاسِ إِمامٌ إِلّا مِنْ صَالِحِ الأُمَّةِ مَا قَدْ كَانَ ظَهَرَ لِمَنْ كَانَ قَبلَهُ، أَو خَفِيَ عَنْهُم عَيبُهُ، والأَمرُ يَحْدُثُ بَعْدَهُ الأَمرُ، وَلِكُلِّ وَالٍ رَأْيٌ واجتِهادٌ...»[١].

⁂

وما ذكره السيّد الرضي في نهج البلاغة يمثّل المقطع التالي من هذه الرسالة.

وعلى أية حال بالإمكان تقسيم ما ورد من الرسالة في نهج البلاغة إلىٰ قسمين:

الأوّل: توبيخ معاوية بسبب اتباعه لهوى النفس وتجاهله الحقائق الموضوعية وإنكاره العهود الإلهيّة.

والثاني: الجواب عن ادّعاءات معاوية في المطالبة بدم عثمان ومطالبته الإمام عليه السلام بتسليم قاتله.

⁂

١. تمام نهج لبلاغة، ص ٨٣٨؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٣.

**فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ ٱلْمُبْتَدَعَةِ، وَٱلْحَيْرَةِ ٱلْمُتْعِبَةِ مَعَ تَضْيِيعِ ٱلْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ ٱلْوَثَائِقِ، ٱلَّتِي هِيَ لِلّٰهِ طِلْبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ. فَأَمَّا إِكْثَارُكَ ٱلْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ ٱلنَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ ٱلنَّصْرُ لَهُ، وَٱلسَّلَامُ.**

## الشرح والتفسير

### ما أنت والطلب بدم عثمان؟

كما أشرنا آنفاً أنّ المؤرخين وكتّاب السير وللأسف لم يذكروا، بحدود علمنا، نص رسالة معاوية للإمام عليه السلام، رغم أنّ بعض مقاطع تلك الرسالة يمكن استيحاؤها من جواب الإمام عليه السلام له، وفي هذا المقطع من رسالة الإمام عليه السلام نرى أنّ الإمام يوبخ معاوية بشدّة بسبب اتباعه للأهواء المطامع الموهومة التي تقوده إلى متاهات الحيرة، ويتبيّن أنّ معاوية كان قد كتب للإمام عليه السلام كلمات وقحة وتجرأ على الإمام بعبارات لا مسؤولة، ومن هنا يقول له الإمام عليه السلام: «**فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ ٱلْمُبْتَدَعَةِ، وَٱلْحَيْرَةِ ٱلْمُتْعِبَةِ مَعَ تَضْيِيعِ ٱلْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ**[1] **ٱلْوَثَائِقِ، ٱلَّتِي هِيَ لِلّٰهِ طِلْبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ**».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارة الوجيزة والعميقة المعنى يلخص علل وعوامل انحراف معاوية عن جادة الحقّ بأربعة أمور، الأوّل: اتّباع الأهواء والنوازع النفسانيّة، والآخر: اتباع عوامل الحيرة وسبل المتاهة، والثالث: غض النظر عن

---

١. «اطّراح» من مادة «طرح» يعني إلقاؤه بعيداً.

الحقائق الموضوعية، والرابع: نقض العهود والمواثيق الإلهيّة.

وبديهي أنّ كلّ واحد من هذه العوامل من شأنه أن يقود الإنسان إلىٰ مهاوي الضلالة والتردي في وادي السقوط الأخلاقي، فكيف إذا اجتمعت كلّها في شخص واحد؟!

إنّ الحقائق التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه الرسالة، والتي ضيّعها معاوية تعدّ من الخصائص المنحصرة بشخص الإمام علي عليه السلام في العصر الأوّل للإسلام والذي كان مع النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله منذ بداية الدعوة إلىٰ آخر أيّام النّبي المباركة، وفي المقابل نسيان معاوية لسوابقه في عصر الجاهليّة وما ارتكبه أبوه وأمّه من أعمال شنيعة بحيث لا يسع أي عاقل أن يقارنه بالإمام علي عليه السلام مع تلك الخصوصيات الفذة والخصال الممتازة التي اجتمعت فيه، ومع كلّ ذلك يريد معاوية أن يخلف الإمام علي عليه السلام في مسند الحكومة والخلافة ويطمح أن تكون له السيطرة في حياة الإمام على قسم عظيم من البلاد الإسلاميّة.

«وثائق»: أي العهود والمواثيق، وهي إشارة إلىٰ المواثيق التي أُخذت من الإنسان المؤمن بأن يسير في خط الطاعة والتسليم لأحكام الله تعالى، وجملة «الَّتِي هِيَ للهِ طِلْبَةٌ»، بما أن طلبة تعني المطلوب، فهي إشارة إلىٰ أنّ الله تعالى يطالب عبيده بالوفاء بجميع هذه العهود والمواثيق.

فمن جهة فإنّ كلّ إنسان مؤمن، وبمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1]. يحمل الأمانة الإلهيّة في حياته، ومن جهة أخرى وبمقتضى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[2]. مطالب بإطاعة أوامر الله ورسوله، ومن جهة ثالثة وبمقتضى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا

١. سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
٢. سورة آل عمران، الآية ٣٢.

بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]، مطلوب منه ترك عبادة الشيطان واتّباع وساوسه، فكل هذه الأمور متضمنة في ثنايا المواثيق الإلهيّة وقد أتمّ الله حجّته على عباده بمقتضى هذه الآيات الشريفة.

ويتابع الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرسالة كلامه في توبيخ معاوية ويقول: «فَأَمَّا إِكْثَارُكَ ٱلْحِجَاجَ[2] عَلَى عُثْمانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّما نَصَرْتَ عُثْمانَ حَيْثُ كَانَ ٱلنَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ ٱلنَّصْرُ لَهُ، وٱلسَّلَامُ».

فالإمام عليه السلام يتعجب من هذا الادعاء الواهي لمعاوية وكأنّه يرى نفسه ولي دم عثمان، فيقول له الإمام عليه السلام بتعبير شيق وبليغ، بأنّك أنت الذي منعت نصرك لعثمان وخذلته، لأننا نعلم، والتاريخ أيضاً شاهد على هذا المعنى، بأنّ عثمان طلب النصرة والمعونة من معاوية وأن يرسل له معاوية جيشاً ليذب عنه وينصره، ولكن معاوية أمر الجيش بالاقتراب من المدينة وعدم دخولها وكأنّه يريد أن يقتل عثمان ويهيىء الأرضية اللازمة لتولي الخلافة ثمّ يقول للناس إنني أرسلت جيشاً لنصرته ولكنّ الجيش تأخر عن الوصول للمدينة.

يقول البلاذري المؤرخ المعروف: «لمّا أرسل عثمان إلىٰ معاوية يستمده، بعث يزيد بن أسد القسري، جدّ خالد بن عبدالله بن يزيد أميرالعراق وخال له: إذا أتيت ذاخُشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإنّني أنا الشاهد وأنت الغائب.

قال الراوي: أقام بذي خُشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذٍ معاوية فعاد إلىٰ الشام بالجيش الذي أرسل معه».

ويضيف البلاذري هنا: «وإنّما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمان فيدعو إلىٰ نفسه»[3].

---

١. سورة يس، الآية ٦٠.

٢. «ٱلْحِجَاج» يعني المجادلة للتغلب على الطرف المقابل.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.

والملفت أنّ الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة بعد أن ذكر هذه القصة قـال: «تشهد جميع المواقف من سيرة معاوية أنّ هذه الحادثة، وفيما سبق نـقلناها عـن المؤرخين والباحثين القدمى والجدد، أنّ معاوية خذل عثمان في حياته وطلب منه أن يجعله وليَّ دمه، وأنّه بعد أن تمّ له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان، وأنّه كـان يستقبل قتلته ويجيزهم بالأموال (انظر كتاب معاوية، العقاد، ص ١٥٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦)»[١]. يعني أنّ جميع الشواهد التـاريخيّة فـي سـيرة مـعاوية تشـهد أنّ هذه‌الرواية عين الحقيقة والواقع، ولكن عندما هدأت الأوضـاع ورأى مـعاوية أنّ الطلب بدم عثمان ذريعة جيدة لدعوة الناس إليه، رفع قميص عثمان وأخذ بالبكاء والنحيب وإثارة أحاسيس الناس، والأعجب من ذلك أنّه عـندما اسـتشهد الإمـام أميرالمؤمنين عليه السلام وجلس معاوية على مسند الخلافة، ليس فقط لم يترك فقط قتلة عثمان، بل استقبلهم برحابة صدر وأجزل لهم العطاء.

## تأمل

### رسالة معاوية إلىٰ ابن عباس وجوابه

ومن النقاط الملفتة للنظر أنّ ابن أبي الحديد أورد في ذيل هذه الرسالة مـورد البحث رسالة معاوية إلىٰ ابن عباس في أيّام صلحه مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حيث دعاه إلىٰ بيعته، ومن جملة ما ذكر له في هذه الرسالة: «ولعمري لو قـتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضاً، وأن يكون رأياً صواباً، فإنّك من السـاعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منّي ولا بيدك أمان».

ولكن ابن عباس لم يشعر بالخوف من تهديد معاوية وأجـابه جـواباً حـاسماً ومطولاً يقول فيه: «وأمّا قولك إني من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه،

---

١. في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٥٤٩.

وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منّي، فأقسم بالله لأنت المتربص بقتله، والمحبّ لهلاكه، والحابس الناس عنه على بصيرة في أمره، ولقد آتاك كتابه وصريخه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معذراً بأجرة، أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يُقتل، فقُتل كما كنت أردت، ثمّ علمت عند ذلك أنّ الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه، وتقول: قتل مظلوماً. فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثمّ لم تزل مصوّباً مصعّداً، وجاثماً ورابضاً؛ تستغوي الجهّال، وتنازعنا حقّاً بالسفهاء حتى أدركت ما طلبت... ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾»[1] (وهذه الجملة الآية مقتبس من الآية ١١١ من سورة الأنبياء).

ويستفاد من رسالة معاوية إلىٰ ابن عباس، وكذلك رسالته للإمام عليه السلام، أنّه كان ينسب بكلّ وقاحة، ما كان سهيماً فيه للوصول إلىٰ أهدافه ومطامعه، لأي شخص يريد لكي يثير إحساسات العامّة من الناس ضده ويجعله يستسلم لمطالبه ويذعن لخلافته، في حين أنّ جميع الشواهد التاريخيّة تشير إلىٰ أنّ معاوية كان في باطنه يرغب في قتل عثمان ولم يتقدم خطوة لنصرته، مع أنّ عثمان طلب منه بصراحة النصرة والمساعدة، وعلى حدّ تعبير محمّد بن مسلمة الأنصاري الذي كتبه في جواب معاوية، أنت في حياة عثمان لم تقدم على نصرته بل نصرته بعد موته: «وَلَئِن كُنْتَ نَصرتَ عُثْمانَ مَيّتاً لَقَدْ خَذَلْتَهُ حَيّاً»[2].

وذكرنا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب، ص ٤٢١، والجزء الثاني، ص ٤٨٠، والجزء الثالث، ص ٢٢٦، تفاصيل جديرة بالنظر فيما يخص رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية لبيعته والإشارة إلىٰ علل وعوامل مقتل عثمان.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.

٢. صفين، ص ٧٦.

# ٣٨

# وَمِنْ كِتابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

## إلىٰ أهْلِ مِصْرَ لَمّا وَلّىٰ عَلَيْهِمُ الأشْتَرَ[١]

### نظرة عامّة للرسالة

نعلم بأنّ الإمام عليه السلام كتب رسالة وسلّمها لمالك الأشتر وفيها يذكر المناهج العمليّة والأساليب الإدارية في المجالات المختلفة في قضايا الحكومة والإدارة، وهذه الرسالة المعروفة بـ «عهد مالك الأشتر» وردت في نهج البلاغة، الكتاب ٥٣، وسيأتي بيانها وشرحها، وقد كتب رسائل أخرى أيضاً إلىٰ أهل مصر عندما أرسل إليهم مالك الأشتر والياً على مصر، وإحدى هذه الرسائل هي ما سنبحثه الآن، والأخرىٰ المرقمة ٦٢ في نهج البلاغة، ويتبيّن من جميعها ما كان لمالك الأشتر من مقام وشخصيّة قويّة وإيمان عميق وأنّه إنسان قوي وشجاع ومدير ومدبّر ومخلص.

---

١. سند الرسالة:

نقل هذه الرسالة جماعة من المؤرخين والعلماء عاشوا قبل السيّد الرضي، في كتبهم، منهم: الطبري في تاريخه المعروف في حوادث سنة ٣٨ للهجرة، والشيخ المفيد في كتابيه الاختصاص والأمالي، وابن الهلال الثقفي في موردين من كتاب «الغارات»، ففي المورد الأوّل نقلها عن صعصة بن سوحان وفي المورد الثاني عن المدائني عن أحد غلمان مالك الأشتر، قال: عندما توفي مالك الأشتر (في طريقه إلى مصر بسبب السم) رأوا رسالة مشدودة إلى رجليه وهذه الرسالة من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ أهالي مصر (مصادر نهج البلاغة، ج٣، ص٣٣٦).

والرسالة مورد البحث تتشكل من قسمين:

القسم الأوّل: يتضمّن مدح وتمجيد أهالي مصر، الذين هبّوا للدفاع عن الإسلام في وقت ساد فيه الظلم والفساد المجتمعات البشرية وانطفأت جذوة الحقّ والعدالة في الأُمّة وشاعت المنكرات والقبائح في فضاء البلاد الإسلاميّة.

وفي القسم الثاني: يستعرض شخصيّة مالك الأشتر بوصفه رجلاً يتمتع بإمتيازات ومواهب ممتازة بحيث تجعله جديراً بالولاية والإمارة، ويذكره في هذه الرسالة بعبارات راقية قلّما ذكر الإمام عليه السلام أحداً بهذه الصفات، وبعد ذلك طلب الإمام من أهالي مصر أن يتواصلوا معه من موقع الطاعة لأوامره والتقدير لشخصيّته.

٭٭٭

## القسم الأول

**مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ ٱلْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى ٱلْبَرِّ وَٱلْفَاجِرِ، وَٱلْمُقِيمِ وَٱلظَّاعِنِ، فَلا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلاَ مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.**

## الشرح والتفسير

### المصريون الذين غضبوا لله

يستهل الإمام عليه السلام رسالته لأهالي مصر، كما تمّت الإشارة إليه، بوصف بليغ لهؤلاء المؤمنين، ويقول: «مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ ٱلْجَوْرُ سُرَادِقَهُ[1] عَلَى ٱلْبَرِّ وَٱلْفَاجِرِ، وَٱلْمُقِيمِ وَٱلظَّاعِنِ[2]، فَلا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلاَ مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ».

وفيما يتصل بوقت صدور هذه العبارات الواردة في الرسالة يتفق جميع شرّاح نهج البلاغة أنّها تشير إلىٰ عصر كان عبدالله بن أبي سرح المجرم المعروف والياً على مصر من قِبل عثمان بن عفان، فقد سلك هذا الوالي ومعه أزلامه وأعوانه طريق الظلم والجور على أهالي مصر بعيداً عن التعاليم الرساليّة والأحكام الإسلاميّة، فلم يعترف عملاً بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ولا اتّخذ خطوات عمليّة في هذا المجال.

---

١. «سُرَادِق» أصلها فارسية بمعنى الخيم التي تتخذ لتشكيل المجالس المختلفة وأحياناً تنصب في باحة الدار، وأخرى بشكل مستقل.

٢. «ٱلظَّاعِن» هو المنتقل من محل لآخر، من مادة «ذعن» على وزن «طعن» وهو الانتقال.

ولا ننسى أنّ عبد بن أبي سرح كان من جملة كتّاب الوحي في بداية الأمر ولكن بسبب خيانته فقد سخط عليه النّبي الأكرمﷺ ونزلت آية من القرآن في ذمّه، فكان أن ارتد عن الإسلام والتحق بالمشركين وأخذ يتآمر ضد الإسلام، وعندما فتح المسلمون مكّة كان هذا الرجل أحد الأفراد المعدودين الذي أمر النّبي الأكرمﷺ بقتلهم، ولكن بما أنّ عبدالله أخو عثمان من الرضاعة فقد أخفاه عثمان في داره، ثمّ جاء به إلىٰ النّبي الأكرمﷺ وطلب منه الأمان له، فأعرض النّبي الأكرمﷺ بوجهه عنه وكرر عثمان طلبه هذا ثلاث مرات، وأخيراً وافق النّبي الأكرمﷺ على طلبه، وعندما غادر عثمان ومعه عبدالله من عند النّبي قال النّبيﷺ لمن حوله من أصحابه: «لَقَد صَمَتُّ لِيَقُومَ إِلَيهِ بَعضُكُم فَيَضرِبَ عُنُقَهُ»، فقام رجل من الأنصار وقال: «فَهلّاً أَومَأتَ إِلَيَّ يارَسُولَالله»، فقال النّبي الأكرمﷺ: «إنّ النَّبِيَّ لا يَقتُل بِالإشارة»[1].

وعلى أيّة حال فإنّ أهل مصر ثاروا ضد هذا الرجل الخائن، ولكنّه صمد لهم وتمسك بمنصبه بقوّة، ومن هنا تحركت جماعة من ألفي رجل من مصر باتجاه المدينة يطالبون عثمان بعزله، ولكنّ عثمان، ليس فقط لم يعزل هذا الوالي بل كتب إليه كتاباً وأرسله مع غلامه يتحدّث فيه عن لزوم معاقبة رؤوس المعترضين ويوصيه باعدامهم أمام الملأ ويعاقب البعض الآخر بشدّة ليكونوا عبرة للآخرين، فاكتشف الثوّار المصريون هذه الرسالة وارتفعت أصوات اعتراضهم ضد عثمان وقالوا: يجب علينا العودة إلىٰ المدينة لعزل عثمان من سدّة الخلافة.

وفي ذلك الوقت كانت جماعات كثيرة قد أقبلت من الكوفة والبصرة وكانوا يحملون معهم اعتراضات وشكاوى مماثلة، أضف إلىٰ ذلك أنّ الكثير من المهاجرين والأنصار كان يرون أنّ عثمان، وبسبب أعماله السلبية، غير جديرة بخلافة المسلمين وينبغي عزله، ولكنّ عثمان ثبت في موقعه وأصرّ على البقاء في الخلافة وفي هذا المقام، وتسبب ذلك بسيادة الغضب وسخط الثائرين عليه وأخيراً

---

١. أنظر: سيرة ابن هشام، والاستيعاب، ابن عبدالبر.

استطاعوا قتله على يد أبي حرب الغافقي المصري، وذهب بعض المؤرخين إلىٰ أنّ قاتله أشخاص آخرون[١]، هذا في حين أنّ الإمام علي عليه السلام أرسل ولديه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلىٰ دار عثمان لمنع دخول الناس إليها، لأنّ الإمام علي عليه السلام لم يكن موافقاً على قتل عثمان، رغم أنّه كان يعتقد بلزوم عزل عثمان.

وأمّا ما يرتبط بالرسالة مورد البحث وما ورد فيها من تقدير وتبجيل من الإمام علي عليه السلام لأهالي مصر فبعض المؤرخين استنبط من هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام كان موافقاً على قتل عثمان.

يقول ابن أبي الحديد في هذا المورد: «هذا الفصل يشكل عليّ تأويله، لأنّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أميرالمؤمنين عليه السلام أنّهم غضبوا لله حين عصي في الأرض، فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال إن كان متعسّفاً: إنّ الله تعالى عصي في الأرض لا من عثمان، بل من وُلاته وأمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق الله، وضربت الجور سرادقه بولايتهم وأمرهم على البر والفاجر، والمقيم والضاعن، فشاع المنكر، وفقد المعروف».

ثمّ يضيف ابن أبي الحديد: «ويبقى أن يقال: هب أنّ الأمر كما تأولت، فهؤلاء الذين غضبوا لله إلىٰ ماذا آل أمرهم؟ أليس الأمر آل إلىٰ أنّهم قطعوا المسافة من مصر إلىٰ المدينة فقتلوا عثمان؟ فلا تعدوا حالهم أمرين: إمّا أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا اسخطوا الله تعالى بقتله، فعثمان إذاً على حقّ، وهم الفسّاق العصاة، فكيف يجوز أن يبجّلهم أو يخاطبهم خطاب الصالحين؟ ويمكن أن يجاب على ذلك بأنّهم غضبوا لله، وجاءوا من مصر، وأنكروا على عثمان تأميره الأُمراء الفسّاق، وحصروه في داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسوه، أو يؤدّبوه على ما كتبه في أمرهم، فلما حُصِر طمع فيه مبغضوه وأعداؤه

---

١. لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع راجع هذا الكتاب (نفحات الولاية الجزء الثاني استناد لما ورد في تاريخ الطبري).

من أهل المدينة وغيرها، وصار معظم الناس إلباً عليه، وقلّ عدد المصريين بالنسبة إلىٰ ما اجتمع من الناس على حصره، ومطالبته بخلع نفسه، وتسليم مروان وغيره من بني أُميّة إليهم، وعزل عمّاله والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذٍ يطلبون نفسه، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره، فرماهم بعض عبيده بالسهام، فجرح بعضهم، فقادت الضرورة إلىٰ النزول، والاحاطة به، وتسرع إليه واحد منهم وقتله، ثمّ إنّ ذلك القاتل قُتِل بالوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم وشرحناه، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقون، لأنّهم ما أنكروا إلّا المنكر، وأمّا القتل فلم يقع منهم، ولا راموه ولا أرادوه، فجاز أن يقال: إنّهم غضبوا لله، وأن يثني عليهم ويمدحهم»[1].

وقد وافق بعض شرّاح نهج البلاغة على هذا الكلام والتقرير، ويظهر من كلماتهم أنّ هذا الكلام خالٍ من التكلّف، لأنّ القرائن التاريخيّة من جهة تشير إلىٰ أنّ الإمام علي عليه السلام لم يؤيد أحداً على قتل عثمان بل كان مانعاً عن قتله، رغم أنّه كان يعترض بشدّة على أعمال عثمان وتسليطه أفراد من بني أُميّة الفاسدين على أموال وأرواح المسلمين، ومن جهة أخرى أنّ الرسالة مورد البحث تشير إلىٰ أنّ قيام أهالي مصر يستحق الثناء والتبجيل، ويمكن الجمع بين هذين الأمرين بما ذكر آنفاً وأنّ كلام الإمام عليه السلام في هذه الرسالة لا يدلّ اطلاقاً على مدح قتلة عثمان[2].

وضمناً فقد بيّن الإمام في هذه الرسالة خصوصيات المجتمع الفاسد في عبارات موجزة وذلك بقوله: إنّ مثل هذا المجتمع هو الذي تظهر فيه المعاصي والمنكرات وتتكرس فيه حالات الجور والظلم لتستوعب جميع الأخيار والأشرار، فلا أمان لأحد لا في المدن ولا في البراري وأنّ الرذائل ستشتد وتقوى على حساب الفضائل.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٦.

٢. شرح نهج البلاغة، لابن ميثم وفي ظلال نهج البلاغة.

## القسم الثاني

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ ٱللّٰهِ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ ٱلْخَوْفِ، وَلاَ يَنْكُلُ عَنِ ٱلْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ ٱلرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى ٱلْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ ٱلنَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ ٱلْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ ٱلْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللّٰهِ، لاَ كَلِيلُ ٱلظُّبَةِ، وَلاَ نَابِي ٱلضَّرِيبَةِ؛ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لاَ يُقْدِمُ وَلاَ يُحْجِمُ، وَلاَ يُؤَخِّرُ وَلاَ يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

## الشرح والتفسير

### نصبت عليكم والياً مقتدراً وبصيراً بالأمور

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لأهالي مصر من موقع التمجيد والتعريف بمالك الأشتر، وبعد أن يصفه بست صفات ممتازة جدّاً، يأمر أهالي مصر بالطاعة له ويدعوهم لامتثال أمره وكأنّ هذا الأمر بالطاعة مقترن بالدليل على ذلك.

بداية يقول الإمام عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ ٱللّٰهِ». المجيء بكلمة «عبد» نكرة يراد به التعظيم والإشارة إلىٰ أنّ مالك الأشتر في مقام العبودية لله تعالى جدير بهذا المقام، والإمام عليه السلام يصفه بأهم وأعلى صفة للإنسان وهي مقام العبودية لله، وهذا هو ما نقوله في صلاتنا اليومية لمقام النبوة والرسالة، حيث نقول في التشهد: «أشهد أنّ محمّداً عبده ورسولُه»، وهذه هي الحقيقة التي يفتخر بها

الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ويقول: «كَفَىٰ بِي عِزّاً أن أكُونَ لَكَ عَبداً»[١].

يتابع الإمام عليه السلام وصفه لمالك الأشتر ويذكر الصفة الثانية والثالثة بقوله: «لاَ يَنَامُ أَيَّامَ ٱلْخَوْفِ، وَلاَ يَنْكُلُ[٢] عَنِ ٱلْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ ٱلرَّوْعِ[٣]».

وهذان الوصفان في الحقيقة من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان لتحقيق النصر على العدو، والاستعداد الدائم في زمان الخوف من هجوم العدو وعدم الخشية من حيله ومكره، ولا كثرة عدده وعدّته، وهو ما يلزم القائد الفذ والزعيم المقدام، والتاريخ يشهد أنّ القادة والأُمراء الذين هزموا بالمعارك لم يكونوا يتمتعون باحدى هاتين السمتين، فإمّا أنّهم غفلوا عن مكر العدو، أو قادهم الخوف من العدو إلىٰ الهزيمة والذلّة.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الرابعة ويقول: «أَشَدَّ عَلَى ٱلْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ ٱلنَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ ٱلْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ[٤]».

عبارة «حَرِيقِ ٱلنَّارِ» تعتبر في الحقيقة أبلغ تعبير لبيان الهجمات الشرسة لمالك الأشتر على الأعداء في ميادين القتال، لأنّه ليس كمثل النار في الإفناء والإهلاك، فالماء يغرق، والحجر يكسر، ولكن النار تحرق وتحوّل الشيء إلىٰ رماد.

وينقل المحقق التستري في شرحه نهج البلاغة عن كتاب (صفين لنصر بن مزاحم) خرج رجل من أهل الشام ـ في معركة صفين ـ قلّما رؤي أطول وأعظم منه وشجاعاً مقداماً فدعا إلىٰ المبارزة طبقاً للعادة المتداولة في الحروب في ذلك الزمان، فلم يخرج إليه إنسان من جيش أميرالمؤمنين عليه السلام لمبارزته أو الخروج له ـ وخرج إليه مالك الأشتر فقتله، فقال رجل منهم: أُقسم بالله لأقتلنّ قاتلك. فحمل

---

١. بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٩٤، ح ١٠.

٢. «لاَ يَنْكُل» في الأصل من مادة «نكول» ويعني التراجع عن خوف، وأحياناً تطلق على كلّ تراجع من أداء عمل معين.

٣. «ٱلرَّوْع» الخوف والوحشة، وأحياناً تأتي بمعنى التخويف والترهيب.

٤. «مَذْحِجٍ» قبيلة في اليمن، ويعتبر مالك الأشتر من رؤوساء تلك القبيلة ثمّ جاء إلىٰ المدينة ومنها إلىٰ الكوفة وأضحى من جملة شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام الخاصين وأتباعه المخلصين.

على مالك الأشتر فضربه، فإذا هو بين يدي فرسه وحمل أصحابه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو رفيقة السهمي: «كان هذه ناراً فصادفت إعصاراً»، أي أنّه لم يقاوم أمام الإعصار[1].

ثمّ يخرج الإمام عليه السلام بنتيجة من هذه الأوصاف المذكوره لمالك الأشتر ويقول: «فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيما طَابَقَ ٱلْحَقَّ».

وبديهي أنّ العبد المخلص لله تعالى والمنتبه لمخططات العدو والذي لا يجفل ولا ينكل عن الأعداء بل يهجم عليهم كالنار أو الصاعقة، هو الشخص الذي ينبغي إطاعة أمره والاصغاء لتوجيهاته، والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يقول: «فِيما طَابَقَ ٱلْحَقَّ»، وهو إشارة إلىٰ أنّه لا أحد من البشر معصوم سوى الأنبياء والأوصياء ومن هنا فإنّ إطاعة أوامره يجب أن يكون محدوداً في إطار مطابقة الحقّ، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصي بهذه التوصية حتى لأقرب المقربين منه، ولذلك يقول ابن أبي الحديد في شرحه لهذه العبارة: «وهذا يشير إلىٰ القدرة الإيمانيّة والصلابة الروحية للإمام بحيث إنّه لا يرى التساهل والتسامح حتى بالنسبة لأحب الأفراد إليه، ولذلك يقيد إطاعة أمره بهذا القيد، لأنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعصِيَةِ الخَالِقِ»[2].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الخامسة للمال الأشتر ويقول: «فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللّٰهِ، لاَ كَلِيلُ[3] ٱلظُّبَةِ[4]، وَلاَ نَابِي[5] ٱلضَّرِيبَةِ»[6].

جملة: «سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللّٰهِ» تعدّ أفضل تعبير عن رجل شجاع كمالك الأشتر

---

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٧، ص ٦٠٤.

٢. كنز العمال، ج ٥، ص ٧٩٢، ح ١٤٤٠١.

٣. «كَلِيل» هو الضعيف والعاجز، من مادة «كَلّ» على وزن «حَلّ».

٤. «ألظُّبَة» حافة السيف والرمح والخنجر.

٥. «نَابِي» هو السيف الكليل الذي لا يعمل، والكلمة في الأصل من «نوبة» على وزن «ضربة» وهو المكان المرتفع، وبما أنّ السيف الكليل لا يدخل في الموضوع ويقف في أعلاه فقيل عنه «نابي».

٦. «ألضَّرِيبَةِ» بمعنى المضروب والمحل الذي وجهت له ضربة.

من حيث قوّة شكيمته ورسوخ عقيدته وشدّة بطشه بالأعداء.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ سيف الله لقب خالد بن وليد، ولكنّهم اختلفوا في مَن لقّبه بهذا اللقب، فذهب بعض إلىٰ أنّ النّبي الأكرمﷺ هو الذي منحه هذا اللقب، ولكنّ ابن أبي الحديد يصرّح بأنّ الصحيح أنّ هذا اللقب لخالد قد لقّبه به أبوبكر بسبب حروبه مع أهل الردّة ومسيلمة الكذاب وانتصاره عليهم، ولكننا نعلم أنّ خالد بن وليد كان قد اقترف أعمالاً سيئة وتصرفات سلبية كثيرة ولا يقبل المقارنة مع مالك الأشتر وهو الرجل الشجاع والصادق والمخلص، والجدير بالذكر أنّ ابن الأثير يقول: «عندما قتل خالد مالك بن نويرة (بدون مبرر شرعي) وتزوج من زوجته، غضب عمر عليه وقال لخالد، قتلت مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، أُقسم والله لأرجمنّك بأحجارك، وأصرّ على أبي بكر أن يقتص من خالد بسبب قتله مالك بن نويرة، ولكن أبا بكر قال في جوابه: لقد فعل خالد وأخطأ ولكنني لا أشيم سيفاً سلّه الله على المشركين»[1] (وهذا هو السبب الذي دعى البعض إلىٰ أن يلقّبوه بسيف الله، ولكن يا لهذا السيف!!).

ثمّ يستطرد الإمامعليه السلام بذكر نتيجة لهذا الاستدلال ويقول: «فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا».

ثمّ يصف الإمامعليه السلام الأشتر بالصفة السادسة والأخيرة ويقول: «فَإِنَّهُ لاَ يُقْدِمُ وَلاَ يُحْجِمُ[2]، وَلاَ يُؤَخِّرُ وَلاَ يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ[3] عَلَى عَدُوِّكُمْ».

وبديهي أنّ مالك الأشتر لم يكن يصدر أوامر وتوصيات من الإمامعليه السلام في

١. أنظر: الكامل، لابن الأثير، ج ٢، ص ٣٥٨؛ أسد الغابة، ج ٤، ص ٢٧٧ في ترجمة حياة مالك بن نويرة.

٢. «يُحْجِمُ» من مادة «احجام» و«حجم» على وزن «رجم» في الأصل بمعنى تكميم فم الحيوان، ثم أطلقت على كل منع وإعاقة لعمل معين.

٣. «شَكِيمَة» هي اللجام الذي يوضع في فم الدابة ويمنعها من أن تتحرك بما يخالف إرادة صاحبها، وفي الجملة أعلاه إشارة إلى أنّ مالك الأشتر يكبح جماح عدوكم ويمنعه من التحرك.

الأمور الجزئية وفي التفاصيل مع تلك الفاصلة الكبيرة بين مصر والعراق والكوفة، هذا يعني أنّ الإمامعليه السلام قد علّمه مباديء عامّة وأصولاً كلّية (كما ورد في عهده المعروف للمالك الأشتر في الرسالة ٥٣ كما سيأتي لاحقاً) وفوّض معرفة الفروع والتفاصيل لمالك من خلال ردّها إلىٰ تلك الأصول الكلّية، وهذا هو الاجتهاد بمعناه الصحيح وهو: ردّ الفروع إلىٰ الأصول.

إنّ هذه الصفات الست إذا توفرت في أي شخص فإنّه سيبلغ مرتبة الإنسان الكامل الجامع لجميع الكمالات المادية والمعنويّة والظاهريّة والباطنيّة.

وبذلك يقول الإمامعليه السلام في آخر جملة من هذه الرسالة: بالرغم من أنني أود أن يكون مالك الأشتر معي، ولكنني «وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ».

في هذه العبارة يصرّح الإمامعليه السلام بأنّه بالرغم من أنّ مالك الأشتر يعدّ ضرورياً ولازماً في جيشه وتحت قيادته، ولكن لأهميّة مصر من حيث سعتها وتاريخها وأهلها الواعين والملتزمين بالقيم والرسالة فإنني آثرتكم على نفسي وتنازلت لكم عن قائد مقدام هو مالك الأشتر، وهذا من جهة يبيّن مكانة الأشتر السامية، ومن جهة أخرى، يبيّن أهميّة مصر وأهلها.

❧❧

## ٣٩

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلى عَمرو بنِ العاص[1]

### نظرة عامّة للرسالة

هذه الرسالة مليئة بالتوبيخ الشديد من قِبل الإمام عليه السلام لعمرو بن العاص حيث يوبخه الإمام عليه السلام لخضوعه واتباعه الأعمى لمعاوية ويصف معاوية أيضاً بالصفات اللائقة به.

والقسم الآخر من هذه الرسالة يتضمن تهديداً من الإمام عليه السلام لعمرو ومعاوية ويقول: لو أني انتصرت عليكما فسأُعاقبكما بما تستحقان وإن لم أنتصر فإن العقاب الإلهي ينتظركما.

---

١. سند الرسالة:

من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة في كتبهم قبل السيّد الرضي، نصر بن مزاحم في كتاب صفين مع تفاوت يسير، وطبعاً هذا الكلام ذكره ابن أبي الحديد، ولكنّ بعض المحققين الذين قرأوا كتاب نصر بن مزاحم قالوا: لا وجود لهذه الرسالة بهذه الصورة في نسخة كتاب نصر بن مزاحم الذي بين أيدينا (راجع شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ٧، ص ٥١٤، والغدير، ج ٢، ص ١٣٠، ويضيف العلّامة الأميني في الغدير أنّ ما بين أيدينا من كتاب نصر بن مزاحم يمثّل مقطعاً خاصاً منه، وأصل الكتاب أكثر بكثير ممّا بين أيدينا وقد حذف الكثير منه عند طبعه)، ومن جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة بعد السيّد الرضي في كتابهم ابن الجوزي الحنفي في كتاب «تذكرة الخواص» والطبرسي في «الاحتجاج». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣٧).

والجدير بالذكر، طبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغة، أنّ لهذه الرسالة مطلع وخاتمة في عبارات قليلة لم يذكرهما السيّد الرضي، فبدايتها: «بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبدِ اللهِ عَليٍّ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ إِلىٰ الأَبتَرِ عَمْرِو بْنِ العـاصِ بِنِ وَائِل، شَانِيء مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الجـاهِلِيّةِ وَالإسلامِ، سَلامٌ عَلىٰ مَنْ اتَّبَعَ الهُـدىٰ»، وخـاتم الرسالة: «وَاللهِ حَسْبُكُمـا وَكَفَىٰ بِانتِقامِهِ إِنتِقَاماً وَبِعقَابِهِ عِقَاباً السَّلامُ لأَهلِهِ»[1].

ﮧﮨ

١ . تمام نهج البلاغة، الرسالة ٤٦، ص ٨٢٦.

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا ٱمْرِيءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ ٱلْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتِّبَاعَ ٱلْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِّي ٱللّٰهُ مِنْكَ وَمِنِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَٱلسَّلاَمُ.

## الشرح والتفسير

### لقد بعت دينك بدنيا غيرك!

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهل رسالته من موقع التوبيخ واللوم لعمرو بن العاص ويقول له: «فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا ٱمْرِيءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ[1]، يَشِينُ[2] ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ ٱلْحَلِيمَ[3] بِخِلْطَتِهِ[4]».

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ جملة: «يَشِينُ ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ»، إشارة إلى ما أمر به معاوية من سبّ الإمام علي عليه السلام وبني هاشم في المجالس، حيث كان هؤلاء الأعاظم وطيلة سنوات متمادية يسبّون في مجلس معاوية ومجالس أخرى،

---

١. «مَهتُوكٍ سِترُهُ» هو الشخص الذي شقّة حجب الحياء لشدّة استهانته ودنائته، وأصلها من «هتك» يعني الشق والتمزيق.

٢. «يَشِين» من مادة «شين» على وزن «عين» بمعنى يقبح.

٣. «ألحَلِيم» تعني في مثل هذه الموارد العاقل، من مادة «حلم» على وزن «ربع» وتعني العقل.

٤. «بِخِلْطَتِهِ» من مادة «خلطة» بمعنى المعاشرة والاختلاط.

ولكنّ معنى العبارة المذكورة لا ينحصر بهذا المعنى، بل إنّ عمرو بن العاص كان، مضافاً إلىٰ ذلك، يهزأ من الشخصيّات المرموقة من أنصار الإمام علي عليه السلام وشيعته ويتحدّث معهم لدى حضورهم في مجلس معاوية بكلمات ركيكة وعبارات نابية قاصداً بذلك إهانتهم والسخرية منهم، وفي المقابل كان الكثير منهم يردونه بجواب قاطع وحاسم من دون الاعتناء بالأخطار المحدقة بهم بسبب جرأتهم في حضور معاوية، وعلى كلّ حال فإنّ معاوية كان رجلاً سيء الكلام وهاتكاً للحرمة.

ومن ذلك أنّ «جارية بن قدامة» كما ينقل العقد الفريد، دخل يوماً إلىٰ مجلس معاوية فقال له معاوية: «ما كان أهونَكَ على أهلِك إذ سَمَّوك جارية! قال: ما كان أهونَك على أهلِك إذ سَمَّوكَ مُعاوية! وهي الأُنثى من الكلاب، قال: لا أُمّ لك! قال: أُمّي وَلَدَتني للسُّيوف التي لَقِيناكَ بها في أيدينا، قال: إنّك لَتُهدِّدني، قال: إنّك لم تَفْتَتِحْنا قَسراً، ولم تَمْلِكنا عَنوةً، ولكنّك أعطَيتنا عَهداً وَمِيثاقاً، وأعطيناك سَمعاً وطاعة، فإن وَفّيت لنا وَفَّينا لك، وإن فَزِعت إلىٰ غير ذلك، فإنّا تَركنَا وراءنا رجالاً شِداداً، وألسنَةً حُدَاداً، قال معاوية: لا كَثّر الله في الناس أمثالك، قال جارية: قُلْ مَعرُوفاً ورَاعنا، فإنّ شَرَّ الدُّعاء المُحتَطب»[1].

وجملة: «وَيُسَفَّهُ ٱلْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ»، إشارة إلىٰ أنّه يقال في مجلسه كلام تافه وركيك إلى درجة أنّ الإنسان العاقل يعدّ سفيهاً في ذلك المجلس، وهذه هي نتيجة المشاركة في مجلس يحضره معاوية ورفاقه.

هذه الأوصاف الأربع التي وصف بها الإمام عليه السلام معاوية، بإمكانها تجسيد شخصيّة معاوية بكل وضوح وتبيّن من يدعي خلافة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن يجلس على منبره، والأعجب من ذلك حال الأشخاص الذين قرأوا سيرته وتاريخه ومع ذلك يعتبرونه من الصحابة الأجلاء لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا يبيحون أية إهانة تلحق به! هذه نتيجة التعصب الأعمى الذي يجر الإنسان إلىٰ كثير من البلايا والآفات.

١. أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٢ (مع التخليص).

ويتابع الإمام عليه السلام خطابه لعمرو بن العاص: «فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ[١] يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ[٢]، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ[٣] فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ!».

وعادة في مثل هذه الموارد يتمّ التشبيه بالثعلب الذي يتحرك تبعاً للأسد المفترس لينتفع من فضلات مائدته وبقايا فريسته، ولكن الإمام عليه السلام استخدم التشبيه بالكلاب بدل الثعلب، لإظهار شدّة دنائة ووقاحة عمرو بن العاص، ونعلم أنّ عمرو بن العاص هو الشخص الذي لم يكن قادراً على تولي الحكم والإمارة بنفسه، ولكن من خلال مكره ودهائه في تقديم الخدمة لمعاوية بحيث أنّه أعطاه أخيراً ولاية مصر، فكان أن خسر الدنيا، لأنّه لم يبق له سمعة فيها، وخسر الآخرة بما لا حاجة لبيانه.

وجاء في كتاب تاريخ اليعقوبي أنّ عمرو بن العاص عندما دنت منه الوفاة نظر إلىٰ أمواله الكثيرة (وقد صعب عليه أن يفارقها جميعاً ويذهب خال اليدين) فقال لابنه: «ودّ أبوك أنّه كان مات في غزاة ذات السلاسل، إنّي قد دخلت في أمور ما أدري ما حجّتي عند الله فيها»، ثمّ نظر إلىٰ ماله فرأى كثرته وقال: «ياليته كان بعراً ياليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمي عليَّ رشدي حتى حضرني أجلي، كأنّي بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي»[٤].

ويواصل الإمام عليه السلام توبيخه لعمرو ويقول: «وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ».

إشارة إلىٰ أنّك كنت تملك الدنيا والآخرة لأنّك تملك الاستعداد الكافي للفوز بهما، ولكنّك للأسف قد سرت في طريق الباطل وتوغلت في الرذيلة في حين أنّ

---

١. «الضِّرغام»، يعني الأسد.

٢. «مَخالِب» من مادة «مخلب» على وزن «منبر» أظافر الحيوان المفترس.

٣. «فَريسَة»، الصيد، من مادة «فرس» على وزن «فقط» بمعنى القتل.

٤. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٢، وللمزيد من الاطلاع انظر شرح الخطبة ٨٤ من هذا الكتاب، ج ٣.

الكثير من الناس يمكنهم وبواسطة ذكائهم وقابلياتهم أن يعيشوا السعادة في الدنيا ويتنعمون بها بطريق حلال دون أن يضرّ ذلك بآخرتهم ولكنّهم قد يخطئون المسار ويتنكبون عن الطريق.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال وهو: لو أنّ عمرو بن العاص كان قد أذعن للحق، فهل سيعطيه الإمام عليه السلام ما أراد، مثلاً يعطيه إمارة مصر، في حين أنّ سيرة الإمام علي عليه السلام تأبى ذلك؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال يمكن القول: إنّ عمرو بن العاص إذا كان واقعاً يطلب الحقّ ويسير في الصراط المستقيم ويعيش تقوى الله تعالى، فإنّه بما لديه من ذكاء ومواهب يكون جديراً بهذا المقام فلا يبعد أنّ الإمام عليه السلام سيكلفه بتولي هذا المنصب، أضف إلىٰ ذلك أنّ المراد بجملة: «ما طلبت» ليس فقط حكومة مصر، بل أن يملك الإنسان المقام اللائق حتى لو كان مقاماً أدنى من حكومة مصر.

وفي ختام هذه الرسالة ينطلق الإمام عليه السلام من موقع التهديد لمعاوية وعمرو ويقول: «فَإِنْ يُمَكِّنِّي ٱللَّهُ مِنْكَ وَمِنِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُما، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَٱلسَّلاَمُ».

وقد أورد بعض شرّاح نهج البلاغة في هذا المورد بحثاً يتلخص في أنّ الإمام عليه السلام إذا كان قد انتصر على معاوية وعمرو بن العاص فهل سيقتلهما، أو أنّه سيعفو عنهما، أو سيعاقبهما بعقوبة أخرى؟ ورغم أنّ الكلام عن مسألة لم تقع إطلاقاً لا يعدّ ذا فائدة، ولكن من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام إذا كان يعفو عنهما فإنّه لا يعفو عن حقّ الناس، وما إرتكباه من جرائم وجنايات في سبيل تحقيق مطامعهما في الرئاسة والدنيا، والشاهد على هذا الكلام ما ورد في ذيل هذه الرسالة وروايات أخرى قال: «فَإِنْ يُمَكِّنِّي ٱللَّهُ مِنْكَ وَمِنِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُما، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا».

# تأمّلان

## ١. عمرو بن العاص في الجاهليّة والإسلام

يقول العالم المصري المعروف «محمّد عبدة» في شرحه لنهج البلاغة في مستهل هذه الرسالة: «من مآسي الزمن ومهازله في الوقت نفسه أنّ عمرو بن العاص هو الذي أرسلته قريش إلىٰ نجاشي الحبشة يطالب بتسليم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين، وردّهم إلىٰ مكّة لترى فيهم قريش رأيها، وأنّ عمرو بن العاص نفسه هو الذي قاتل علي بن أبي طالب في صفين، فبنفس الروح التي قاتل بها ابن أبي طالب الأوّل، قاتل بها ابن أبي طالب الثاني، وهكذا كانت محنة الإسلام في أنّ الذين قاتلوه لدى ظهوره عادوا يقاتلونه بعد انتصاره، فتلبس بلباس الإسلام نفسه.

ثم يضيف هذا العالم المصري: وقد كان لعمرو بن العاص ما أراد من أن يكون له مصر طعمة خالصة، وذلك صورة من صور حكم ابن العاص بمصر.

ثم ينقل عن المقريزي وهو من أشهر مؤرخي القرن التاسع قوله: خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير، والبهار جلد ثور، وبلغه إردبان بالحصري، هذا ما انتهى إليه أمر الإسلام: سبعون بهاراً دنانير منهوبة من أقوات الشعب وأرزاقه يخلفها وال واحد»[١].

## ٢. بعض أعمال معاوية

نقل ابن أبي الحديد في شرحه لهذه العبارة من كلام الإمام عليه السلام: «ظَاهِرٍ غَـيُّهُ»، يقول: «فأمّا قوله عليه السلام في معاوية: «ظاهر غيّه»، لا ريب في ظهور ضلاله وبغيه، وكلّ باغٍ هاوٍ، أمّا «مَهْتُوك سِتْرُهُ» فإنّه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جلساء وسمار، ومعاوية لم يتوقّر ولم يلزم قانون الرئاسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين عليه السلام،

١. شرح نهج البلاغة، لمحمّد عبده، في أوّل الرسالة المذكورة.

واحتاج إلىٰ الناموس والسكينة، وإلّا فقد كان في أيّام عثمان شديد التهتك موسوماً بكلّ قبيح، وكان في أيّام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلّا أنّه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها وعليها جلال الديباج والوشي، وكان حينئذٍ شاباً وفيه نزق الصبىٰ، وأثر الشبيبة وسكر السلطان والإمرة ونقل الناس عنه في كتب السير أنّه كان يشرب الخمر في أيّام عثمان في الشام، وأمّا بعد وفاة أميرالمؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنّه شرب الخمر في ستر، وقيل: أنّه لم يشربه، ولا خلاف في أنّه سمع الغناء وطرب له وأعطى ووصل عليه أيضاً»[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٦١.

٤٠

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ بَعْضِ عُمّالِهِ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

من هو المخاطب في هذه الرسالة؟ لم يتحمل بعض الشرّاح عناء الفحص عنه وبيّنوا ذلك بصورة إجماليّة، ولكن يستفاد من البلاذري في «أنساب الأشراف» وابن الدمشقي في «جواهر المطالب»، أنّ المخاطب بهذه الرسالة هو عبدالله بن العباس الذي كان والياً على البصرة.

توضيح ذلك، طبقاً لما نقله هذان المؤرخان، كتب أبو الأسود رسالة بهذا المضمون إلىٰ أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّ الله تعالى قد جعلك والياً أميناً لنا عارفاً بوظيفتك، وقد اختبرناك ورأيناك أميناً تريد خير الأمّة وتؤدّي حقّها للبيت المال ومعرضاً عن الدنيا، وأنّك لم تنفق من أموال هذه الأمّة شيئاً لنفسك ولم تقبل رشوة، ولكنّ ابن عمّك تصرف في أموال بيت المال بدون علمك، ولم أر من السليم أن أكتمك هذا الأمر ولهذا كتبت لك هذا الكتاب.

---

١. سند الرسالة:

ذكر هذه الرسالة العقد الفريد (ابن عبد ربه المتوفي، ٣٢٨هـ) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٥٥) والعجيب أنّ الشارح المعروف ابن ميثم لم يذكر هذه الرسالة في شرحه لنهج البلاغة.

وفي مقام الإمامعليه السلام الجواب عن هذه الرسالة إلىٰ أبي الأسود الدؤلي يشكره فيها على موقفه هذا، ثمّ كتب الرسالة مورد البحث إلىٰ ابن عباس[١]، ويتحدّث فيها معه بلغة التوبيخ واللوم ولكن ليس على محمل على القطع واليقين، بل ورد كلامهعليه السلام في هذه الرسالة بأنّه إذا كان ما وصلني صحيحاً وقد عصيت أمري ولم يؤدّ حقّ الأمانة... وكذلك أمره بأن يرسل له فوراً حساب بيت المال، وفي ختام الرسالة يحذّره من الحساب الإلهي الذي هو أدق وأعظم من حساب الناس.

ولكن تردد بعض شرّاح نهج البلاغة في كون هذه الرسالة إلىٰ ابن عباس، واعتبر مقامه بشهادة التاريخ مقاماً شامخاً أن يكون قد إرتكب مثل هذه الأعمال.

والجدير بالذكر أنّ البلاذري بعد ذكره لرسالة أبي الأسود ورسالة الإمامعليه السلام لابن عباس قال: إنّ ابن عباس كتب كتاباً للإمام علي وصرح فيها أنّ الخبر المذكور غير صحيح (ومن أخبرك بهذا الخبر إمّا أنّه أخطأ في ذلك أو لديه غرض معين).

أمّا نص رسالة ابن عباس للإمامعليه السلام: «أمّا بَعد فَإنَّ الَّذِي بَلَغَكَ عَنِي بـاطِلٌ وَأَنا لِما تَحتَ يَدي أَحوطُ وَأضبَطُ فَلا تُصَدِّقْ عَلى الإظناءِ رَحِمَكَ اللهُ وَالسَّلام».

وسيأتي المزيد من التوضيح في هذا الموضوع في الرسالة الآتية.

---

١. أنساب الأشراف البلاذري، ص ١٦٩؛ جواهرالمطالب ابن الدمشقي، ج ٢، ص ٧٩.

**أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.**

## الشرح والتفسير

### سخط الله وعصيان الإمام

يقول الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة القصيرة والمثيرة: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ[1] أَمَانَتَكَ».

في هذه العبارة الموجزة نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث مع مخاطبه ابن عباس (أو شخص آخر) بعبارات من موقع الاحتياط، فلم يقل إنّك قد إرتكبت إثماً في هذه الأعمال بل يحذّره بأنّه إذا ما وصلني من الخبر صحيحاً فأنت مسؤول أمام الله تعالى وأمام إمامك، وقد افتضحت أمام الناس والأُمّة.

ما أبلغ وأدقّة هذا التعبير بأنّ الإنسان وبسبب إرتكابه لبعض الأمور تسقط شخصيته ومكانته أمام الله والإمام والناس أجمعين.

وجملة «وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ» ربّما تشير إلى الأمانة في المقام والمنصب أي مقام

---

١. «أخزيت» من مادة «خِزي» على وزن «حزب» في الأصل تعني الإنكسار الروحي والخجل، الذي تصيب الإنسان إمّا من ناحية ذاتية وبشكل حياء مفرط، أو من ناحية أخرى يفرض على الإنسان من خارجه وهذه المفردة تارة تأتي بمعنى السقوط في البلاء، وأخرى الفضحية والخجل الناشىء منه.

الولاية، وفيها إشارة إلىٰ أنّ عملك يتضمّن فضيحتك في أمر الولاية، أو إشارة إلىٰ الأمانة والاعتبار والحيثية في نظر الناس، أي أنّك فضحت نفسك أمام الخلق فلا اعتبار لك بينهم.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام توضيحاً أكثر في هذا المجال وهو في الحقيقة تفصيل بعد الإجمال، وتبيين بعد الابهام، يقول: «**بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ**».

وجملة «**جَرَّدْتَ الْأَرْضَ**» أي جعلته عارية وجرداء ربّما تكون إشارة إلىٰ أنّك أخذت المحصولات الزراعية للأراضي الخراجيّة لنفسك، وكذلك يمكن أن تكون إشارة إلىٰ تخريبه للأراضي الزراعيّة بسبب سوء تدبيره، واحتمل بعضهم أنّ الأرض هنا بمعنى أرض بيت المال، يعني أنّك أخذت الأموال الموجودة في بيت المال وجعلته خالياً، ولكن الاحتمال الأوّل والثاني أقوى حسب الظاهر.

والجدير بالإلتفات إلىٰ أنّ كلمة «جرّدت» من مادة «جريد» ويعني تعرية الشيء، ومن هنا قيل للجراد «جراد» لأنّه يعري الأرض ويأكل الأشجار ويجعل الأرض والأشجار عارية.

وفي ختام هذه الرسالة يقول عليه السلام: «**فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ وَالسَّلَامُ**».

وبديهي أنّ حساب الناس أحياناً يخالطه الاشتباه والغفلة، وأحياناً يستطيع المرء إخفاء بعض النواقص عنهم، في حين أنّ الحساب الإلهي لا يمسّه الخطأ والاشتباه، ولا يستطيع أي شخص إخفاء أعماله في حكمة العدل الإلهيّة، كما يقول القرآن الكريم: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ**﴾[1].

والمراد من الحساب الذي أشار إليه الإمام عليه السلام حساب ما يتجمع في بيت المال

---

١. سورة لقمان، الآية ١٦.

أعم من محصولات الأراضي الخراجيّة والزكاة والغنائم وأمـثال ذلك، إذ أنّ الوالي مكلّف أن يكتب للإمامعليه السلام مجموع المكتسبات وكذلك النفقات، ليتبيّن هل هـناك حيف واختلاس في بيت المال أم لا؟

 ∞

# ٤١

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ بَعضِ عُمّالِهِ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

هذه الرسالة كما سيأتي بيانه بشكل تفصيلي في نهاية هذا البحث، كتبها الإمام عليه السلام لعبد بن عباس كما هو معروف، وفيها يوبّخه الإمام على عدم رعاية الموازين الصحيحة في بيت المال، وكذلك يهيب به كالأب المتحرق الذي يرى ابنه يسير في طريق الخطأ والزيغ، ويدعوه إلىٰ إصلاح المسير والعودة إلىٰ الطريق القويم، ومن هنا يوجّه الإمام عليه السلام لابن عباس كلمات لاذعة ويخاطبه بلغة التأنيب والتوبيخ.

وفي القسم الأوّل من هذه الرسالة يذكره الإمام عليه السلام بإحسانه له أنّه كان يعتبره من

---

١. سند الرسالة:

أورد ابن قتيبة (المتوفي سنة ٢٧٦) مقاطع من هذه الرسالة في كتاب عيون الأخبار، والبلاذري (المتوفي ٢٧٩) في كتاب أنساب الأشراف، وابن عبد ربه (المتوفي ٣٢٨) في العقد الفريد، وهؤلاء جميعاً عاشوا قبل السيد الرضي، ومن الأشخاص الذين جاءوا بعد السيّد الرضي وذكروا هذه الرسالة في كتبهم، أحمد بن محمّد بن الميداني في مجمع الأمثال، وسبط بن الجوزي في تذكرة الخواص.

يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: اتفق الرواة على أنّ هذه الرسالة من الإمام علي عليه السلام وقد وردت في أكثر الكتب التاريخيّة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٤٤).

خواصه وقد أوكل إليه أحد المناصب المهمّة في حكومته، أي منصب والي البصرة.

وفي القسم الثاني يشير الإمام عليه السلام إلىٰ إساءة هذا الوالي ويوبّخه على عدم رعاية موازين العدل في أمر بيت المال ويأمره بتقوى الله تعالى وإعادة أموال المسلمين إلى بيت المال.

وفي القسم الثالث، يقسم الإمام عليه السلام لو أنّ ولديه الحسن والحسين عليهما السلام مع شدّة قربهما إليه، قد إرتكب مثل هذا العمل فإنّ سيقف منهما موقفاً حازماً ولا يتسامح معهما في هذا الأمر.

وفي القسم والرابع والأخير من هذه الرسالة يحذّه الإمام عليه السلام ويبيّن له فناء الحياة الدنيا وعدم ثباتها وأنّه سيرحل منها عمّا قريب، وسيحضر في محضر محكمة العدل الإلهي وعليه أن يجيب على ما إرتكبه من أعمال سيئة وأنّه سيندم حين ذاك على الكثير من أعماله حيث لا ينفع الندم.

أمّا بالنسبة للمخاطب في هذه الرسالة وهل أنّه عبد الله بن عباس حقيقة، وهو من أصحاب الإمام علي عليه السلام المعروفين، أم أنّه أخوه عبيدالله أم شخص آخر؟ هناك خلاف كثير بين المؤرخين وشرّاح نهج البلاغة وعلماء الرجال، وسنشير إلىٰ هـذه المسألة في ختام هذه الرسالة وسنبيّن ما هو الأقرب في نظرنا.

## القسم الأوّل

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحَانَ اللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوَمَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ!

## الشرح والتفسير

### ألا تؤمن بالمعاد؟!

في بداية هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى تعاطفه وحبّه لهذا الوالي ويذكّره بخدماته ومؤازرته له في مواقع الشدّة ليثير فيه الشعور بالندم ممّا اقترفه من خطيئة يقول عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي[1]

1. «شعار» يطلق على الملابس الداخليّة التي تلتصق بشعر بدن الإنسان، ومن هذه الجهة تطلق هذه الكلمة ☜

وَبِطَانَتِي[1]، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي[2] وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه العبارات المقتضبة إلىٰ ثلاث نقاط فيما يتصل بهذا الوالي:

١. إنّ هذا الوالي كان سهيماً ومؤازراً للإمام عليه السلام في إدارة وتدبير أمر الحكومة والأُمّة وكان يملك أحد أهم المناصب الحساسة في الدولة.

٢. أنّه كان محرم أسرار الإمام عليه السلام ومن بطانته والموثوقين في الأُمور.

٣. كان هذا الوالي من أكثر الولاة قرباً واعتماداً لدى الإمام عليه السلام من بين جميع أقربائه وأرحامه، ومن هذه الجهة لم يكن يتوقع في مقابل كلّ هذا الاعتماد والمحبّة أن يقوم بعمل سلبي تجاه حكومة الإمام.

ثمّ يستعرض الإمام عليه السلام مخالفات واليه وعامله ويبتدىء الكلام بالقول: «فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ[3]، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ[4] وَشَغَرَتْ[5]، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ[6] فَفَارَقْتَهُ مَعَ

☜على صاحب السرّ ومحرم الأسرار، في مقابل «دثار» وتعني اللباس الخارجي، ومفردة «شعار» لها معنى آخر وهو العلامة، وكذلك تطلق على الكلمات والعبارات التي تشير إلىٰ أهداف القوم والجماعة، وقد وردت في الرسالة أعلاه بالمعنى الأوّل.

١. «بطانة» وتعني أيضاً الملابس الداخلية، في مقابل «ظهارة» وتعني اللباس الخارجية، وكذلك تطلق كلمة بطانة على أصحاب السرّ من الأصدقاء الموثوقين، ومراد الإمام عليه السلام من هذه المفردة المعنى الأخير.

٢. «موازَرَة» تعني المعاونة من مادة «وِزر» بمعنى الثقل، لأنّ الشخص الذي يساعد الآخر بأنّه يحمل ثقله على ظهره، ومن هذه الجهة أُطلقت كلمة وزير على معاون الملك أو الزعيم.

٣. «كَلِبَ» فعل ماضى من مادة «كلب» على وزن «قلب» وفي الأصل تعني الحصان بالمهميز. (المهميز شيء له نصل مدبب يوضع إلىٰ قطب الحصان فيستفاد منه الراكب لحث الفرس على السرعة) وكَلِب تعني هنا الشدّة والصعوبة.

٤. «فَنَكَتْ» فعل ماضى من مادة «فَنْك» على وزن «قلب» وتعني العدوان والتمرد واللجاجة.

٥. «شَغَرَتْ» فعل ماضي من مادة «شَغر» على وزن «صبر» وتعني عدم الملجأ ما يدافع به.

٦. «المَجنّ» تعني الدرع من مادة «جَن» على وزن «فن» وتعني التغطية، لأنّ الدرع يغطي الإنسان من ضربات العدو.

الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ[1]، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ».

وجملة «قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ» تعني في معناها الحرفي: قلبت الدرع لابن عمّك على باطنه، وهي كناية عن إعراضه عن الإمامعليه السلام، لأنّ المجاهدين في ميدان الحرب عندما يواجهون الطرف الآخر وجهاً لوجه يلبسون الدروع أمامهم ويكون ظهر الدرع في الواجهة، ولكن في حالة الهرب يكون باطن الدرع في مواجهتهم، ومن هذه الجهة استخدمت هذه الحالة كناية عن الشخص الذي يعرض عن شخص آخر أو عن شيء.

وفي الجمل الخمس الأُولى يرسم الإمامعليه السلام حالة الزمان: صعوبة الظروف في المحيط الاجتماعي، جرأة العدو في الحرب، عدم اهتمام الناس بأمر الأمانة، عدوان الأُمّة على الأحكام الإلهيّة.

ثمّ يستعرض الإمامعليه السلام مخالفات ابن عمّه معه من أبعاد مختلفة وذلك في عدّة جمل: الإعراض عن الإمام، التماهي مع المناوئين، خذلانه للإمام وعدم نصرة الحقّ، الانسياق مع الخاذلين وخيانته لبيت المال مع الخائنين، وعلى ضوء ذلك فإنّ جميع هذه الصفات التي أطلقها الإمامعليه السلام عليه بهذه الجمل البليغة والزاخرة بالمعنى جسد الإمام حالات هذا الوالي الذي خذل الإمام في ساعات المحنة، ونرى الإمامعليه السلام بيّن الجملتين الآخرتين بفاء التفريع: مفارق الإمام مع المفارقين والخيانة في الأمانة.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام يتحرك لرصد أعمال هذا الوالي ويتحدّث معه بلغة الوجدان لإثارة أحاسيسه الدينيّة بهذه العبارات: «وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ[2] عَنْ فَيْئِهِمْ».

---

١. «آسَيتَ» من مادة «مواساة» وتعني المعاونة والمساعدة.

٢. «غِرّة» وتعني الخدعة والإغفال.

بداية يشكك الإمام عليه السلام، في هذه الجمل الثلاثة، في إخلاص نيّة هذا الوالي في أمر الجهاد، ثمّ يشكّك الإمام في كون أعماله تستند إلىٰ الدليل والبيّنة الشرعيّة، وأخيراً يشبّه الإمام عليه السلام عمله بمن يريد إغفال الناس وخداع الأُمّة لسلب حقوقهم من بيت المال.

ولعل هذا الوالي (سواء كان ابن عباس أو غيره) عند قراءته لهذه العبارات والجمل يستيقظ ضميره ويتحرك على مستوى إعادة أموال بيت المال.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه لهذا الوالي ويقول: «فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ[١]، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ[٢]، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ[٣] الذِّئْبِ الْأَزَلِّ[٤] دَامِيَةَ[٥] الْمِعْزَى[٦] الْكَسِيرَةَ[٧]، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ[٨] الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ[٩] مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ حَدَرْتَ[١٠] إِلَىٰ أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ».

هذه العبارات البليغة في خطاب الإمام عليه السلام ناطقة بالمعنى وتشبيه الإمام لحالة هذا الشخص صريح وشديد ولا يمكن تصور بيان المقصود بأبلغ من هذه العبارات الدقيقة والكلمات المتماسكة.

---

١. «كَرّة» تعني الهجوم.
٢. «الوَثْبَة» من مادة «وَثب» على وزن «وصف» تعني الانتصار، ثمّ أُستعملت بمعنى القفز للامساك بشيء.
٣. «اختِطَاف» تعني أخذ الشيء بسرعة.
٤. «الأزَلّ» من مادة «زَلَل» تعني الإنسان أو حيوان الذي يملك أفخاذاً ضعيفة، وبما أنّ مثل هذا الشخص باستطاعته الركض بسرعة فأُطلقت هذه الكلمة بمعنى السريع وفي العَدْو.
٥. «دَامِيَة» تعني المجروحة والتي يخرج منها الدم، من مادة «دَم».
٦. «المِعزَى» فصيلة من الغنم واليشاه.
٧. «الكَسِيرَة» التي تكسر عظمها، وعندما تستعمل في الأغنام وأمثالها تأتي بمعنى المكسورة اليد أو الرجل.
٨. «رحِيب» بمعنى الواسع من مادة «رُحب» على وزن «قفل» وتعني السعة، ورحيب الصدر يقال للشخص البارد المزاج والذي يملك سعة الصدر وعدم المبالاة في مواجهة المثيرات.
٩. «مُتَأَثّم» الشخص الذي يشعر بالذنب.
١٠. «حَدَرْتَ» من مادة «حَدْر» على وزن «قدر» بمعنى الهبوط والنزول إلى الأسف، وبما أنّ النزول عادة يتمّ بسرعة، فاطلقت هذه الكلمة على السرعة أيضاً.

عبارة تعبير به «أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ» و «عَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ»» و «اخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ» وتشبيهه بالذئب الذي يجرح ويدمي المعزى الكسيرة، وكذلك قوله: «تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ» وكأنّه يحسب أنّ بيت المال كميراث ورثه من والديه. كلّها جمل معبرةعن شناعة وقباحة هذا العمل الذي يقام به هذا الوالي.

جملة «لَا أَبَا لِغَيْرِكَ...» تعدّ نوعاً من الاحترام لذلك الوالي، لأنّه عندما تحقير شخص: «لا أبا لك» ومن هذا المنطلق فالإمام عليه السلام في الوقت الذي يخاطب فيه هذا الوالي بتلك العبارات اللاذعة والتوبيخات القارعة، فإنّه لايزال يحترمه بالمقدار اللازم.

وبعبارة تعبير به «تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ» تعبير جميل يقال في هذه الموارد بالنسبة للشخص الذي يقع على أموال ويتصرف بها دون وازع فيقال له: كأنّ هذا المال إرثاً ورثته من أبيك وأمّك.

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يظهر الإمام عليه السلام تعجبه الشديد من هذا السلوك المنحرف لعامله ويقول: «فَسُبْحَانَ اللهِ! أَ مَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوَمَا تَخَافُ نِقَاشَ[1] الْحِسَابِ!».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الشخص الذي يؤمن بالقيامة والمعاد ويعتقد حقّاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

لا ينبغي أن يتصرف في أموال بيت المال مثل هذا التصرف الذميم، فمثل هذا العمل يتقاطع مع الإيمان والاعتقاد بالمعاد الحساب، أو أن يكون إيمانه ضعيفاً إلى درجة وكأنّه قد نسي يوم القيامة وما سيوجهه من حساب على أعماله.

---

١. «نقاش» بمعنى الدقّة والتصعّب في الحساب.

٢. سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

## القسم الثاني

أَيُّهَا الْمَعْدُودُ ـ كَانَ ـ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ! فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ! وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا، وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

## الشرح والتفسير

### لا أتسامح في بيت المال حتى مع أولادي

في هذا المقطع من الرسالة يواصل الإمام عليه السلام توبيخه وإعتراضه الشديد لعامله ويقول: «أَيُّهَا الْمَعْدُودُ ـ كَانَ ـ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ[1] شَرَاباً وَطَعَاماً.

---

١. «تسيغ» من مادة «سوْغ» على وزن «قوم» بمعنى الهنيىء وتطلق عادة على الأطعمة والأشربة، ولكنّها تستعمل كناية في أمور أخرى أيضاً.

**وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ[1] اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ!».**

والتعبير بـ «كان» ناظر إلىٰ الماضي إلىٰ أنّك كنت عندنا في السابق من العقلاء وأهل الحزم والحنكة، ولكنّك بهذا العمل الذي صدر منك، فقدت ذلك الموقع ولم تعدّ كما كنت في السابق.

جملة «كَيْفَ تُسِيغُ..» إشارة إلىٰ أنّ جميع حياتك ومعيشتك ستختلط بـالحرام وسيكون مأكلك ومشربك من مال المقتصد من بيت المال، فلا يجوز لك تناول شيء من هذا المأكل والمشرب، وهكذا في الجواري التي تشتريها بهذا المال الحرام أو الزوجات التي تدفع لهنّ المهر من هذا المال الحرام كلّ ذلك يتسبب في أن تكون حياتك العائليّة ومعيشتك ملوثة بالحرام.

جملة «مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ...» إشارة إلىٰ أنّه إذا كانت هذه الأموال متعلقة بأشخاص أثرياء فإنّ قبح هذا العمل وغصب هذه الأموال كان أقلّ شناعة، وأمّا إذا كان الغصب من متعلّقاً بأموال اليتامى والمحرومين والمجاهدين في سبيل الله فسيكون أقبح وأشنع بمراتب عديدة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد هذا التوبيخ المطول يستنتج من ذلك: «**فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ**».

ثمّ يتحرك الإمام عليه السلام في خطابه لهذا الوالي بلغة التهديد الشديد، ويقول: «**فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ[2] إِلَىٰ اللهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ!**».

وهذه إشارة إلىٰ أنّني لا أسل سيفي إلّا في سبيل الله وفي مقابل أعدائه من قوى

---

١. «أفاء» من مادة «فيء» بمعنى العودة، وكأنّ الأموال التي بيد الكفّار ذات طابع غصبي، فعندما تغنمها المسلمون منهم فإنّها تعود إلىٰ أصحابها الأصليين.

٢. «أعذرن» من مادة «إعذار» بمعنى إظهار الشخص لعذره.

الظلم والكفر والانحراف، وأيّما شخص ضربته بسيفي هـذا فـإنّ مـصيره الحـتمي سيكون إلىٰ النار وبئس المصير.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، ولماذا يستحق الشخص المختلس لشيء من بـيت المال للإعدام، في حين أنّ الوارد في الحدود الإسلاميّة أنّ مثل هـذا الســارق لا يستحق إلّا لإجراء حدّ السرقة عليه، مضافاً إلىٰ أنّ إجراء حدّ السرقة عـلى هـذا المورد بعيد أيضاً، لأنّ من شروط حدّ السرقة أن تقع الـسرقة من حرز، يـعني أن يكون السارق قد سرق المال من حرز أو خزانة مقفولة، ويقوم السارق بكسر هذا القفل ويسرق ما فيه وحينئذٍ يترتب عليه حدّ السرقة، ونعلم أنّ الوالي مسلط على بيت المال وليس المال فيه مقفل وفي حرز.

وفي مقام الجواب عنه هذا السؤال يمكن القول، أوّلاً: أنّ مثل هذه السرقة مقترنة مع إنكار الحرمة، وبعبارة أخرى أنّ هذا المختلس كان يرى حلية مثل العمل وهذا بدوره نوع من إنكار الضروري من الدين.

وثانياً: إنّ الإمام عليه السلام قال: «وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَاكَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ[1]، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ[2] الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا».

وبديهي أنّ مراد الإمام عليه السلام لا يعني أبداً أن يقوم الإمام الحسـن والحسـين عليهما السلام بغصب أموال بيت المال، بل المراد بيان المبالغة في هذا المطلب وأنّه لا أحد مصون عن العقاب في حال تخلفه عن الحقّ والعدالة.

وببيان آخر أنّه يستفاد من القضيّة الشرطيّة التي تبتدىء بكلمة «لو» وأمثالها لا يعني احتمال وقوع الشرط، لأنّ مثل هذه التعبيرات ربّما تقال لتأكيد المطلب حتى في الأمور المستحيلة، كما ورد في الآية الشريفة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

١. «هَوَادَة» بمعنى الليونة والصلح والعلاقة بالشخص، وهنا جاءت بمعنى الأوّل.
٢. «أُزِيحَ» من مادة «إزاحة» تعني الإزالة.

الْعَابِدِينَ﴾[١] وهذا التعبير يدلّ على تأكيد النفي لمقولة الجهلاء من أهل الكتاب الذين ينسبون الولد لله تعالى.

ويبيّن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه من موقع التأكيد على أنّ المسائل العاطفيّة لا ينبغي أبداً أن تتدخل في الأحكام الإلهيّة ولا ينبغي أن يكون التعامل وفقاً للروابط على حساب الضوابط، كما ورد في القرآن الكريم في مسألة إجراء الحد الشرعي: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾[٢]، وفي مورد إجراء الحقوق يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[٣].

ثمّ يدخل الإمام عليه السلام من طريق آخر لإيقاظ هذا الوالي العاصي من غفلته ويتحدّث معه بلهجة الواثق وبلغة مؤثرة ويقول: «وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الأموال الكثيرة حتى لو كانت حالاً وقد اكتسبها الإنسان بطرق مشروعة لا توصل الإنسان إلىٰ مرفأ السعادة والراحة، فكيف بها إذا كان قد استولى عليها بطريق حرام، لأنّه لا سبيل له في إنفاقها سوى أن يتركها ميراثاً لمن بعده، فيكون وزره ووباله عليه ولذته ونعيمه للآخرين، فهل من العقل أن يقدم الإنسان على مثل هذا العمل؟! فكيف الحال لو كان قد جمع هذا المال من طرق حرام وغير مشروعة فيما يترتب على ذلك من مصائب ووبال على صاحبه.

وفي هذا السياق ورد في كتاب الكافي عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ وَمَنْ أَحَبَّ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ الْعَفَافَ وَالْكَفَافَ وَارْزُقْ مَنْ أَبْغَضَ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ الْمَالَ وَالْوَلَدَ»[٤].

---

١. سورة الزخرف، الآية ٨١.

٢. سورة النور، الآية ٢.

٣. سورة النساء، الآية ١٣٥.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٤٠، ح ٣. وردت روايات أخرى في هذا الباب وفي هذا الموضوع.

وفي ختام هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلىٰ نهاية الحياة والحوادث التي سيواجهها الإنسان بعد مماته لغرض إيقاظ وجدان هذا الوالي وتحريك عناصر الخير في نفسه ويبيّن له الخطر الكامن في هذا الطريق الذي سلكه، يقول: «فَضَحِّ[1] رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى[2]، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى[3]، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ (وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ)[4]».

وهنا نرى أنّ الإمام عليه السلام أميرالمؤمنين هو ذلك المعلم اليقظ والقائد الفذ يسعى لتنبيه مخاطبه بهذه العبارات الشديدة، ويلفت نظره إلىٰ ما سيواجهه في ساعات الموت ومن ثمّة الدفن تحت التراب والحضور في ساحة المحشر للحساب في محكمة العدل الإلهي وما سيعيشه من حالات الندم الشديد وتمنيه العودة للدنيا ولكن بعد فوات الأوان كما تشير إلىٰ ذلك الآية الشريفة: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[5].

## تأمّل

### من هو ابن عباس؟

لا شك أنّ ابن عباس معروفاً في الأُمّة الإسلاميّة ولدى المذاهب المختلفة من

---

١. «ضَحِّ» صيغة أمر من مادة «تضحية» وفي الأصل تعني رعي الأغنام عند طلوع الشمس، وجملة «فضَحِّ رُويداً» تطلق على مورد يكون المقصود منه أنّ الأغنام تتحرك ببطء في المرتع إلى أن تشبع تماماً، ثمّ اُستخدمت هذه الجملة في الموارد التي يقصد منها الحفظ والهدوء.

٢. «مَدَى» تعني نهاية العمل والوصول إلى سنين المتقدمة.

٣. «الثَّرَى» تعني التراب.

٤. مفردة «لاتَ» تعني للنفي، وفي الأصل «لا» النافية، وأُضيفت لها تاء التأنيث للتأكيد، «مناص» من مادة «نوص» وتعني الملجأ والملاذ، يقال: إنّ العرب عندما يواجهون حادثة صعبة وموحشة وحاصّة في الحروب يكررون هذه الكلمة ويقولون: مناص، مناص، يعني أين الملجأ، أين الملجأ؟ وبما أنّ هذه المفهوم يقترن مع الهرب والفرار، فإنّه يستخدم أحياناً محلّ الفرار والمهرب، ومن هذه الجهة فإنّ جملة «ولاتَ حِينَ مَناصٍ» تعني: لا يوجد طريق للفرار والنجاة.

٥. سورة ص، الآية ٣.

الشيعة وأهل السنّة، معروفاً في العلم والمعرفة والفضل حتى أنّه لقّب ألقاب مثل «حبر الأُمّة» و«ترجمان القرآن» وقد أورد المؤرخون في سيرته أنّه كان قد حضر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في ريعان شبابه وقد سمع من النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث الهامة والمذكورة في الكتب المعتبرة، وكان ابن عباس مشهوراً بتفسير القرآن ومن أصحاب الرأي والنظر وكان التلميذ المخلص للإمام علي عليه السلام والمحب له.

ومن هذه الجهة عندما يصل العلماء وشرّاح نهج البلاغة إلىٰ هذه الرسالة يترددون في كون المخاطب لها هو ابن عباس، فهذه الرسالة تتضمّن أشدّ أنواع التوبيخ والذم من الإمام علي عليه السلام لمخاطبه وأنّه يتهمه بالخيانة في بيت المال والاستيلاء على مبالغ كبيرة من هذا المال ونقله من البصرة إلىٰ الحجاز.

وبخاصّة إذا أخذنا بنظر الحسبان الجواب الحاد والجريء الذي كتبه ابن عباس في جوابه عن هذه الرسالة وقد ورد في كتب التاريخ، فإنّ المسألة ستتعقد أكثر.

ومن هذه الجهة انقسم المؤرخون الذين أوردوا هذه الرسالة في كتبهم إلىٰ ثلاث طوائف:

الطائفة الأُولى تقول: إنّ ابن عباس وإن كان يتمتع بمقام جليل ويعتبر من أصحاب النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله المرموقين وقد أدرك النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شبابه وصباه، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّه معصوم من الخطأ وأنّه من البعيد صدور مثل هذا الزيغ في حقّه، وطبقاً للمثل المشهور: «الجواد قد يكبو» فإنّ غير المعصوم ربّما يزل مثل هذه الزلّة مهما كان يملك من مقام ووجاهة.

وطائفة أخرى يعتقدون أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو أخو ابن عباس، أي عبيدالله بن عباس أو شخص آخر، ويستشهدون لذلك بعدّة شواهد وقرائن تاريخيّة تؤكّد أنّ ابن عباس لم يقم بهذا العمل أبداً.

وهناك طائفة ثالثة لم تستطع أن تتخذ لها موقفاً في هذه المسألة مثل ابن أبي الحديد، الذي مرّ عليها مرور الكرام وتركها في إبهامها ولم يكشف اللثام عن

غموضها، حيث قال: «قد أشكل عليَّ أمر هذا الكتاب، فإنّ أنا كذّبت النقل وقلتُ: هذا الكلام موضوع على أميرالمؤمنين عليه السلام، خالفت الرواة، فإنّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السيرة: إنّ صرفته إلىٰ عبدالله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته إطاعة أميرالمؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته، وإن صرفته إلىٰ غيره لم أعلم إلىٰ مَن أصرفه من أهل أميرالمؤمنين عليه السلام، والكلام يشعر بأنّ الرجل المخاطب من أهله وبني عمّه. فأنا في هذا الموضع من المتوقفين»[1].

ولكن الطائفة الأُولى لم تقبل بهذا الكلام وذهبوا إلىٰ أنّ المخاطب لهذه الرسالة للإمام عليه السلام هو ابن عباس مع حفظ جلالة قدره ومقامه.

ومن جملة هؤلاء «ابن ميثم» يقول في شرحه لنهج البلاغة: «وإعلم أنّ هذين القولين لا مستند لهما، أمّا الأوّل: فهو مجرّد استبعاد أن يفعل ابن عباس ما نسب إليه، ومعلوم أنّ ابن عباس لم يكن معصوماً وعلي عليه السلام لم يكن يراقب في الحقّ أحداً ولو كان أعزّ أولاده كما تمثّل بالحسن والحسين عليهما السلام في ذلك، فكيف بابن عمّه، بل يجب أن تكون الغلظة في الأقرباء في هذا الأمر أشدّ.

ثمّ إنّ غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقته إيّاه، لأنّه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذة أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً، فإذا استوفى حقّ الله منه أو تاب إليه ممّا فعل عاد في حقّه إلىٰ ما كان عليه كما قال: «القوي عندي ذليل حتى آخذ الحقّ منه والذليل عندي عزيز حتى آخذ الحقّ له»، فلا يلزم إذن غلظته على ابن عباس ومقابلته إيّاه بما يكره مفارقة له وشقاقه على ما بينهما من المحبّة الوكيدة والقرابة.

وأمّا الثاني: فإنّ عبيدالله كان عاملاً له عليه السلام في اليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك»[2].

أمّا من ذهب إلىٰ القول الثاني فإنّه يرى أنّ عظمة مقام ابن عباس لا ينسجم أبداً

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٧٢.

٢. شرح نهج البلاغة، لابن ميثم، ج ٥، ص ٩٠.

مع مضمون هذه الرسالة لأنّه «حبر الأمّة» وبحر عميق من العلم والفضل وكان من أتباع وأنصار الإمام علي عليه السلام ومتفانياً في خدمته والدفاع عنه في أيّام المحنة التي لم يكن للإمام عليه السلام من أنصار إلّا بعدد أصابع اليد، وحتى في معركة صفين عندما طرحت مسألة التحكيم نرى أنّ الإمام عليه السلام اختاره لأمر التحكيم في مقابل رجل داهية وشيطان وهو عمرو بن العاص (رغم أنّ جماعة من الجهلة والسفهاء اعترضوا على هذا الاقتراح ورشحوا إلىٰ ذلك المنصب رجل سفيه مثلهم وهو أبوموسى الأشعري وأصروا على الإمام عليه السلام في قبوله) أجل فإنّ دلالة قدر ابن عباس ومقام الشامخ لا تتناسب ولا تنسجم مع إرتكابه لمثل هذه الأعمال.

ولكن هؤلاء لم يبيّنوا على وجه التحديد من هو المخاطب لهذه الرسالة، أضف إلى ذلك فهناك قرائن وشواهد أخرى تنفي أن يكون المخاطب لهذه الرسالة هو ابن عباس، ومن ذلك أنّهم ذكروا:

١. جاء في الأمالي للسيد المرتضى أنّ عمرو بن عبيد جاء إلىٰ سليمان العباسي فسأله سليمان: هل سمعت بشعر الإمام علي عليه السلام قال في ابن عباس: إنّه يفتنا في كلّ أمر ولكنّه يأخذ أموالنا في ليلة واحدة؟

فأجابه عمرو: لا يمكن أن يقول الإمام علي عليه السلام مثل هذا الكلام عن ابن عباس وأنّ ابن عباس لم يترك الإمام علي عليه السلام أبداً وكان حاضراً معه وإلى جواره إلىٰ ساعة استشهاده، بل كان حاضراً أيضاً في واقعة صلح الإمام الحسن عليه السلام.

٢. وأضاف عمرو بن عبيد: كيف يعقل أن تجتمع كلّ تلك الأموال الكثيرة في بيت مال البصرة مع أنّ الإمام علي عليه السلام كان بحاجة ماسة إلىٰ المال وكان يوزع ما يتجمع في بيت المال على المحتاجين والفقراء في كلّ أُسبوع حتى يفرغ كلّه ويأمر بكنس بيت المال كلّ يوم سبت، فمع هذه الحالة كيف يمكن لابن عباس أن يجمع كلّ هذه الأموال في بيت مال البصرة؟ فمع الأخذ بنظر الاعتبار حاجة الناس إلىٰ المال فإنّ ابن عباس كان قد نقل هذا المال إلىٰ الكوفة.

٣. يروي الطبري في تاريخه في حوادث سنة أربعين عن أبي عبيدة أنّ ابن عباس كان والياً على البصرة إلىٰ زمان استشهاد الإمام علي عليه السلام ثمّ جاء إلىٰ الكوفة واشترك في مراسم صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ثمّ عاد إلىٰ الكوفة وجمع متعلقاته وأخذ معه قليلاً مبلغاً زهيداً من بيت المال وقال: أخذه هذا المبلغ من بيت المال بوصفه حقّاً لي وكراتب أخذه من بيت المال (ثمّ توجه إلىٰ الحجاز).

٤. يروي المرحوم المحقّق التستري في شرحه لنهج البلاغة أنّ ابن عباس كان في البصرة عند استشهاد الإمام علي عليه السلام جاء إلىٰ الكوفة من فوره عندما سمع الخبر والتحق بالإمام الحسن عليه السلام، ولما قام الإمام الحسن بالقاء خطبة في صبيحة اليوم الذي استشهد فيه أبوه، قام ابن عباس بأخذ البيعة من أهل الكوفة للإمام الحسن عليه السلام واستجاب الناس له[1].

٥. على فرض أنّ هذه القصّة تتعلق بابن عباس، ولكن ورد في بعض الروايات أوّلاً، أنّ الأموال المختلسة كانت قليلة، وثانياً: أنّ الإمام عليه السلام عندما أرسل له هذه الرسالة قام ابن عباس بإعادة المال فوراً وإعتذر من الإمام على ما صدر منه وقبِل الإمام إعتذاره، كما يظهر يروى المرحوم التستري عن اليعقوبي أنّ ابن عباس تصرف بمقدار من بيت المال، فكتب أميرالمؤمنين عليه السلام برده فردّه، ثمّ ينقل مثل هذا المعنى عن سبط ابن الحوزي الذي يقوله في نهايته: ثمّ ندم واعتذر إلىٰ علي عليه السلام وقَبل الإمام عليه السلام عذره[2].

☙❧

النتيجة: مع وجود اختلاف في الروايات في شأن هذه القصّة وأحياناً تكون الروايات متناقضة، فكيف يمكن التصديق بأنّ رجلاً مهماً وشخصيّة مرموقة كابن عباس وهو حبر الأُمّة والعالم والفقيه والمعروف يرتكب مثل هذا العمل بهذه

---

١. أنظر: شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٨، ص ٨٩.

٢. المصدر السابق، ص ٩٢، نقلاً عن تذكرة الخواص، ص ١٥٠.

الضخامة التي ينسبها إليه المخالفون.

ألا يحتمل أنّ عمّال بني اُميّة وأزلام معاوية الذين وضعوا الأحاديث الكثيرة في مقابل حفنة من المال لتأييد حكومة بني اُميّة أو لذم مخالفيهم، حتى أنّهم نسبوا إلى النّبي الأكرمﷺ أحاديث موضوعة على لسان ابن عباس وبخاصّة ما ورد في الروايات أنّ معاوية كان يلعن بعد الصلاة كلّ من: الإمام علي والحسن والحسين عليهم السلام وابن عباس ومالك الأشتر وقيس بن عبادة (رحمهم الله تعالى)[1].

يقول مؤلف كتاب معجم رجال الحديث بعد نقله لهذه الأقوال: ومن مجموع ما قيل عن ابن عباس يستفاد أنّه كان رجلاً جليل القدر ومدافعاً عن أميرالمؤمنين والإمام الحسن والحسين عليهما السلام كما ذكر العلّامة الحلي وابن داود في كتبهما الرجاليّة، وينقل المحدّث القمي عن الشهيد الثاني بعد ذكر بعض الأحاديث الواردة في ذم ابن عباس قوله: إنّ جميع هذه الأحاديث ضعيفة.

وذكر المرحوم صاحب المعالم في كتابه «تحقيق طاووسي» ـ بعد ذكره لمحبّة وإخلاص ابن عباس لأميرالمؤمنين عليه السلام ونصرته له ودفاعه عنه، الذي لا يقبل الشك أو التردید فيه: ليس من المستبعد أن يقوم بعض الأشخاص بحسد ابن عباس وينسبوا له هذه الأقاويل الباطلة.

ومن هنا فإنّ أغلب علماء الرجال من الشيعة وأهل السنّة يذهبون إلىٰ صحة واعتبار الأحاديث التي يرويها ابن عباس ولا يعتنون بمثل هذه الشبهات عنه، وعلى ضوء ذلك لابدّ من القول إنّ المخاطب لهذه الرسالة شخص آخر غير ابن عباس، رغم أننا لا نكاد نعرفه بشكل دقيق، أمّا التعبير الوارد في هذه الرسالة عن المخاطب ابن عمّه فحاله حال ما يقال في الكلام للمخاطب بأنّه أخ وأمثال ذلك فهو كناية عن شدّة العلاقة والرفقة، ومن هذه الجهة لم يورد السيّد الرضي اسم ابن عباس، مع أنّ في الكثير من الموارد الأخرىٰ يذكر المخاطبين لكتب الإمام عليه السلام، واكتفى في هذا

---

١. أنظر: معجم رجال الحديث، ج ١٠، ص ٢٣٨، به نقل عن الطبري.

المورد بعبارة: إلىٰ بعض عمّاله.

ونختم الكلام هنا بحديث ينقله المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار في تاريخ أميرالمؤمنين عليه السلام وجاء في هذه الرواية عن رجل من أهل الطائف قال: أتينا ابن عبّاس رحمة الله عليهما نعوده في مرضه الذي مات فيه، قال: فأُغمي عليه في البيت، فأُخرج إلىٰ صحن الدار، قال، فأفاق فقال: إنّ خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّي سأهجر هجرتين، وإنّي سأخرج من هجرتي، فهاجرت هجرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهجرة مع علي عليه السلام، وإنّي سأعمى فعميت، وإنّي سأغرق فأصابني حكّة فطرحني أهلي في البحر فغفلوا عنّي فغرقت، ثمّ استخرجوني بعد، وأمرني أن أبرأ من خمسة: من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام، ومن الخوارج هم أهل النهروان، ومن القدرية وهم الذين ضاهوا النصارى في دينهم، فقالوا: لا قدر، ومن المرجئة الذين ضاهو اليهود في دنيهم فقالوا: الله أعلم، قال: ثمّ قال: «اللّهُمَّ إنّي أَحيىٰ عَلىٰ مَا حَيّ عَليهِ عَليٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَأَموتُ عَلىٰ مَا مَاتَ عَليهِ عَليٌّ بنُ أَبِي طَالب عليه السلام» قال: ثمّ مات[1].

والجدير بالذكر أنّ قبر ابن عباس موجود في الطائف وإلى جانبه مسجد فخم اطلق عليه اسمه.

***

١. بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١٥٢، ح ٢٠.

## ٤٢

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلى عُمَرِ بْنِ أبي‌سَلَمَةِ المَخْزُومي وَكانَ عامِلَه عَلَى البَحْرَيْنِ فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ نُعْمانَ بْنِ عَجْلانِ الزُّرَقي مَكانَه[1]

### نظرة عامّة للرسالة

يخطاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الرسالة عامله على البحرين عمر بن أبي سلمة (ابن أُم سلمة زوجة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله)، وفيها يثني الإمام عليه السلام على خدماته وحسن سيرته ويدعوه للمشاركة في قاتل المناوئين في صفين، وقد عيّن الإمام بدله النعمان بن عجلان وهو من زعماء قبيلة بني عجلان.

ومن أجل أنّ لا يتكدر خاطر ابن أبي سلمة أو يستاء من هذا التبديل، فقد كتب له الإمام عليه السلام في هذه الرسالة عبارات الشكر والمديح وخاطبه بلغة مفعمة بالمحبّة من قبيل: «وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ».

---

١. سند الرسالة:
جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة: من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضي: ابن واضح اليعقوبي (المتوفي ٢٨٤) في تاريخه المعروف، والبلاذري (المتوفي ٢٧٩) في كتابه أنساب الأشراف است. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٤٦).

ونستوحي من كلمات الإمام عليه السلام في هذه الرسالة النمط الأفضل في كيفيّة التعامل مع هذه المسائل وعزل بعض المسؤولين ونصب آخرين مكانهم.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

## الشرح والتفسير

### أحسنت! لقد أدّيت الأمانة

ينطلق الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بقوله: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ، الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ».

ولكن بما أنّ عمر بن أبي سلمة رجلاً طيباً ومخلصاً ومديراً ومدبّراً وربّما يتأثر سلبياً بهذا التغيير في المنصب يخاطبه الإمام عليه السلام في ثمان جمل قصيرة وعميقة المعنى ويؤكّد له أنّ مثل هذا التبديل في الوظيفة لا يعني إطلاقاً صدور خطأ من جانبه وبذلك يرفع ما قد يخالجه من قلق في هذا الشأن.

يقول الإمام عليه السلام: «بِلَا ذَمٍّ لَكَ، وَلَا تَثْرِيبٍ[1] عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ[2]، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ[3]».

---

١. «تثريب» من مادة «ثَرب» على وزن «سرو» في الأصل تعني الجلد الذي يغطي المعدة والأمعاء، وعندما تأتي هذه المفردة من باب تفعيل (تثريب) تعني إزاحة هذه الجلدة، ثمّ أستخدمت بمعنى اللوم والتوبيخ والتقريع، وكأنّ الإنسان بهذا العمل يكشف غطاء الذنب عن وجه الطرف المقابل.

٢. «ظَنين» تعني المتهم، من مادة «ظنة» أي التهمة، والفرق بينها وبين المتهم في العبارة المذكورة ربّما يكون بأنّ سوء الظن بالمتهم أكثر وأشد من الظنين، وتستخدم في موارد توجد فيها قرائن على إتهام الشخص.

ونرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه التعبيرات يؤكّد له بشكل كامل أنّ هذا التغيير في المسؤوليّة ليس بسبب تقصيره في أدائه لوظيفته بل لأنّه يريد إلقاء مسؤوليّة أهم على عاتقه.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لمضمون هذه المسؤوليّة الجديدة ويقول: «**فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَىٰ ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ[1] بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللهُ**».

إنّ سيرة عمر بن أبي سلمة وسوابقه الجليلة ووفاءه للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في جميع حالات بيان ذلك في شرح حاله، وكلّها شاهد على هذا المعنى.

وجملة «**أَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي...**» لا تعني الاستشهاد في سبيل الله مع الإمام عليه السلام، بل بمعنى حضوره مع الإمام في ميادين القتال والجهاد.

وجملة «**مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ...**»، تبيّن أنّ عمر بن أبي سلمة رجلاً شجاعاً ومدبّراً وحازماً ووفياً للإمام عليه السلام، وعبارة: «**جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ**» تشير إلىٰ أنّ عمر بن أبي سلمة يتمتع بمقام كبير ومكانة جليلة إلىٰ درجة أنّ الإمام عليه السلام يستعين به لإقامة عمود الدين والتصدي لقوى الظلم والانحراف.

## تأمّل

## التعرّف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟

كما ورد في نص الرسالة أنّ عمر بن أبي سلمة كان والياً على البحرين من قِبل أميرالمؤمنين عليه السلام قبل النعمان بن عجلان الذي جعله الإمام والياً على البحرين بعده، ومن اللازم التعرف على هذين الرجلين بشيء من الاختصار.

---

٣. «مأثوم» تعني الشخص الذي ذكرت له ذنوب، ولكن «آثم» تعني الشخص المذنب وكليهما من مادة «إثم» على وزن «اسم» ويعني الذنب.

١. «استَظْهِر» من مادة «استِظهار» ويعني طلب المعونة من الشخص الآخر والإطمئنان لمساعدته.

أمّا عمر بن أبي سلمة فأُمّه أمُّ سلمة زوجة النّبي الأكرمﷺ المعروفة، وقد ولدت من زوجها السابق هذا الابن، وأبوه أبوسلمة، وقد ولد هذا الابن في السنة الثانية من الهجرة إلىٰ الحبشة، لأنّ أباه كان من المهاجرين إلىٰ الحبشة وقد توفي بعد عمر طويل نسبياً في عام ٨٣ هـ للهجرة في عهد خلافة عبد الملك بن مروان، وقد روىٰ بعض الأحاديث عن النّبي الأكرمﷺ[1].

وقد كان عمر بن أبي سلمة مع الإمام عليعليه السلام في معركة جمل وكانت أُمّه تحثه على نصرة الإمام علي، وقد كتبت للإمام رسالة ودفعتها إلىٰ ابنها يوصلها إلىٰ الإمامعليه السلام: وجاء في مضمونها لو أنّ الجهاد كتب على النساء لجئت لأُقاتل معك الأعداء، ولكنني أرسلت إبني هذا بدلاً منّي.

ثمّ إنّ أميرالمؤمنين عليعليه السلام عيّنه والياً على البحرين وبلاد فارس في أيّام خلافته، ويكفيه فخراً أنّه قد تربى في أحضان النّبي الأكرمﷺ وسار في خط الولاية وفي نصرة الإمام عليعليه السلام[2].

وجاء في بعض الروايات أنّ عمر بن أبي سلمة كان من الأشخاص الذين نقلوا الحديث الشريف عن النّبي الأكرمﷺ فيما يتصل بإمامة الاثني عشر[3].

أمّا النعمان بن عجلان فكان من صحابة النّبي الأكرمﷺ ومن كبار الأنصار وكان شاعراً وخطيباً بارعاً، ومن جملة ما أنشده في يوم السقيفة بعد أن أثنى على مواقف الأنصار في مواطن مختلفة ونصرتهم للإسلام والنّبي الأكرمﷺ ذكر في قصيدته بيتين من الشعر في الدفاع عن الإمام علي ونصرته:

وَكَانَ هَوانا فِي عَليٍّ وَإنَّهُ ... لأَهلٌ لَها مِنْ حَيث تَدْرِي وَلَا تَدْرِي

وَصَيُّ النَّبِيِّ المُصْطَفَىٰ وَابنُ عَمِّهِ ... وَقَاتِلُ فُرسَانَ الضَّلالَةِ وَالكُفْرِ

---

١. الإستيعاب، ح ١٨٨٢، في شرح حال عمر بن أبي سلمة.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٧٣.

٣. عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٨، ح ٨.

وبسبب هذه السوابق الجليلة عيّنه الإمام علي عليه السلام على حكومة البحرين بعد عمر بن أبي سلمة ووضع بيده بيت المال، ولكـن للأسـف أنّ الأمـوال الكـثيرة تـدفع بالإنسان نحو منزلقات الخطيئة والمفسدة، قام هذا الوالي باعطاء مبلغ كبير من بيت المال لكلّ فرد من أفراد قومه وقبيلته يأتيه إلى البحرين فلما وصل خبر ذلك إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، كتب له كتاباً توبيخياً وطلب منه أن يرفع إليه حساب بيت المال، ولكن بما أنّ النعمان لم يتمكن من حساب الأموال بشكل صحيح ودقيق، فقد أخذ ما تبقى من بيت المال وهرب إلى الشام والتحق بمعاوية[١].

٭٭٭

١. أنظر: مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٤٥ و ٣٤٦.

# ٤٣

## وَمِنْ كِتابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

## إلىٰ مَصْقَلَةِ بْنِ هُبَيْرَةِ الشَيْبَاني وَهُوَ عامِلُهُ عَلىٰ أَرْدِشيرخُرَّة[1]

### نظرة عامّة للرسالة

هذه الرسالة تشبه ما ورد في الكتاب ٤١، وخلاصتها أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام كتب إلىٰ والٍ آخر يدعى مصقلة بن هبيرة الشيباني رسالة توبيخية وشديدة اللهجة، لأنّ الخبر وصل إلىٰ الإمام عن أنّ مصقلة يتلاعب في بيت المال ويهب منه إلىٰ أفراد قبيلته بدون حساب وكتاب، فالإمام عليه السلام يلومه بشدّة على هذا العمل، وينصحه أن لا يبيع آخرته بدنياه، ولا دينه بالدينار، ولكن الإمام لا يتهمه بشكل قطعي في هذه الرسالة، بل يقول: إذا كان ما بلغني عنك صحيحاً فأنت قد إرتكبت خطأ كبيراً واسخطت إلهك.

---

١. سند الرسالة:
ذكر هذه الرسالة قبل السيّد الرضي، البلاذري في كتابه أنساب الأشراف، وكذلك وردت في تاريخ اليعقوبي (ابن واضح) مع تفاوت يسير، وجاء في الخطبة ٤٤ الجزء الأوّل من هذا الكتاب موارد أخرى من سيرة مصقلة وحياته.

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَ عَصَيْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَ خُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ، فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَ قِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ.

## الشرح والتفسير

### جميع المسلمين سواسية في بيت المال

يستفاد من عنوان هذه الرسالة وكذلك ما ورد في الخطبة ٤٤ من هذا الكتاب، أنّ مصقلة بن هبيرة الشيباني كان أحد عمّال الإمام عليه السلام وكان والياً على قسم مهم بلاد فارس يسمى «اردشير خرة» ويشمل عدّة مدن وقرى، وكما يقول ابن أبي الحديد كان مصقلة من أحفاد نزار بن معد بن عدنان[1].

وكانت لمصقلة بن هبيرة قصّة فيما يتصل بأسرى بني ناجية وقد وردت تفاصيلها في الخطبة ٤٤ إذ أنّ بني ناجية كانوا من النصارى الذين أسلموا بعد الفتح وبقيت جماعة منهم على نصرانيتهم أو أنّهم ارتدوا على الإسلام، وبعد هزيمة أصحاب الجمل في البصرة بايع الناس في تلك المنطقة لأميرالمؤمنين عليه السلام سوى بني

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٢٧.

ناجية الذين جهّزوا جيشاً لمقاتلة الإمام، فأرسل لهم أميرالمؤمنين، معقل بن قيس وهزمهم وأسر جماعة منهم، وعندما حملوا الأسرى إلىٰ الكوفة وصلوا في طريقهم إلىٰ منطقة «اردشير خرة» وكان فيها مصقلة والياً عليها من قِبل الإمام علي عليه السلام، فاشتراهم مصقلة من معقل وكان عددهم خمسمائة نفر ودفع في مقابل ذلك غرامة تساوي خمسمائة ألف درهم وأطلق سراحهم ثمّ دفع هذا المبلغ من أموال بيت المال على أساس أنّه قرض يقترضه من بيت المال ويسدده بعد ذلك ولكنّ مصقلة أخذ يسوف في تسديد الدين، ثمّ إنّه جاء بعد مدّة إلىٰ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في الكوفة ودفع له مبلغاً من المال وهو يتوقع أن يعفو الإمام عن الباقي ولكن الإمام لم يقبل بذلك، لأنّه ربّما تكون موافقته وتنازله عن الحقّ المذكور بدعة بحيث يتداع إلىٰ الأذهان ما كان يفعله عثمان بصرفه في بيت المال، وبما أنّ مصقلة كان يخشىٰ من عدالة الإمام ومطالبته ببقية المال رجح الهرب إلىٰ الشام والالتحاق بمعاوية.

ومهما يكن من أمر فإنّ الرسالة مورد البحث تشير أيضاً أنّ مصقلة كان من أتباع مدرسة عثمان بن عفان وكان يوزع أموال بيت المال على أقربائه وأرحامه قبل حادثة أسرى بني ناجية، وعندما وصل خبره إلىٰ الإمام عليه السلام كتب له الإمام الرسالة مورد البحث.

وتشير هذه الرسالة إلىٰ ثلاثة نقاط في غاية الأهميّة الأُولى أنّه يقول: «**بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ**».

وهذه العبارة التي ذكرها الإمام عليه السلام بشكل مقتضب تشير إلىٰ أنّ الإمام كان قد سمع خبراً عن مصقلة لم يجزم بصحته وأنه اتخذ جانب الاحتياط لئلا يتهم شخصاً بريئاً.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن بشكل واضح ومفصّل الخبر المذكور ويقول: «**أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ، وَخُيُولُهُمْ وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ**[1]

---

١. «أغتام» من مادة «إعتيام»، ومن مادة «عيم» على وزن «عيب» في الأصل تعني العطش والرغبة بتناول اللبن، ☜.

مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ».

ومعلوم أنّ مصقلة إذا كان قد إرتكب مثل هذا العمل فإنّه يكون قد اقترف عملاً شنيعاً، لأنّه أنفق المال الذي يعتبر حصيلة دماء المجاهدين والشهداء من أجل تقوية مكانته الاجتماعيّة في قومه.

ويتابع الإمامعليه‌السلام خطاب لمصقلة في القسم الثاني من هذه الرسالة ويقول: «فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ[1]، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً».

وهكذا نرى أنّ الإمامعليه‌السلام في هذه العبارات يتخذ مرّة أخرى جانب الاحتياط في الحكم على المتهم فربّما وقع بعض الخطأ والاشتباه في نقل المخبرين وبالتالي ستتعرض سمعة رجل مؤمن إلىٰ الاهتزاز والهتك، ويقول الإمام: إنّه إذا كان هذا الخبر صحيحاً فستسقط من عيني ويخف ميزانك عندي.

ونلاحظ أنّ الإمامعليه‌السلام في هذا المورد لا يهدده بعقوبة قاسية ولكنّه يخاطبه بآلية التوبيخ المعنوي التي تعدّ أقسى وأشد من العقوبة الظاهريّة.

ويواصل الإمامعليه‌السلام كلامه لمصقلة ويتحدّث معه بلغة النصيحة الصريحة والعميقة المغزى ويقول: «فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ[2] دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً».

وبديهي أنّ أي إنسان عاقل ومؤمن لا ينبغي أن يرجح حقّ أقربائه على حقّ الله تعالى، ويهتم لمصالحهم على حساب طاعة الله، فلا ينبغي لأي إنسان عاقل أن يستبدل رأس مال دينه الذي يقوده إلىٰ الجنّة ويعتبر سبب نجاته في الآخرة، بمتاع

---

☜ وبما أنّ الإنسان عندما يشعر بميل شديد نحو شيء فإنّه يسعى إلىٰ اختيار أفضل أنواعه، وكلمة «عيمة» (بكسر الميم) تعني كلّ شيء جيد ومختار من الشيء، وعليه فإنّ جملة «اعتامك» تعني أنّهم اختاروك.

١. «النَّسَمَة» في الأصل بمعنى التنفس ويقال لهبوب الريح الملائمة «نسيم» وأحياناً تطلق على نفس الإنسان أو روحه.

٢. «مَحق» تعني المحو والهلاك.

الدنيا والزائل والرخيص، وعبارة: «الأَخْسَرِينَ» إشارة إلىٰ أنّ الإنسان يبيع أثمن ما لديه من بضاعة ومتاع بأزهد وأرخص ثمن.

وبما أنّ مصقلة ربّما كان يظن أنّ عطاءه لأقربائه من بيت المال يدخل تحت عنوان صلة الرحم وأنّه بعمله هذا يتحرك في خط الفضيلة والإحسان، نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن ذلك بعبارة: «الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً»، ولعلّه إشارة إلىٰ مورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1].

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في ختام هذه الرسالة إلىٰ نقطة مهمّة من تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتصل بحقوق المسلمين في بيت المال ويقول: «أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

وجملة «يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ» نظر إلىٰ أنّ كلمة «ورود» و«صدور» ترتبط في الأصل بورود العطشى إلىٰ شريعة المال ثمّ حملهم الماء ثمّ عودتهم إلىٰ مكانهم، فالإمام عليه السلام يشير هنا إلىٰ هذه النقطة، وهي أنّ بيت المال كالنهر كبير الذي أجراه الله تعالى للمسلمين وهم فيه سواء، وكل شخص يرد هذا النهر من هذا الطريق يروي ظمأه وينتفع منه ثمّ يخرج منه.

وعبارة «عِنْدِي» لا تعني أنّه ينبغي حمل جميع أموال بيت المال إلىٰ الإمام عليه السلام أنّ الواجب على المسلمين أن يتوجهوا من المناطق القريبة والبعيدة إلىٰ مركز الحكومة وإلى الإمام لدفع ما عليهم من حقوق الشرعية ثمّ العودة إلىٰ مناطقهم، المراد أنّ هذا العمل يجب أن يكون طبق البرنامج الذي أُحدده لك وتحت إشراف، لا أن يقوم عمّالي ووكلائي بتقسيم بيت المال وفق ما يرونه وبوحي ميولهم ورغباتهم.

---

١. سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

وعلى أيّة حال فهذه الجملة تشير إلىٰ أنّ بيت المال يجب أن يقسّم بين المسلمين بصورة متساوية كما كان الحال في عصر النّبي الأكرمﷺ ولا يكون مثلما كان في عهد الخليفة الثاني الذي كان يرجح العرب على العجم، الأشراف والصحابة على الآخرين، أو مثل عصر عثمان الذي كان يقسّم بيت المال بين أقربائه وأرحامه من بني أُميّة بتمييز سافر بين المسلمين والإشكال الذي وقع فيه مصقلة هو أنّه كان متأثراً بثقافة عصر عثمان حيث كان يرى امتيازاً خاصّاً على سائر المسلمين.

وممّا يجدر ذكره أنّ أموال بيت المال في هذا المورد لا تختص بالزكاة وأمثالها التي ترتبط بالأصناف الثمانية من المستحقين كما ورد في الفقه، بل يقصد بها أموال الخراج على الأراضي المفتوحة في ذلك اليوم، حيث كان الولاة يضعون الضرائب والخراج على جميع الأراضي المذكورة بنسبة عادلة وكان جميع المسلمين في ذلك سواء، لأنّ هذه الأراضي قد فتحت عنوة بأيد المجاهدين ولا فرق في هذا الأمر بين الغني والفقير والعرب والعجم، خلافاً لأموال الزكاة التي تختص بالفقراء والمساكين وباقي الطوائف المستحقين لها، وبما أنّ غالبية الأموال التي تجتمع في بيت المال من أموال الخراج، ولذلك يطلق عليها عبارة أموال بيت المال.

ومعلوم أنّ المناطق والأراضي في البلاد الإسلاميّة تختلف في ميزان الخراج والضرائب المترتبة عليها، ففي بعض لمناطق حيث تكون الأراضي زراعيّة وبستاتين كثيرة المحصول، فالخراج عليها يكون كثيراً، وفي بعض المناطق أقلّ من ذلك حيث يصرف خراج مثل هذه المناطق على أهلها ولا يستحق نقلها مركز الخلافة.

ومن هذه الجهة يقول الإمامعليه السلام: على فرض أنّك وزعت خراج تلك المنطقة على جميع الناس، فمع ذلك كان عملك هذا مجانباً للصواب، لأنّ هذا الخراج يتعلق بجميع المسلمين، سواءً من كان في منطقتك أم في منطقتنا، فجميع المسلمين ينبغي أن ينتفعوا ويستفيدوا من هذا المال بصورة عادلة ومتساوية.

## تأمّل

### جواب مصقلة للإمام عليه السلام

ورد في بعض الروايات أنّ مصقلة بعد أن استلم رسالة الإمام عليه السلام إليه كتب له رسالة جوابية يبريء فيها نفسه، يقول في رسالته للإمام:

«أمّا بعد، فقد بلغني كتاب أميرالمؤمنين فليسأل إن كان حقّاً فليعمل على عزلي بعد نكالي، فكلّ مملوك لي حرّ، وعليَّ أيّام ربيعة ومضر، إن كنت رزئت من عملي ديناراً، ولا درهماً، ولا غيرها، منذ وُليته إلىٰ أن ورد عليَّ كتاب أميرالمؤمنين، ولتعلمنّ أنّ العزل أهون عليَّ من التهمة. فلما قرأ ـ الإمام عليه السلام ـ كتابه قال: ما أظنّ أباالفضل إلّا صادقاً»[1]. (يعني أنّ المخبرين قد أخطأوا في إخبارهم).

ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ معاوية بعد استشهاد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام اختار مصقلة أن يكون والياً على طبرستان (مازندران في هذا العصر) ولكن مصقلة قتل قبل أن يصل إلىٰ تلك المنطقة ولم يعد من سفره هذا أبداً، بحيث صار ذلك مضرب مثل بين الناس، فعندما لا يريد المرء القيام بعمل معين يقول: انتظر حتى يعود مصقلة من طبرستان[2].

وقد كتابنا بحوث مفصلة عن مصقلة ذيل الخطبة ٤٤.

---

١. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٠١.

٢. فتوح البلدان البلاذري، ج ٢، ص ٤١١.

٤٤

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ زيادِ ابنِ أبيهِ وَقَدْ بَلَغَهُ أنَّ مُعاوِيَةَ كَتَبَ إلَيْهِ يُريدُ خَديعَتَهُ بِاسْتِلْحاقِهِ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

إنّ قصّة هذه الرسالة تبدأ من وصول خبر إلىٰ الإمام علي عليه السلام أنّ معاوية أرسل إلىٰ زياد بن أبيه رسالة يدعي فيها أنّه أخوه الحقيقي، وعلى هذا الأساس ألحق معاوية زياد بن أبيه الولد غير المشروع بأبي سفيان، وأراد بهذه الطريقة أن يخدع زياد ويتمكن من جذبه إليه لتحقيق أهدافه وغاياته.

الإمام علي عليه السلام في هذه الرسالة يحذّر زياد بن أبيه الذي كان في ذلك الزمان والياً على بلاد فارس من قِبل الإمام، بأنّ هذه الخطة هي خطة شيطانيّة مدروسة من قِبل معاوية فلا ينبغي أن تقع في حباله وتنخدع برسالته، فكل ابن يرتبط بعلاقة

---

١. سند الرسالة:

أورد هذه الرسالة قبل السيّد الرضي، المدئني (في كتاب فتوح الإسلام)، والجدير بالذكر أنّ الرواية التي ينقلها المدائني تختلف الرواية التي نقلها السيّد الرضي نهج البلاغة، ويشير إلىٰ أنّ السيّد الرضي لم يأخذ هذه الرواية بل من مصدر آخر، ونقلها بعد السيّد الرضي، ابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنة ٤٤، وفي أسد الغابة، وابن عبدالبرّ في الاستيعاب في شرح حال زياد. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٥٢).

البنوة بأبيه وأُمّة في البيت الذي ولد فيه، وحتى النسبة غير المشروعة التي تقوم على أساس ادّعاء شخص مثل أبي سفيان بأنّ زياد من نطفته لا تثبت حقيقة، وعندما وصلت الرسالة إلىٰ زياد قبِل كلام الإمام وهدأت نفسه، رغم أنّ زياد بعد استشهاد الإمام التحق بمعاوية بسبب هذه الخديعة مع إضافة بعض التهديد لزياد.

ولكن المستفاد من كتب التاريخ أنّ أم زياد كانت جارية لطبيب معروف عند العرب يدعي «حارث بن كلدة» والتي تزوجت من عبد يدعى «عبيد» وحسب الظاهر كان زياد نتيجة ذلك الزواج، ولذلك يقال له: زياد بن عبيد، ولكن بما أنّ والده كان عبداً وغلاماً غير معروف فرجح بعضهم أن يقال عن زياد «زياد بن أبيه» والظاهر أنّ زياد نفسه لم يكن يأبى هذا الاسم، ولكنّه بعد إلحقه معاوية بأبي سفيان ادّعىٰ أنّه أخوه كان يقال له: زياد بن أبي سفيان، والحقيقة أنّ كلّ الإنسان يستولي عليه العجب والحيرة من هذه الوقاحة بأنّ شخصاً يدعي لنفسه خلافة رسول الله ﷺ ومع ذلك يصرح بأنّه أخ لابن الزنا، والأمر الآخر المثير للعجب أنّ المحيط الاجتماعي في ذلك الوقت إلىٰ درجة من التلوث والتشوه بحيث قبِل زياد بن أبيه هذا الادّعاء.

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ: يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ.

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ.

قال الرضي، قولهعليه السلام: «الْوَاغِل» هُوَ الَّذي يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرِبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلاَ يَزَالُ مُدَفَّعاً مُحاجزاً. و«النَّوْطُ الْمُذَبْذَبِ»: هُوَ مَا يُناطُ بِرَحْلِ الرّاكِبِ مِنْ قُعْبٍ أَوْ قَدَحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ، فَهُوَ أَبَداً يَتَقَلْقَلُ إِذا حَثَّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرَهُ.

## الشرح والتفسير

### إحذر من أغوائهم!

طبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغة، أنّ الإمامعليه السلام في مستهل هذه الرسالة يخاطب زياد بن أبيه ويشوقه على الصبر والاستقامة في مقابل الوساوس الشيطانيّة التي تنبعث هنا وهناك، ثمّ يقول: «وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ[1] لُبَّكَ[2]،

---

١. «يَسْتَزِلّ» من مادة «زَلل» على وزن «قمر» بمعنى الخطأ، و«يستزل» يعني أنه يريد أن يوقع الآخر في الخطأ.

٢. «لُبّ» في الأصل بمعنى المخ في كلّ شيء، ويقال للعقل «لبّ».

وَ يَسْتَفِلُّ[١] غَرْبَكَ[٢]، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ».

ويستفاد من هذه العبارات وعبارات أخرى وردت في الرسائل السابقة، أنّ جواسيس الإمام عليه السلام كانوا ينتشرون في جميع البلاد الإسلاميّة، حتى أنّهم كانوا يصلون إليه الرسائل الخاصّة التي تصل إلىٰ ولاته من قِبل الأعداء، ليستطيع الإمام التصدي للخطر في الوقت المناسب، ونرى أنّ الإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة يحذّر زياد بن أبيه من شيطنة معاوية وأن يتخذ جانب الحيطة والحذر من مكره ودسائسه.

ثمّ يضيف في توضيح ذلك: «يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ[٣] غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ[٤] غِرَّتَهُ[٥]».

وهذا الكلام للإمام عليه السلام مقتبس من الآية الشريفة ١٧ من سورة الأعراف حيث تتحدّث عن قول الشيطان: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

والمقصود أنّ الشيطان يستخدم كلّ وسيلة لخداع الناس وإغوائهم، فأحياناً يستخدم آلية التطميع أو أخرى التهديد وثالثة الشهوات والأهواء والنوازع النفسانيّة، ورابعة عن طريق الآمال والتمنيات والمناصب والمقامات الموهومة والعناوين البراقة، والغاية من كلّ ذلك تنحصر بأمر واحد، ألا وهو إغواء الإنسان وسوقه في متاهات الضلالة والهلكة.

وقد استخدم شيطانِ الشام هذا الأسلوب أيضاً وسعى إلىٰ خداع الناس كلّ بحسب طريقته الخاصّة لجذبهم إليه والاستفادة منه في مسار تحقيق مطالبه وشهواته.

وينقل عن أحد العرفاء أنّه قال: ما من صباح إلّا قعد لي الشيطان على أربعة

---

١. «يَسْتَفِلُّ» من مادة «فَلّ» على وزن «قمر» بمعنى كسر الشيء أو التقليل من حدّة السكين.

٢. «غَرْب» بمعنى النشاط، وكذلك التصميم.

٣. «لِيَقْتَحِم» من مادة «اقتِحام» بمعنى إدخال الشيء بالقوة في شيء آخر.

٤. «يَسْتَلِب» من مادة «استِلابة» بمعنى النهب والغارة والسرقة، وأصلها من «سلب».

٥. «غِرّة» بمعنى الغفلة والتساهل.

مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أمّا بين يدي فيقول لا تخف فإنّ الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[1] وأمّا خلفي فيخوّفني الضيقة على مخلفي فأقرأ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[2]، وأمّا عن قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء، فأقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وأمّا من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[4][5].

ووقد ورد في الروايات فيما يتصل بهذه الجهات الأربع للشيطان ما خلاصته: «ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، معناه، أُهَوِّنُ عَلَيهِم أمْرَ الآخِرَة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، آمُرُهُم بِجَمعِ الأمَوالِ، وَالبُخلَ بِها عَنِ الحُقُوقِ لِتَبقىٰ لِوَرثَتِهِم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أفسُدُ عَلَيهِم أمَر دِينِهِم بِتَزيِينِ الضَّلالةِ، وَتَحسِينِ الشُّبهَةِ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بِتَحبِيبَ اللَّذاتِ إِليهِم، وَتَغلِيبِ الشَّهواتِ عَلىٰ قُلُوبِهِم...»»[6].

أجل، فإنّ وساوس شياطين الجن والإنس تهجم على الإنسان من كلّ باب لإغواءه وإضلاله.

وهنا ربّما يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تذكر النصوص جهة الفوق والتحت في مسألة إتيان الشيطان؟ ذهب بعضهم إلىٰ أنّ ذلك بسبب أنّ جهة العلو هي جهة الرحم، لأنّ الرحمة الإلهيّة تنزل دائماً من هذه الجهة على الإنسان، وأمّا جهة التحت سبب الخوف والوحشة، فلو أنّ شخصاً خرج من باطن الأرض ودعا الإنسان إلىٰ عمل معين وذلك من شأنه إخافة هذا الإنسان والاستيحاش منه.

---

١. سورة طه، الآية ٨٢.

٢. سورة هود، الآية ٦.

٣. سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

٤. سورة سبأ، الآية ٥٤.

٥. بهج الصباغة، ج ١٤، ص ٣٧٢.

٦. مجمع البيان، ذيل الآية ١٧ من سورة الأعراف.

ويحتمل أنّ الشياطين يأتون إلىٰ الناس بشكل طبيعي، ونعلم أنّه لا أحد يأتي إلىٰ شخص آخر من جهة الفوق والتحت، بل يأتيه من إحدى جوانبه الأربعة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام تعرض في سياق كلامه لادعاء معاوية في الحاق زياد بن أبيه به (بوصفه أخاه) واستدل على بطلان هذا الادّعاء بدليل منطقي وقال: «وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ[1] مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ[2] مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ».

وقول الإمام عليه السلام «فلتة» من قِبل أبي سفيان إشارة إلىٰ ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه نقلاً عن كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر قال: إنّ عمر بعث زياد في إصلاح فساد واقع في اليمن، ولما رجع من جهته خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مثلها، وأبوسفيان حاضر، وعلي عليه السلام وعمرو بن العاص، فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه. فقال أبو سفيان: إنّه لقرشي، وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمّه. فقال علي عليه السلام: ومن هو؟ قال: أنا. فقال: مهلاً يا أباسفيان (أي اسكت)! وجاء في رواية أخرى أنّه عليه السلام قال: اسكت يا أباسفيان فإذا سمعك عمر فإنّه سيسارع في عقابك.

وجاء في رواية ثالثة أنّ عمرو بن العاص قال له: إذا كنت تعلم أنّ زياد ابنك، فهلا تستلحقه، قال: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق عليَّ إهابي[3].

ومن المعلوم أنّ أبا سفيان لا يستطيع إثبات أنّ نطفة زياد من عنده بسبب إرتكابه لعمل منكر مع أم زياد، بل اعتمد على الظّن والتخمين، ولكنّه تحدّث بلسان بكل صلافة وقاحة عن ذلك في حضور الإمام علي عليه السلام وآخرين، ولهذا السبب

---

١. «فَلْتَة» من مادة «فَلت» على وزن «ثبت» في الأصل بمعنى فقدان الشيء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على الكلام الذي يصدر من الإنسان بدون دقّة ويفلت من فمه وتقال: «فلتة»، وكذلك تطلق على الحوادث الفجائيّة وبدون تأمّل.

٢. «نَزْغَة» من مادة «نزغ» على وزن «نظم» بمعنى الدخول في عمل بقصد الإفساد وإيجاد النزاع بين الناس، و«نزغات شيطان» تقال للوساوس الشيطانيّة التي توقع النزاع بين الأفراد.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٠.

يذكّر الإمام علي في رسالته مورد البحث زياد بن أبيه بأنّ مثل هـذه الادّعـاءات الشيطانيّة لا تعتبر معياراً لإثبات النسب في الإسلام، ومن هذه الجهة لا يمكنك أن ترث أبا سفيان أبداً، لأنّ ابن الزنا لا يرث من أبيه وأُمّه شيئاً (وأنت بدورك لم تدعِ ميراثاً لنفسك منه) وعلى ضوء ذلك لا ينبغي أن تسلم نفسك لوساوس معاوية الشيطانيّة.

وفي ختام الرسالة يقول الإمام عليه السلام: «وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ[1]، وَالنَّـوْطِ الْمُذَبْذَبِ».

وبعبارة أخرى إنّ معاوية إذا أراد أن يدعي إخوتك له من هذا الطريق ووافـقته على ذلك، فسوف لن تكون ابناً لأبي سفيان ولا أخاً لمعاوية بل تكون وسمة عار لك أيضاً بأنّك ابن زنا، حتى أنّك لا تنال ميراثاً من تلك العائلة الغريبة عـنك ولا تحسب ابن مشروعاً لها، رغم أنّ إخوة معاوية الذي إرتكب الكثير من أعمالاً قبيحة والشنيعة لا تعدّ افتخاراً لك.

والجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة وطبقاً لما أورده المرحوم السيّد الرضي في ذيلها كانت مؤثرة في قلب زياد إلىٰ درجة أنّه قال: «فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابَ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ».

ثمّ إنّ معاوية أبقى زياد بن أبيه في موقعه والياً على بعض بلاد فارس، ثمّ نقله والياً على العراق ووضع تحت تصرفه منطقة مهمّة من العراق، وكانت هذه الوصمة باقية في زياد ابن أبيه بسبب حبّه لجاه والمقام بحيث إنّ هذا الهاجس قاده آخـر المطاف إلىٰ وادي الشر والشيطنة.

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة من كلام زياد بن أبيه أنّ مقصود زياد هو أنّ أبا سفيان شهد بهذا الأمر قطعاً بأنني من نطفته، وهذا المعنى بقي في نفسه إلىٰ زمان الحاق معاوية لزياد به.

٥٥٥

---

١. «مُدَفَّع» من مادة «دفع»، تعني الشخص الذي يمنع من عمل معين.

يتحدّث السيّد الرضي في هذا المورد عن تفسير بعض اللغات الغامضة: «قال الرضي، قوله عليه السلام: «الوَاغِل» هُوَ الَّذي يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرِبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلاَ يَزَالُ مُدَفَّعاً مُحاجِزاً. و«النَّوْطُ الْمُذَبْذَبِ»: هُوَ مَا يُناطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ مِنْ قُعْبٍ أَوْ قَدَحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ، فَهُوَ أَبَداً يَتَقَلْقَلُ إذا حَثَّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرَهُ».

## تأمّل

### قصّة نسب زياد المعقدة

في هذا المورد كلام كثير، إلىٰ درجة أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة كتب في هذا الموضوع عشرات الصفحات، ونشير في هذا المورد إلىٰ عدّة مسائل:

**١. هل أنّ زياد ابن زنا؟**

ما يستفاد من الرسالة أعلاه هو أنّ الإمام عليه السلام نفى ادّعاء أبـي سفيان وكذلك معاوية بأنّ زياد الابن غير المشروع لأبي سفيان، وقال إنّ هذا ادّعاء شيطاني، وفي ظاهر الشرع بأنّ كلّ ولد يلحق بأبيه وأُمّه اللذين تربطهما رابطة الزواج ويولد الولد في ذلك البيت.

مضافاً إلىٰ أننا نعلم أنّ الإمام عليه السلام نصب زياد والياً من قِبله على فارس، وهذا المنصب يستلزم بمفهومه إجازته لإمامة الجمعة والجماعة، فكيف يمكن أن يختار الإمام عليه السلام شخصاً لهذا المقام وهو ابن زنا، في حين أننا نعلم أنّ مشروط إمامة الجمعة والجماعة طهارة المولد.

ومن جهة أخرى، فقد ورد في التواريخ فيما يتصل بواقعة كربلاء وعاشوراء أنّ الإمام سيّد الشهداء عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ تَرَكَنِي بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ ... هَيْهَاتَ مِنّي الذِّلَّة»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٨٣.

أمّا ما هو المقصود بكلمة «الدعيّ» في نظر اللغة، بذهب بعض إلىٰ أنّ المراد هو ابن الزنا، ولكن عندما نراجع كتب اللغة نجد أنّ لهذه الكلمة مفهوماً عاماً وتعني من يدعي البنوة، وكذلك تطلق على الشخص المتهم بنسبه، وجاء في لسان العرب: الدعي يعني من يدعى له البنوة، وكذلك الابن الذي ينسب لغير أبيه.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾[1] وعلى هذا الأساس فربّما أراد الإمام عليه السلام أنّ القول بأنّ زياد قد ولد في أسرة حقيرة لا شأن لها كما يولد العبيد، وقد نسب إلىٰ غير أبيه لغرض كسب المكانة والموقع في المجتمع.

ويحتمل أيضاً أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بيّن الحكم الظاهري للمسألة، وهو «الْوَلَدُ لِلْفِرَاش» ولكن الإمام الحسين عليه السلام ذكر حقيقة الأمر وأنّ زياد ابن غير مشروع.

وأمّا لابن زياد المسألة أوضح وأجلى في أنّه ابن غير مشروع وأنّ أُمّه مرجانة المشهورة بالفجور، ومن هذه الجهة وطبقاً لما ورد في تواريخ كربلاء، خاطبت الحوراء زينب عليها السلام ابن زياد عندما رام توبيخها وذمّها بقولها له: «يابن مرجانة».

ويحتمل أيضاً في المقام من «الدعي بن الدعي» يزيد وأبيه معاوية وأنّه إشارة إلىٰ نسبهما المتلوث.

### ٢. والد زياد ووالدته

المعروف أنّ والد زياد كان عبداً يدعى عبيد وقد تزوج من جارية «حارث بن كلدة» من أطباء العرب المعروفين واسمها سميّة، وقد ولد زياد في بيتها، رغم أنّ أبا سفيان ومن بعده معاوية سعيا إلىٰ تبني زياد واعتباره ابناً لأبي سفيان، وأمّا ما يقال من أنّ سميّة كانت من ذوات الأعلام (أي النسوة المعروفات بالفحشاء والزنا) فهو بعيد، لأنّ جارية طبيب معروف كحارث بن كلدة لا يمكن أن تكون من ذوات

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٤.

الأعلام كما هو المعروف.

ولكن ورد في كتب التاريخ أنّ أباسفيان توجه في سفر إلىٰ الطائف وطلب من شخص يدعى أبومريم، وهو من الأشخاص السيىء الصيت امرأة فاحشة ليمارس معها الجنس، فقدم له أبو مريم سميّة أمّ زياد، وقالت له: دع زوج عبيد يعود من الصحراء وينام في البيت وسوف أتي إليك، ثمّ إنّها جاءت إلىٰ أبي سفيان ومارست الجنس معه، ولعل أبا سفيان عندما قال أنّه زياد ابني كان ناظر إلىٰ هذه الواقعة.

### ٣. قصّة استلحاق معاوية لزياد

إنّ قصّة الحاق معاوية لزياد بآل أبي سفيان واتخاذه أخاً له تعدّ من عجائب تاريخ الإسلام، يقول الشيخ المصري المعروف محمّد عبده في شرحه لنهج البلاغة: إنّ قصّة زياد بن أبيه قصّة غريبة تدعو الإنسان إلىٰ التأمل، لأنّ معاوية نسبه إلىٰ لأبي سفيان ليكون أخاًه مدعياً أنّ أبا سفيان عاشر أُمّه سميّة وهي زوجة رجل آخر، فأنجبت زياداً منها.

ثمّ يضيف: وأغرب ما في القصّة أنّ ادّعاء هذه الأُخوة (غير المشروعة) وقعت في مجلس علني ورسمي وبتحقيق الادّعاء على رؤوس الأشهاد فلم يخجل منه زياد، موازناً بين مغانم هذه الإخوة وبين إزدراء الناس له، ففضل إخوة الخليفة على سلامة العرض، وهكذا في سبيل السلطة لم يكن الرجل ذوالنخوة يخجل من أن يثلم عرضه إذا كان في هذه منفعة (ولو بشكل غير مشروع على سلامة وصحة نسبه، أجل، فمثل هذه الأمور مهدت الطريق السلطة والمقام هذا الرجل المتكبر، فلم يخجل من تعرض شرفه ونسبه إلىٰ الاهتزاز في مقابل المنافع التي يجنبها من ذلك)[1].

ونضيف نحن، أنّ الأعجب من ذلك أنّ المحيط الإسلامي الذي أوجده النّبي

١. شرح نهج البلاغة عبده، ذيل الرسالة ٤٤، ص ٤٥٨.

الأكرمﷺ ولم يمض عليه أكثر من نصف قرن تعرض للتلوث والتشويه بسبب تصرفات بني أُميّة إلىٰ درجة أنّ الخليفة يتجرأ بتثبيت مثل هذا المنكر في الملأ العام، فالويل للمسلمين إذا سقطوا في أسر مثل هذه الحكومات الجاهلة والملوثة.

وعلى أية حال فالقصّة كما يلي: روى المدائني في كتاب فتوح الإسلام: إنّ معاوية لما أراد استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياد معه وأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس، إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد، فمن كان عنده شهادة فليقم بها، فقام ناس فشهدوا أنّه ابن أبي سفيان، وأنّهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته، وقام أبو مريم السلولي، وكان خماراً في الجاهليّة، فقال: أشهد ياأميرالمؤمنين أنّ أباسفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم، أصب لي بغياً، فخرجت فأتيت بسميّة، قلت لها: إنّ أبا سفيان ممن عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغياً، فهل لك؟ فقالت: نعم، يجيىء الآن عبيد بغنمه وكان راعياً فإذا تعشّى، ووضع رأسه أتيته، فرجعت إلىٰ أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبتك، قال خير صاحبة ولولا ذَفَر في أبطيها، فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم أُمّهات الرجال فتشتم أُمّك، فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته، قام زياد، وأنصت الناس فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا أيّها الناس إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري حقّ هذا من باطله وهو والشهود أعلم بما قالوا، إنّما عبيد أب مبرور ووالٍ مشكور، ثمّ نزل (الظاهر أنّ المراده من الوالي هو المعاوية)[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٧.

### ٤. نظرة لسيرة زياد بن أبيه

كما تمّت الإشارة إليه آنفاً فقد كان زياد في الأصل يدعى زياد بن عبيد، وكان أبوه عبداً وراعياً وكانت أُمّه جارية أبي حارث بن كلدة الطبيب العربي المعروف، وأحياناً يقال له: زياد بن أبيه، وأخرى زياد بن أمّه، لأنّ أباه عبد وليس له مكانة اجتماعيّة في الناس، وبعد أن ألحقه معاوية بنفسه صار يقال له زياد بن أبي سفيان وكان منذ صباه ذكياً وخطيباً مفوهاً وبليغاً، ولد في الطائفة في عام فتح مكّة، وقيل إنّه ولد في عام الهجرة وقال آخرون أنّه ولد يوم بدر، ولكنّه لم يشاهد النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان مع أميرالمؤمنين عليه السلام في جميع حروبه، وبقي مع الإمام الحسن عليه السلام إلىٰ زمان صلحه مع معاوية، وبعد ذلك خدعه معاوية وطلب منه المجيىء إليه وتوفي زياد في الكوفة في شهر رمضان عام ٥٣ في سن ٥٦ (وذهب بعضهم إلىٰ أنّ عمره أكثر من ذلك أو أقل).

أمّا سيرة حياته فتتشكل من مرحلتين متفاوتين تماماً، المرحلة الأُولى كان يتحرك في خط الحقّ، وكان رجلاً موثوقاً ومديراً مدبراً، ولهذا السبب عيّنه الإمام علي عليه السلام والياً له على فارس، وقد أدار المنطقة بشكل جيد وكا يجمع الخراج بأفضل صورة ويرسله إلىٰ أميرالمؤمنين عليه السلام فبلغ ذلك إلىٰ معاوية واشتد عليه هذا الأمر، فكتب له رسالة وذكر له في مضمونها: أمّا بعد فإنّه غرّتك قلاع تأوي إليها ليلاً، كما تأوي الطير إلىٰ وكرها، وأيّما الله لولا انتظار بك والله أعلم به لكان لك منّي ما قاله العبد الصالح: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1]
وكتب في أسفل الكتاب شعر من جملته:

تَنسىٰ أَبَاكَ وَقَد شَالتْ نَعُومَتُهُ ... إذا يَخطب النّاسَ وَالوَالِي لَهُم عُمَرُ

فلمّا ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق، يهددني وبيني وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وزوج سيدّة نساء العالمين

---

١. سورة النمل، الآية ٣٧.

وأبي السبطين، وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء في مئة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان، أما والله لو تخط هؤلاء أجمعين إليَّ لوجدني أحمر مخشن ضراباً بالسيف.

ثمّ كتب زياد رسالة إلىٰ أميرالمؤمنين علي عليه السلام وبعث بكتاب معاوية معها: فكتب إليه الإمام علي عليه السلام يقول: «أمّا بعد، فإنّي قد وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً. فإنّه قد كانت من أبي سفيان فلتة في أيّام عمر من أماني التيه وكذب النفس، لم تستوجب بها ميراثاً ولم يستحق بها نسباً، وأنّ معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه من خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثمّ احذره ثمّ احذره والسلام».

أمّا المرحلة الثانية من حياته اختلفت تماماً عن المرحلة السابقة، وبتعبير معاصر أنّه انقلب ١٨٠ درجة على ما كان سابقاً، وهذه المرحلة تبتدىء منذ أن خدعه معاوية بواسطة المغيرة بن شعبة، وقد استغل معاوية نقطة الضعف في زياد هو حبّه للجاه والمقام، فدعاه إليه بعد قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام وادّعا إخوته (أنّه ابن غير مشروع لأبي سفيان) وولاه حكومة فارس، ثمّ وسع دائرة نفوذه وألحق بولايته الولاية على الكوفة والعراق، فما كان من زياد من أجل تثبيت حكومته والتصدي للثورات الشعبية ضد معاوية وأزلامه، إلّا أن بدأ بقمع الأصوات المناوئة لحكومة بني أُميّة، وبخاصة الشيعة الموالين لأهل البيت عليهم السلام فكان يستخدم فيهم القتل والقمع والشدّة بأقصى صورها، وقد إرتكب معهم جرائم لا تعدّ ولا تحصى بحيث إنّه شوّه تاريخ الإسلام بأفعاله، ومن ذلك أنّه قبض على «حجر بن عدي» كان رجلاً شجاعاً ومؤمناً ومن شيعة الإمام علي عليه السلام المخلصين ومشهوراً بالصلاح والنقاء ومن صحابة النّبي المعروفين، ومعه جماعة من أصحابه وأرسلهم إلىٰ الشام، وقد أمر معاوية بقتل هذا الرجل الصالح في منطقة «مرج عذراء» وذلك أضاف صفحة سوداء أخرى إلىٰ صفحات حياته السوداء، وقد وصل به الأمردرجة أنّ الحسن البصري الذي لم تكن له علاقة جيداً مع الإمام علي عليه السلام قال في حقه: إنّ معاوية قد إرتكب ثلاثة أمور، كلّ

واحدة منها تكفي لهلاكه. الأول، أنّه سلط السفهاء والجهلاء على المسلمين ووضع بيدهم مقاليد الحكم والسلطة، والثاني الحاقه لزياد بنفسه خلافاً لقول النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» والثالث: قتله لحجر بن عدي، فالويل له من حجر وأصحاب حجر[١].

ونحن نقول أيضاً: نعوذ بالله من سوء العاقبة وتورط الإنسان في فخاخ الشياطين من الجن والإنس أن يفارق الحياة في حال الكفر والضلالة والجريمة.

---

١. ما ورد أعلاه مقتبس من كتاب الاستيعاب، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وتنقيح المقال، للعلّامة المامقاني وشرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، فراجع.

# ٤٥

## وَمِنْ كِتابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلام

## إلىٰ عُثْمانِ بْنِ حُنَيْفِ الأنْصاري ـ وَكانَ عامِلَهُ عَلَى الْبَصْرَةِ وَقَدْ بَلَغَهُ أنَّهُ دُعي إلىٰ وَليمَةِ قَوْمٍ مِنْ أهْلِها، فَمَضىٰ إلَيْها ـ قَوْلَهُ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

تعتبر هذه الرسالة من الرسائل المهمّة جدّاً في نهج البلاغة والتي تتضمّن دروساً ومعطيات كثيرة للسالكين في طريق الحقّ والإيمان وبخاصّة أولياء الأمور والمسؤولين في البلدان الإسلاميّة وتتضمّن جهات عدّة:

---

١. سند الرسالة:
صرّح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة بأنّ الصدوق ذكر قسماً من هذه الرسالة في كتاب الأمالي قبل السيّد الرضي، والجدير بالذكر أنّ السيّد الرضي في شرحه لهذه الرسالة يقول في عدّة موارد وفي رواية أخرى ورد كذا وكذا، وهذا يشير إلىٰ وجود مصدر آخر عنده نقل منه هذه العبارة المتفاوتة، بل إنّه في أحد الموارد يقول: إنّ جماعة نقلوا هذه العبارة بكذا وكذا، والتعبير بالجماعة جدير بالتأمل، مضافاً إلىٰ ذلك فإنّ مقاطع من هذه الرسالة وردت في كتب متعددة بعد السيّد الرضي كخرائج للقطب الراوندي، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري، والمناقب لابن شهر آشوب، وربيع الأبرار للزمخشري مع اختلاف يسير، هذا الاختلاف يشير إلىٰ مصادر أخرى لديهم (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٣).
وقد أورد هذه الرسالة «البرّي» (المتوفي قرن ٧) في كتاب الجوهرة في نسب الإمام علي، ص ٨١، مع بعض الإضافات.

١. بداية يخاطب الإمام عليه السلام واليه على البصرة عثمان بن حنيف ويخبره بخبر مشاركته في ضيافة أحد أشراف البصرة، وفي تلك الضيافة التي لم يشترك فيها سوى الأثرياء والمتوّلين، جلبت إلىٰ المائدة شتى أصناف الطعام والمأكولات المتنوعة، والإمام هنا يوبّخه على مشاركته في مثل هذه المائدة.

٢. وفي القسم الثاني من الرسالة يذكر الإمام عليه السلام أنّ كلّ إنسان ينبغي أن يقتدي في حياته بإمامه وقائده، ثمّ يبيّن له سيرة حياته وسلوكه بوصفه إماماً للمسلمين وكيف أنّه اكتفى من الدنيا بردائين قديمين وبقرصين من الخبز ولم يدخّر لنفسه ثروة ومالاً من زخارف الدنيا، ولكنّه يؤكّد له بأنني لا أتوقع أن تعيش كما أنا أعيش في واقع الحياة، ولكن أتوقع منك البساطة والزهد في الحياة وأن لا تنسى حالات التقوى والنزاهة.

٣. وفي قسم آخر من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلىٰ قصّة فدك ويقول: الشيء الوحيد الذي كان في أيدينا من مال الدنيا هو «فدك» وقد استولى عليها الحساد وأعداء أهل بيت النّبي صلى الله عليه وآله، ورغم أنني لا احتاج لفدك ولغير فدك. فنهاية حياتنا جميعاً الموت، وسيكون بيتنا هو القبر الضيق والمظلم.

٤. وفي مقطع آخر من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلىٰ نقطة مهمّة وهي أنّ بساطتي في المعيشة ليست بسبب أنني لا أتمكن من التوصل إلىٰ الدنيا وتحصيل المواهب والنعم المادية فيها، بل بسبب ما أتولاه من وظيفة خطيرة ومسؤوليّة كبيرة في عهدتي، والتي تتمثّل في منصب الإمامة وزعامة المسلمين، وهذا المقام يستوجب أن أُشارك الناس الضعفاء في صعوبات الحياة ومشاكلها، فلا أبيت شبعاناً في حين يوجد من ينام جائعاً في أطراف البلد الإسلامي.

٥. وفي مقطع آخرى يجيب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال، وهو أنّه ربّما يقول البعض: إذا كان علي بن أبي طالب يأكل من هذا الطعام البسيط فهذا من شأنه أن يكون الإمام ضعيفاً في قوّته البدنيّة بحيث لا يستطيع مقارعة الشجعان في ميادين

القتال، ولكن حالي كالشجرة البرية التي تواجه صعوبة ومشقّة في الماء والغذاء ولكنّها قويّة وصلبة أمام التحديات.

٦. وفي آخر مقطع من هذه الرسالة (والتي حذف السيّد الرضي بعضاً من مقاطعها وفقراتها) يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بلغة المعرض عنها ويعلن بصوت عالٍ أنّه بريء من زخارفها وجواذبها، وبعد أن يثني الإمام على الأشخاص الذين يتحركون من موقع المسؤوليّة والالتزام بالتكاليف والقيم الإنسانيّة أمام الله تعالى ويحيوا الليل بالعبادة، يخاطب مرّة أخرى عثمان بن حنيف ويوصيه بتقوى الله ويدعوه إلىٰ سلوك مسلك الزهد والبساطة في الحياة يضمن له النجاة في الآخرة من النار.

ຣຍ

## القسم الأوّل

**أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ! وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.**

## الشرح والتفسير

### دعوة الوالي إلى مأدبة فاخرة!

في المقطع الأوّل من هذه الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام عثمان بن حنيف الأنصاري، الذي يعدّ من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الأجلاء وقد اختاره أميرالمؤمنين ليكون والياً على البصرة ويتحدّث معه بلغة التوبيخ ويقول: «**أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ**[1] **الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ!**».

«فتية» جمع «فتى» في الأصل تعني الشاب اليافع، وأحياناً تطلق على المسن الذي يملك النشاط والبهجة في حياته، وفي هذه العبارة تعني رجل من الأشراف.

«مادبة» من مادة «أدب» وتعني الدعوة الرسمية المعتبرة التي تراعى فيها الآداب.

و«جفان» جمع «جفنة» (على وزن وزنة) وتعني الآنية الكبيرة المخصصة

---

١. جملة «تستطاب لك» بمعنى أنه يطلق لك جلب الأنواع الجيدة واللذيذة من الأطعمة، وهي من مادة «طيب» بمعنى الطاهر واللذيذ والجيد.

للطعام، وهذا التعبير يشير إلىٰ أنّ المجلس المذكور كان مجلساً ضخماً وقد دعيت إليه جماعة من الأشراف وجيىء إلىٰ المائدة بأنواع الأطعمة اللذيذة.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَىٰ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ[١] مَجْفُوٌّ[٢]، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ».

هنا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد أنّ العيب الكبير في هذه المأدبة أنّها منحصرة بالأغنياء فقط، فلو أنّ تلك الأطعمة المتنوعة واللذيذة كانت تشمل الجياع والمحرومين ليأكلوا منها فليست في ذلك مشكلة كبيرة، ومن هذه الجهة فإنّ هذه المائدة كانت مليئة بشتى أنواع الأطعمة اللذيذة والمأكولات المتنوعة، ومن جهة أخرى أنّ الأثرياء فقط هم المدعون لهذه المائدة دون المحرومين، ولو أضفنا إلىٰ ذلك دعوة عثمان بن حنيف إلىٰ هذه المائدة فسيتضاعف الإشكال.

ونستوحي من سياق هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام يطرح إشكالاً رابعاً في دعوة واليه إليها ويتمثّل في وجود أموال مشتبه في هذه المأدبة، لأنّ الإمام عليه السلام يضيف إلىٰ ذلك قوله: «فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ[٣] مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ[٤]، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».

والنقطة الملفتة للنظر، أنّ الإمام عليه السلام كان يهتم بمراقبة عمّاله وولاته بشكل دقيق وينظر إلىٰ حركاتهم وسلوكياتهم، لئلا ينحرف الوالي أدنى انحراف وأن لا توجد فيه أيّة نقطة ضعف حتى المشاركة في ضيافة غير مناسبة له، بحيث إنّ الإمام عليه السلام يرسل له رسالة مطولة وزاخرة بالنصائح المختلفة ويحذّره من مغبة مثل هذه السلوكيات الخاطئة، وربّما لانجد في العالم أجمع مثل هذا التوجيه الدقيق والضبط في إدارة الأمور.

---

١. «عائل» بمعنى من له عيال محتاجين إليه.

٢. «مجفوّ» بمعنى المحروم والشخص الذي لم يعطى حقّه.

٣. «تقضمه» من مادة «قضم» على وزن «فهم» بمعنى مغض الطعام في الفم، وأحياناً تأتي بمعنى الأكل، و«مقضم» يطلق على الطعام في الفم.

٤. «فالفظه» من مادة «لفظ» بمعنى اخراج الطعام من الفم، ويقال للألفاظ لأنّها تخرج من الفم.

ومن بين كتب الإمامعليه السلام ورسائله إلىٰ عمّاله ربّما نجد الكثير من مثل هذه الرسالة، وكلّها تشير إلىٰ أنّ الإمامعليه السلام كان في غاية التدبير ومنتهى الدقّة في أمر إدارة الحكومة.

والملاحظة الأخرىٰ، أنّ الإمامعليه السلام يرى في هذه الرسالة أنّ الولاة والمسؤولين في الحكومة الإسلاميّة ينبغي أن يقفوا إلىٰ جانب الناس وجمهور المستضعفين والمحرومين وأن لا يعتنوا أبداً بالطبقة المترفة الذين تزداد توقعاتهم ونقل معونتهم، والتجارب تؤكد على أنّ المحرومين المستضعفين هم أوّل المدافعين عن الدين والبلاد الإسلاميّة في مواقع الخطر والظروف الصعبة.

## تأمّل

### من هو عثمان بن حنيف؟

جاء في كتاب «الأعلام للزركلي»: «عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي، أبوعمرو؛ من أصحاب النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله شهد أُحداً، وما بعدها، وبسبب ورعه ونزاهته ولاه الخليفة الثاني على السواد مسؤولاً على الأراضي الخراجيّة في العراق، ثمّ ولاه علي البصرة، ولما نشبت فتنة الجمل (بين عائشة وعلي) دعاه أنصار عائشة إلىٰ الخروج معهم على علي، فامتنع، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به على عائشة فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعلي وحضر معه الواقعة ومعركة الجمل، ثمّ سكن الكوفة وتوفي في خلافة معاوية»[١]، وقال البعض الآخر: توفي في زمن خلافة معاوية في المدينة.

واللافت أنّ ابن عبدالبر ذكر في كتابه «الاستيعاب» أنّه عندما فتح المسلمون العراق، تشاور الخليفة الثاني مع أصحابه فيمن يرسله إلىٰ العراق ليكون والياً عليه، فاتفق الجميع على اختيار عثمان بن حنيف وقالوا: إنّه يستطيع إدارة ما هو أكبر من

---

١. الأعلام الزركلي، ج ٤، ص ٢٠٥.

ذلك، لأنّه يملك من البصيرة والعقل والمعرفة والتجربة الكثير[١].

وجاء في كتاب «مستدركات علم رجال الحديث» أنّ عثمان بن حنيف وأخاه سهل بن حنيف كانا من جملة اثني عشر نفر الذين اعترضوا على أبي بكر وانتقدوا أعماله، ثمّ يضيف: إنّ عثمان وأخاه سهل كانا من شرطة الخميس في عهد الإمام علي عليه السلام وهم الذين ضمن الإمام علي لهم الجنّة[٢].

وجاء في أُسد الغابة: أنّ عثمان بن حنيف قال: إنّ رجلاً ضرير البصر أتى النّبي صلى الله عليه وآله، فقال: ادع الله أن يعافيني، فقال صلى الله عليه وآله: إن شئت دعوة وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: أُدعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهُمّ إنِي أسئَلُكَ وَأتَوَجّهُ إلَيكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحمِةِ يا مُحَمَّد إنِّي تَوَجَّهتُ بِكَ إلىٰ رَبِّي فِي حاجَتِي هَذهِ لِتَقضِي لِي اللّهُمّ فَشفَعهِ فِيَّ»[٣].

ونختم هذا المقطع بكلام للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام (طبقاً لما ورد في رجال المامقاني): «وعدّه مولانا الإمام الرضا عليه السلام من الباقين على منهج نبيّهم صلى الله عليه وآله من غير تغيير ولا تبديل»[٤].

ﮋﮊ

١. الاستيعاب، ج ٣، ص ٨٩.

٢. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٢١٣.

٣. أسدالغابة، ج ٣، شرح حال عثمان بن حنيف، رقم ٣٥٧١. وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في مسند أحمد، ج ٤، ص ١٣٨؛ ومستدرك الحاكم، ج ١، ص ٥١٩. ويقول الحاكم بعد نقل هذا الحديث: إنّ هذا الحديث صحيح السند رغم أنّ البخاري ومسلم لم ينقلاه. (ليت المخالفين الجاهلين يتمسّكون لا أقل بمبانيهم الروائية ليعلموا مدى وقوعهم في الاشتباه).

٤. رجال المامقاني، شرح حال عثمان بن حنيف.

## القسم الثاني

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَ اللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلاَ حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلاَ أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ.

## الشرح والتفسير

### لم أدّخر من الدنيا شيئاً لنفسي

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه لعثمان بن حنيف وأمثاله في هذا المقطع من الرسالة ويشير إلى عدّة نقاط مهمّة لإيقاظ عناصر الخير والإيمان في وجدان عامله، يقول بداية: «أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان في مسيرة حياته المعقدة وسلوكه المادي والمعنوي لا يستطيع أن يتحرك لوحده ومن دون إرشاد وإقتداء بقدوة صالحة، فالإنسان إمّا أن يكون في ذاته يملك جميع الملاكات واللياقات اللازمة ليكون إماماً للناس أو أن يقتدي بمن تتوفر فيه هذه الملكات والقابليات اللائقة، وإلّا فإنّه سيسير في متاهات الضلالة والحيرة.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ[1]، وَمِنْ طُعْمِهِ

1. «طمر» تعني الثواب الخلق والقديم، وفي الأصل من مادة «طمر» على وزن «أمر» ويعني تغطية الشيء، وأمّا ☜

بِقُرْصَيْهِ[1]».

المشهور أنّ هذين الثوبين كانا من الكرباس والقرصين من خبز الشعير، وهما يشكلان طعام الإمام عليه السلام اليومي، وقرص واحد لوجبة الظهر والآخر للعشاء، وهذا في الحقيقة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقتدي به الإمام علي عليه السلام، كما في ورد في الحديث الشريف: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ مَا اتَّخَذَ قَميصَين وَلَا إِزَارَيْن وَلَا زَوْجَيْنِ مِنَ النِّعَالِ»[2].

خلافاً لأهل الدنيا والمترفين من الناس، الذين يملكون أحياناً عشرات الأنواع من الألبسة والأحذية، بل إنّ بعضهم لا يلبسون لباساً فاخراً لأكثر من مرّة أو بعض المرات ثمّ يتركوه جانباً، وأحياناً نراهم ينقلون من صناديق والحقائب المليئة بالملابس من مكان لآخر عند انتقالهم من منازلهم، وأمّا موائدهم الملونة فحدّث عنها ولا حرج.

وبما أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم أنّ من النادر أن يستطيع أي إنسان أن يعيش مثل هذه الحياة الصعبة ويرضى بشظف العيش وخاصّة فيما لو كان من كبار المسؤولين وأصحاب المناصب الذين يملكون الإمكانات الكثيرة فإنّه يتعرض لهذه النقطة بالذات ويقول: «أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ».

وهذه إشارة إلى أنّه لا يتوجب عليكم أن تعيشوا مثل هذه الحياة الصعبة وحالات الزهد الشديد، ولكن لا ينبغي أن تغفلوا عن أربع نقاط، وبذلك تعينونني في أمر الحكومة وإدارة هذه البلاد الإسلاميّة الواسعة.

---

☜ استخدام الإمام عليه السلام لهذه الكلمة بصيغة التثنية فمن أجل أنّ أحدهما يشير إلى الثوب والآخر إلى اللباس الداخلي.

١. «قُرص» في الأصل بمعنى الشيء المدور، ولذلك يطلق على الشمس والقمر والخبز المدور فيقال قرص الخبز أو قرص الشمس، والتثنية في عبارة الإمام عليه السلام إشارة إلى طعام يوم واحد، لأنّ كثير من الناس في ذلك الزمان يتناولون الطعام في اليوم والليلة مرّتين.

٢. في ظلال نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٦.

الأُولى: التوصية بالورع، وتعني في الحقيقة حالة التقوى في حدودها العالية، ثمّ التوصية بـ «الاجتهاد» يعني بذل الجهد والسعي في طريق حفظ العدل وحماية المحرومين، والثالثة: «العفة» بمعنى حفظ النفس في مقابل الشهوات والنوازع المختلفة، والرابعة: «السداد» يعني انتخاب الطريق الصحيح والمستقيم في اجتناب في الطرق المختلفة التي تقود الإنسان إلىٰ المتاهة والضلالة.

ومعلوم أنّ المسؤولين في البلاد الإسلاميّة لو التزموا بهذه الأمور الأربعة وتحركوا في سلوكهم الفردي والاجتماعي بمستويات الطبقة الوسطى من الناس لا أكثر، فإنّ كلّ شيء سيكون في محله وستنحل الكثير من العقد المستعصية في أمر الحكومة ويعيش عامّة الناس حالات الرضا عن هؤلاء المسؤولين.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلىٰ نقطة ثالثة لتكون عبرة لجميع الولاة والعمّال في حكومته، ويقول: «فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً[1]، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً[2]، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّني لست كبعض أهل الدنيا الذين يدّخرون من زخارف الدنيا ومتاعها ويتظاهرون بالزهد والتقوى فإنّ ظاهري وباطني واحد، فأنا لا أملك من المال والثروة لا ظاهراً ولا باطناً، ولست من المرائين والمتظاهرين بالزهد وترك الدنيا.

والملفت أنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يحدد الإمكانات المادية للدنيا في أربعة أشياء: أحدها، الذهب والفضة حيث يجمع الناس الدينار والدرهم ويدّخرونها ويفرحون لكمية ما يدّخرون، والآخر، الأموال المتنوعة التي تعدّ رأس المال لهم من قبيل الخيول والإبل ووسائل المعيشة والدور والفرش والأثاث وما إلىٰ ذلك، الثالث: الملابس الفاخرة والمتنوعة، والرابع: الأراضي الزراعية والبيوت

---

١. «تبر» قطعات الذهب والفضة قبل أن تصنع منها الزينة أو تكون مسكوكة.

٢. «وفر» يقول أرباب اللغة أنها تعني المال الكثير من مادة «وفور» بمعنى الزيادة والكثرة، وأحياناً تطلق على كلّ شيء الكثير.

والقصور، يقول الإمام عليه السلام: إنني لم أتوجه في حياتي إلىٰ أيّ من هذه الأمور الأربعة (في حين أنّ بإمكاني ذلك).

والعبارة الأخيرة في هذه الرسالة تعكس غاية التواضع والزهد لدى الإمام عليه السلام، بأن يلفت نظر مخاطبه أو مخاطبيه لهذه المسألة المهمّة، وهي أن لا يتلوثوا بالحياة المترفة لطبقة الأشراف بل يعيشون حالة المواساة للمحرومين والمعوزين وينخرطون في معيشتهم وحياتهم مع هذه الطبقة المحرومة من المجتمع.

«أَتَانٍ دَبِرَةٍ»، تطلق على الدواب التي جرح ظهرها من كثرة الأحمال والعمل الشاق، ولهذا السبب لا تأكل كما ينبغي وتفتقد شهيتها للطعام (والجدير بالذكر أنّ بعض نسخ نهج البلاغة لم ترد فيها هذه الجملة والجملة التي بعدها ولم يذكرها الشرّاح في شروحهم لنهج البلاغة).

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يتحدّث الإمام عليه السلام عن عدم اهتمامه بالدنيا وأنّها في نظره ليست ذات قيمة إطلاقاً ويقول بمضمون عميق: «وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ[1] مَقِرَةٍ[2]».

وتوضيح ذلك أنّ لشجرة البلوط أنواع وأقسام، إحداها أنّها تثمر ثمرة مُرّة ومضافاً إلى مرورتها فإنّها قاسية وصلبة، وبسبب قساوتها يستخدمها الدباغون في دباغة الجلود.

وبديهي أن تناول مثل هذه الثمرة المرّة والقاسية غير مستساغ أبداً ومن يضعها في فمه يضطر للفظها فوراً، وهذا التشبيه يعدّ من أقوى وأبلغ تشبيهات نهج البلاغة عن حال الدنيا، حيث إنّ الإمام عليه السلام جسد باطن وحقيقة الدنيا في قالب هذا المثال، وتأتي لاحقاً مثل هذه العبارات في نهج البلاغة.

---

١. «عفصة» تارة تطلق على شجرة البلوط، وأخرى عل ثمرتها، وهذه المادة يترشح منها سائل أبيض ومضافاً إلىٰ مرارته فإنّه قابض.

٢. «مقر» تارة تأتي بمعنى المر، وأخرى بمعنى الحامض، وفي هذا المورد جاءت بمعنى الأوّل، وهي تأكيد على مفهوم «عفصة».

## القسم الثالث

بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ. وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ -وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ- أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى، وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!.

## الشرح والتفسير

### كيف أكون أميرالمؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟

ومع الالتفات إلىٰ ما تقدم بيانه من قول الإمام آنفاً: «وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً» يستعرض الإمام في هذا المقطع مسألة «فدك» المؤلمة بوصفها استثناء لما ذكره قبل

قليل، وكذلك لغرض التأكيد على عدم اعتنائه للدنيا من جهة، ومن جهة أخرى إشارة إلىٰ أشكال الظلم والجور التي تعرض لها الإمام من قِبل مناوئيه: «بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ[1] عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ[2] عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ».

ونعلم أنّ «فدك» تقع على مقربة من قلاع خيبر، حيث جاء أهالي المنطقة بعد فتح خيبر وصالحوا النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله على نصف قرية فدك بدون أن قتال، فأعطى النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بساتين فدك في حياته إلىٰ ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وبما أنّ محصول فدك ربّما يساعد أميرالمؤمنين عليه السلام في أمر الخلافة، قام المنافسون بعد رحلة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأخذها بسرعة من يد فاطمة الزهراء عليها السلام وطردوا عمّالها على تلك البساتين ولم يعيدوها لها أبداً، وهو ما سيأتي شرحه في ختام هذه الرسالة إن شاء الله.

والمراد من جملة جملة «كَانَتْ فِي أَيْدِينَا...» هي مدّة أربع سنوات منذ فتح خيبر إلى رحلة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وجملة «فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ...» إشارة إلىٰ الغاصبين لمقام الحكومة والخلافة حيث دخلوا بفدك وتمسكوا بها خوفاً من وقوعها بيد بني هاشم، ممّا يعرّض حكومتهم للاهتزاز والضعف.

وجملة «وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ...» إشارة إلىٰ بني هاشم فعندما رأوا مناوئيهم مصرين على غصب فدك لم يستمروا بمطالبتهم لفدك وتركوها لهم، وبذلك أظهروا عدم اهتمام واعتنائهم بهذا الأمر.

وجملة «نِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ»، جملة عميقة المعنى وإشارة إلىٰ الحوادث المؤلمة التي وقعت بعد تداعيات فدك، فهنا يفوّض الإمام عليه السلام أمر الحكم في هذه المسألة إلىٰ الله

---

١. «شحت» من مادة «شحّ» على وزن «تُه» بمعنى البخل المصاحب للحرص.

٢. «سخت» الجود والسخاء.

يوم القيامة، واللافت أنّه لم ينقل عن الإمام عليه السلام أنّه استعاد فدك في أيّام حكومته وخلافته حيث كان بإمكانه ذلك.

ومن أجل أن لا يتصور أحد أنّ الإمام عليه السلام يرغب في تملك فدك في نفسه، يتابع الإمام القول: «**وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ. وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا**[1] **فِي غَدٍ جَدَثٌ**[2] **تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا**».

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام في هذا الحديث بتوضيح أكثر ويتحدّث عن القبر ونهاية حياة الإنسان ويقول: «**وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا**[3] **الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ**[4]**، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ**».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ القبر عادة يكون حفرة صغيرة لا تتسع لأكثر من جسد الإنسان، بل أحياناً يتمّ إدخال الميت إلىٰ هذه الحفرة بصعوبة بالغة، وعلى فرض أنّ الحافر للقبر عمل على توسيع حفرة القبر بنفسه أو بطلب من الورثة، فمع ذلك لا ينفع الميت شيئاً، لأنّه لابدّ من ملء ثغرات الحفرة بالحجر والطين وتغطية جميع نوافذه وثغراته بشكل كامل، فالإنسان الذي يعيش مثل هذا المصير كيف يرتبط قلبه بمال الدنيا وبساتينها وزينتها وقصورها؟

وما ورد في الروايات أنّ المرء إذا شعر بالحزن والغم فعليه بزيارة أهل القبور للتخفيف عن غمّه وحزنه، فربّما يكون ناظراً إلىٰ هذه الحقيقة، وهي أنّ الغم عادة ما يكون بسبب المال والمقام والدنيوي، وعندما يصل الإنسان إلىٰ آخر منزل في حياته ويرى مصيره في نهاية هذه الحياة وأنّه سيودع يوماً جميع ما يملكه من أموال ومقام وجاه، ويكتفي بعدّة قطع من الكفن يأخذها معه إلىٰ القبر فذلك من شأنه أن

---

١. «مظانّ» جمع «مظنة» بمعنى المكان الذي يضم أو يطمئن الإنسان بوجود الشيء يطلبه فيه.

٢. «جدث» بمعنى القبر.

٣. «اضغط» من مادة «اضغات» بمعنى العصر من مادة «ضغت» على وزن «وقت» بمعنى استخدام القوّة في الشيء والضغط عليه.

٤. «المدر» يقال للطين الصلب الملتصق ببعضه مثل قطعة الآجر.

يزيح من قلبه هذا الغم والغصة.

وينقل المرحوم المحقّق التستري قصّة في هذا المجال عن المرحوم السيّد نعمة الله الجزائري، وربّما كان لهذه القصّة جانب التمثيل يقول: «أنّ رجلين تنازعا في دار فانطق الله لبنة من جدار تلك الدار، فقالت: إنّي كنت ملكاً من ملوك الأرض ملكت الدنيا ألف سنة، فلمّا صرت تراباً أخذني خزّاف بعد ألف سنة فصيّرني خزفة فبقيت ألف سنة، ثمّ أخذني فصيّرني لبنة، وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا، فَلِمَ تتنازعان في هذه الدار؟»[1].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن درساً نافعاً لكلّ سالك إلىٰ الله تعالى ويتحرك في طريق الصلاح والنجاة يوم المعاد ويقول: «وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ[2]».

الرياضة في حقيقتها تطويع النفس وتدجينها وأحياناً تستخدم هذه الكلمة في مورد الحيوانات الجموحة، وأخرى في مورد النفس المعاندة وغير السلسلة القيادة، واليوم تستعمل هذه الكلمة بمعنى الرياضة البدنيّة، واللافت أنّ الإمام عليه السلام مع مقامه السامي والعظيم في أمر تصفية النفس وتنقية الروح والسلوك في مدارج الكمال المعنوي والسير إلىٰ الله تعالى والوصول إلىٰ مقام لا يرى فيه سوى الله تعالى ومع ذلك يقول: «هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا...»، ويشير في ذلك إلىٰ نقطتين: الأُولى: أنّ الإنسان مهما سعى لرياضة نفسه والحركة في عمليّة بناء الذات، فإنّه لا ينبغي أن يطمئن إلىٰ هذه الحيّة الرقطاء النائمة وعليه أن يعيش الحذر الدائم من خطرها ويقظتها.

والأُخرى: أنّ الإمام عليه السلام عندما يتحدّث بمثل هذا الكلام مع كونه قد حاز تلك المقامات والمراتب الجليلة في الكمال المعنوي، فينبغي على الآخرين أن يحسبوا حسابهم ولا يغفلوا من أخطار النفس الشريرة والأمارة.

---

١. شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ٥، ص ٣٤٠.

٢. «المزلق» بمعنى زحلق من مادة «زلق» على وزن «شفق» بمعنى التزحلق.

ومن اللازم الإشارة إلىٰ هذه النقطة أيضاً، وهي أنّ الإمامعليه السلام يؤكّد أنّ الغاية من رياضة النفس بآلية التقوى هي تحصيل الأمن يوم القيامة ويوم الخوف الأكبر والنجاة من المنزلقات التي تقود الإنسان إلىٰ وادي جهنّم، وهذا يعني أنّ تحصيل حالة الأمن هذه لا تتيسر إلّا من خلال رياضة النفس وتطويعها على أمور الخير والطاعة والعبودية، وقد ورد في الروايات الإسلاميّة أنّ جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، أي أنّه أشدّ وأعظم من جهاد الأعداء في ساحات القتال والحرب.

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

وعبارة «مزلق» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ جسر الصراط، لأنّ المستفاد من الآيات والروايات الشريفة أنّ الصراط عبارة عن جسر ممتد على نار جهنّم أنّ عبوره بسلام صعب جدّاً حيث ينزلق منه المنحرفون وأهل الضلالة ويسقطون في جهنّم.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

وبما أنّ رياضة النفس على نحوين: فتارة، يروض الإنسان نفسه لعدم وجود أدوات تحصيل الحياة الدنيويّة وافتقاده لوسائل المعيشة المرفهة، وأحياناً أخرى يروض الإنسان نفسه بدفاع من الإيمان والإرادة والعزم على تهذيب النفس في عين قدرته على نيل جميع المواهب المادية والدنيويّة، ولذلك يتابع الإمامعليه السلام قوله في هذا الشأن لئلا يتصور أحد أنّ الإمام يروض نفسه على الشاكلة الأولى يقول: «وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَىٰ مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ[3]، وَنَسَائِجِ[4] هَذَا

---

١. سورة الأنعام، الآية ٨٢.

٢. سورة مريم، الآيتان ٧١ و ٧٢.

٣. «القمح» بمعنى الحنطة.

٤. «نسائج» جمع النسيج بمعنى المنسوج.

الْقَزِّ[١]. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي[٢] إِلَىٰ تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ».

وكما أشرنا آنفاً، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع يشير إلىٰ الوظيفة الثقيلة للولاة والمسؤولين في البلاد الإسلاميّة وأنّهم لا ينبغي أن يطمعوا في الأطعمة اللذيذة والملابس الفاخرة ويتحركوا على مستوى التكالب على حطام الدنيا في حين أنّهم يحتملون أو يعلمون بوجود أشخاص جياع وعرات في شتى أصقاع البلاد الإسلاميّة.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلىٰ الأبعاد العاطفيّة، وهذا في الحقيقة يمثّل بُعداً ثالثاً لهذه الموضوع، ويقول: «أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً[٣] وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ[٤]، وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ[٥]، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ[٦] وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ[٧] إِلَىٰ الْقِدِّ![٨]»

جملة «وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ!» فسّرها غالبية شرّاح نهج البلاغة كما أوردناها آنفاً، وقالوا: إنّ الناس في سنوات القحط والمجاعة يصل بهم لأمر من الجوع أحياناً أن يأكلوا الجلود غير المدبوغة للحيوانات، وهذه الجملة إشارة إلىٰ هذا المعنى، وذهب بعضهم إلىٰ أنّ المراد من «تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ!» إشارة إلىٰ المثل المعروف حيث يقال: إنّ الشخص الفلاني التصق جلد بطنه بظهره من الجوع، («القد» يعني الجلد، و«تحن» الميل والانحناء)، وذهب آخرون إلىٰ أنّ كلمة «القد» يعني

---

١. «القزّ» بمعنى الحرير.

٢. «جشع» بمعنى الحرص والطمع، وتأتي أحياناً بمعنى الحرص الشديد.

٣. «مبطان» هو الشخص الذي إمتلأت بطنه من الطعام، من مادة «بطن» وهذه المفردة صيغة مبالغة.

٤. «غرثى» تعني الجوعان (وصيغة المفرد المؤنثة وجاء صفة للبطون).

٥. «حرّى» بمعنى العطشان من مادة «حرارة».

٦. «بطنة» كثرة الأكل (من مادة «بطن»).

٧. «تحنّ» من مادة «حنين» بمعنى التمايل والاستعطاف لإلفات النظر.

٨. «قدّ» تعني الجلد أو ما يشبه القربة التي التوضع فيها السوائل، وتطلق أحياناً على قطعات اللحم الجاف التي توضع في القربة، ويقال عنها «قدّ»، وهذا الشعر لحاتم الطائي صاحب الكرم المعروف لدى العرب (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٢٨٨).

القطع من اللحم التي يضعها العرب سابقاً أمام الشمس لتجف ويدّخرونها إلى أيّام القحط والحاجة، ويبدوا أنّ التفسير الأوّل أنسب.

وعلى أيّة حال، فربّما تكون جميع هذه المعاني والتفاسير واقعية أو تكون للمبالغة.

يقول الشاعر:

نَظَرتُ إلىٰ الدُّنيا بِعَينٍ مَرِيضَةٍ وَفكرةُ مَغرورٍ وَتَدبِيرُ جَاهِلِ
فَقُلتُ هِي الدُّنيا الَّتي لَيسَ مِثلُها وَنافَستُ مِنها فِي غِرورٍ بَاطِلِ
وَضَيّعتُ أَحقاباً أمامِي طَويلَةً بَلذّاتِ أَيّامٍ قِصارٍ قَلائِلِ[1]

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام كلامه عن ترويضه لنفسه وزهده ويبيّن ذلك بتوضيح أكثر ويقول: «أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ[2] الْعَيْشِ!».

هنا يذكر الإمام عليه السلام للمعيشة البسيطة ثلاث حِكم ويشير إليها بشكل إجمالي:

الأُولى: أنّ المؤمن ينبغي أن يضع يوم القيامة والحساب والكتاب والحشر نصب عينه وبالتالي يعيش الزهد في هذه الحياة.

والأخرىٰ: أنّ مسؤوليّة قيادة الأمّة واستلام مقاليد الأمور وخاصّة في حالات العسر والشدّة التي يعيشها الناس من الناحية المادية، توجب على الإمام عليه السلام أن يختار التقشف في الحياة لمواساة الناس وذلك لغرض تقوية الجانب المعنوي والروحي لهؤلاء المحرومين الذين يقولون: إذا كان لباسنا مثلاً من كرباس يشبه لباس مولانا وإمامنا، وإذا كان طعامنا بسيط جدّاً ويتكون من ماء وخبز الشعير فإنّ هذا الطعام يشبه طعام مولانا وإمامنا، فذلك يتسبب في تسكين خاطرهم ويدفعهم إلىٰ الاطمئنان بأنّ قائدهم وإمامهم يعيش همومهم ويفكر في حلّ مشكلاتهم.

---

١. إرشاد القلوب، للديلمي، ص ٢٢. (شعر أبي العتاهية).

٢. «جشوبة» بمعنى الخشونة والعنف.

الثالثة: مع غض النظر عن المسائل المتعلقة بيوم القيامة والمسؤوليّة الإلهيّة الملقاة على الأئمّة والزعماء في الأُمّة الإسلاميّة فإنّ المسائل العاطفيّة والقيم الأخلاقيّة لا تبيح للإنسان أن يجلس على مائدة زاخرة بألوان الطعام والشراب في حين أنّ جيرانه يعيشون الجوع والحرمان وأحياناً يبيتون وليس عندهم خبز للعشاء.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، لماذا لا نرى مثل هذا المنهج للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لدى بعض الأئمّة الآخرين في العصور اللاحقة، وما هو السر في هذا الاختلاف؟ وسيأتي بعد قليل جواب هذا السؤال إن شاء الله تعالى.

## تأمّل

### قصّة فدك المحزنة

«فدك» اسم لقرية تقع شرق خيبر تقريباً وتفصلها عن خيبر أقل من ثمانية فراسخ، ومع المدينة أكثر من عشرين فرسخاً، وكانت فدك في زمن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله عامرة وتتضمّن عيوناً زاخرة بالمياه وبساتين النخل ومزارع وقلعة، وتعدّ فدك أحد المنازل التي ينزل فيها المسافرون القادمون من الشام إلىٰ المدينة، وهذا الأمر أدى إلى إزدهارها من الناحية الاقتصاديّة.

يقول الطبري في تاريخه: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام في مائة رجل إلىٰ فدك إلىٰ حي من بني سعد بن بكر، وذلك أنّه بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر فسارهم إلىٰ الليل وكمن النهار وأصاب عيناً، فأقرّ لهم أنّه يبعث إليهم خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا ثمر خيبر.

فلمّا سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا ـ شعروا بتقصيرهم في هذه الواقعة وخافوا من عاقبة أمرهم ـ بعثوا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن يسيرهم بحقن دمائهم لهم ويبذلوا الأموال، ففعل وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك مُحيّصة بن سعود

أخو بني حارثة، فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف وأننا إذا شئنا أن نخرجكم اخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر فيئاً للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنّهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب[1].

وجاء في شواهد التنزيل للحسكاني عن ابن عباس أنّه قال: عندما نزلت الآية ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ﴾[2] أعطى رسول الله ﷺ فدكاً لفاطمة عليها السلام[3].

وينقل الشوكاني في تفسيره ما يقارب هذا المعنى[4].

وبعد هذه الحادثة صارت فدك بيد عمّال الزهراء عليها السلام، ومن هذا المنطلق ومن جهة أنّ فدكاً هبّة من النبي لفاطمة، كانت فاطمة عليها السلام قد استلمت فدكاً، ومن هنا يقول الإمام عليه السلام: «بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ»، وهو شاهد على ما أسلفنا، كما أنّ جملة «إنّ أبابكر انتزع من فاطمة فدكاً» المذكورة في «تاريخ المدينة المنورة[5]» شاهد آخر على هذا المدعى.

والعجيب أنّ الخليفة الأوّل بعد رحلة النّبي الأكرم ﷺ استولى علىٰ فدك بدون أيّة مقدمات وأخرجها من يد فاطمة عليها السلام، وقد اعترض عليه أميرالمؤمنين وفاطمة الزهراء عليهما السلام بشدّة على هذا العمل، ولكن أبابكر أجاب: مَن يشهد لكما أنّ فدك لفاطمة؟

فأجاب الإمام علي عليه السلام: ياأبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال: لا، قال عليه السلام: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثمّ ادّعيت أنا فيه، من

---

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٥٤.

٢. أوردت هذه الآية في سورة الأسراء الآية ٢٦، وهي مدنية كما صرح بذلك علماء أهل السنّة، رغم أنّ الآية ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ (سورة الروم، الآية ٣٨) مكية كما ذهب إليه البعض، وذهب الآخرون بدون الالتفات إلى التفاوت بين الآيتين إلىٰ مكية الآية الثانية ليتخذوها ذريعة في نفي حادثة فدك.

٣. شواهد التنزيل، ص ١٦٨.

٤. تفسير فتح القدير، ج ٣، ص ٢٢٤.

٥. تاريخ المدينة المنورة، ج ١، ص ١٩٩.

تسأل البيّنة، قال: إيّاك كنت أسأل البيّنة، قال: فما بال فاطمة سألتها البيّنة على ما في يدها وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين البيّنة على ما ادعوها شهوداً كما سألتني في ما ادّعيت عليهم، فسكت أبوبكر[١].

وكان عمر بن الخطاب حاضراً في المجلس ورأى سكوت أبي بكر وأنّ سكوته ربّما ينتهي بضررهما، فقال: «يَا عَلِيُّ دَعْنَا مِنْ كَلَامِكَ، فَإِنَّا لَا نَقْوَى عَلَى حُجَّتِكَ، فَإِنْ أَتَيْتَ بِشُهُودٍ عُدُولٍ، وَإِلَّا فَهُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لَا حَقَّ لَكَ وَلَا لِفَاطِمَةَ فِيه»[٢].

وهذه الحادثة التاريخيّة فيها الكثير من التعقيدات والتفاصيل وجميع الشواهد تشير إلىٰ أنّ الخليفة في ذلك الوقت كان قد عزم على الاستيلاء على هذا المنبع الاقتصادي وغضبها من أهل البيت عليهم السلام لئلا يكون سبباً لتقوية موقفهم واقتدارهم، وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ قَالَ لَهُ عُمَرُ إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يُرِيدُونَ غَيْرَهَا، فَامْنَعْ عَنْ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْخُمُسَ، وَالْفَيْءَ، وَفَدَكاً، فَإِنَّ شِيعَتَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ تَرَكُوا عَلِيّاً وَأَقْبَلُوا إِلَيْكَ»[٣].

وعلى أيّة حال فإنّ مركز الخلافة في ذلك الوقت أخذ فدكاً من فاطمة الزهراء عليها السلام لمجرّد عدم الدليل على مالكية الزهراء لفدك، ولو كان هناك دليل فينحصر في ميراثها من النبي صلى الله عليه وآله في حين أنّ النبي قال: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوَرِّثُ وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ» وهكذا تمّ انتزاع فدك من فاطمة عليها السلام.

في حين أنّ هذا الحديث وبهذه الصورة موضوع بلا شك والصحيح هو ما ورد في أحاديث أهل السنّة وأهل البيت عليهم السلام: «أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّهِ»[٤] وهو كناية عن أنّ الأموال التي تركها الأنبياء لذويهم لا تعتبر ذات قيمة بالنسبة لميراثهم العلمي.

---

١. بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٢٩.

٢. الاحتجاج، للطبرسي، ج ١، ص ٩٢.

٣. بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٩٤.

٤. سنن الدارمي، ج ١، ص ٩٨؛ سنن ابن ماجة، ج ١، ص ٨١، ح ٢٢٣؛ الكافي، ج ١، ص ٣٢، ح ٢.

ومهما يكن من أمر فإنّ المخالفين ومن أجل الحيلولة دون حصول أهل البيت عليهم السلام على الإمكانات الماليّة، صادروا فدكاً، تارة بذريعة حديث موضوع، وأخرى أنّ فاطمة عليها السلام لا تملك البيّنه الكافية لإثبات ملكيتها على فدك، هذا في حين أنّهم لم يمنعوا نساء النّبي صلى الله عليه وآله من نصيبهنّ من الميراث ممّا تركه النّبي، وقد ورد في حديث معروف في صحيح البخاري وغيره: «إنّ فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن تقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله فيما أفاء الله عليه، فقال أبوبكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نورث ما تركناه صدقة، فغضبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فهجرت أبابكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت»[1]، رغم أنّهم كانوا قد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنّي فَمَنْ أَغضَبَها أَغضَبَنِي»[2].

وفي حديث آخر عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنَّ اللهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ وَيَرضَىٰ لِرِضاكِ»[3].

وأمّا مصير فدك في زمان حكومة الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام فكما ورد في نص هذه الرسالة مورد البحث أنّ الإمام علي عليه السلام في أيّام خلافته قد أغمض عينه عن فدك ولم يتحرك بصدد استعادتها من غاصبها، وبديهي أنّ هذا العمل لم يكن عن رضا قلبي بل بسبب زهد الإمام عليه السلام في الدنيا وإعراضه عمّا كان الأعداء يصرون عليه من امتلاكهم لفدك، وجملة «نِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ» الواردة في نصر الرسالة تدل بوضوح على هذا المعنى.

وقد جاء في التواريخ أنّ عثمان بن عفان في زمن خلافته أعطىٰ فدكاً لمروان بن الحكم، وذهب بعضهم إلىٰ أنّها بقيت بيد أبناء مروان إلىٰ زمان عمر بن عبدالعزيز الأموي الذي كان ينهج منهجاً ملائماً نسبياً مع أهل بيت النبوّة عليهم السلام، وقد أمر واليه

---

١. صحيح البخاري، ج ٣، ص ٣٥ باب غزوة خيبر.

٢. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠؛ بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٣٣٦.

٣. مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٥٣؛ المعجم الكبير، للطبراني، ج ٢٢، ص ٤٠١.

على المدينة «عمر بن حزم» أن يعيد فدكاً لأبناء فاطمةعليها السلام فكتب إليه والي المدينة في جوابه، إنّ أبناء فاطمة كثر وقد تزوجوا مع طوائف كثيرة فأيّاً منهم أُعطي فدكاً؟ فغضب عمر بن عبدالعزير وكتب إليه كتاباً شديداً بهذه المضمون: عندما أمرك بأمر، مثلاً أن تذبح شاة، فتقول في جوابي، هل هذه الشاة قرناء أم غير قرناء، وإن أمرتك أن تذبح بقرة فستسأل منّي ما لونها؟ (أي أنّك تتذرع بحجج بني اسرائيل) وعندما يصل إليك كتابي هذا فادفع فدكاً لأولاد فاطمة من علي[1].

ولكن لم تمض مدّة حتى جاء يزيد بن عبدالملك الأموي للخلافة وغصب فدكاً مرّة أخرى، وعندما انقرض بنو أُميّة استولى بنو العباس على سدّة الحكم، أمر الخليفة العباسي أبوالعباس السفاح، إعادة فدك إلىٰ عبدالله بن الحسن بن علي بوصفه وكيلاً عن بني فاطمة، ولكنّ أباجعفر المنصور الذي جاء بعده أخذ فدكاً من بني الحسن، وقام المهدي العباسي باعادتها إليهم، ولكن موسى الهادي الخليفة العباسي قام بغصبها مرّة أخرى، واستمر الأمر على هذا المنوال إلىٰ زمن هارون الرشيد[2].

يقول الحائري القزويني صاحب كتاب «فدك»: إنّ المأمون العباسي واستناداً لرواية أبي سعيد الخدري بأنّ النّبي قد وهب فدكاً لفاطمةعليها السلام، أمر باعادة فدك لأبناء فاطمة ولكن المتوكل العباسي الذي جاء بعده وبسبب ما يحمله من حقد شديد على أهل البيتعليهم السلام عاد وأخذ فدكاً منهم[3].

وعلى ضوء ذلك تبدلت مسألة فدك إلىٰ قضية سياسية وكل من جاء على سدّة الحكم كان يتخذ موقفاً منها وفق خلفياته السياسيّة[4].

---

١. فتوح البلدان البلاذري، ص ٣٨.

٢. زهرا برترين بانوى جهان (الزهراء سيدة نساء العالمين).

٣. فدك، ص ٦٠.

٤. ولمزيد من الإطلاع انظر حول فدك: صحيح البخاري؛ مستدرك الحاكم، تاريخ الطبري، سنن ابن ماجة وكتاب فدك، تأليف باقر المقدسي؛ وكتاب فدك في التاريخ تأليف آية الله الشهيد السيّد باقر الصدر؛ وكتاب بحار الأنوار، ج ٢٩.

## القسم الرابع

**فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا؛ أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ». أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ خُمُوداً. وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ. وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.**

## الشرح والتفسير

### لست كالبهيمة المربوطة!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى أربع نقاط مهمّة، الأولى: أنّه يشير إلى هدفه من الزهد الشديد والتقشف الشامل ويقول: «فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ[1]، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا[2]، تَكْتَرِشُ[3]

---

١. «المربوطة» تعني في هذا المورد الحيوان الذي يربط لغرض زيادة سمنه ولحمه.

٢. «تقمّم» بمعنى أخذ جميع ما يحتاج للسفر من طعام ومتاع، وفي الأصل من مادة «قمّ» على وزن «غمّ» وتعني تنظيف الدار وتعديلها، وكذلك تطلق على قطف الرياحين والنباتات بشكل كامل بواسطة شفاه الحيوان.

٣. «تكترش» من مادة «كرش» على وزن «كرج» وتعني معدة الحيوانات، وعليه فإنّ «إكتراش» تعني امتلاء المعدة.

مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا».

والحقّ أنّ بعض الناس في هذا العالم يعيشون كما تعيش الدواب والحيوانات، فجماعة تعيش الترف والثراء ولا تشعر بحياة الفضيلة فأقصى همهم في الحياة هو الطعام الكثير واللذيذ، وبعضهم من الطبقة الفقيرة ولكنّهم يتحركون في طلب الدنيا ويبحثون عن الملذات الرخيصة فهم كالحيوانات المرسلة في المرتع تبحث عن العلف، ومن المعلوم أنّ كلا هاتين الطائفتين مذمومتين رغم أنّ أحدهما أشنع من الأخرىٰ، والعجب أنّ كلا هاتين الطائفتين من الحيوانات لا تعلم بمصيرها وأنّها سوف ترسل غداً إلىٰ المذبح ويستفاد من لحومها أو يستفاد من ظهورها للحمل والركوب، أو تصطاد من قِبل الحيوانات المفترسة.

ثمّ يشير الإمامعليه السلام إلىٰ النقطة الثانية: «أَوْ أُتْرَكَ سُدًى[1] أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ[2] طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ![3]».

في هذا المقطع من الرسالة يتحدّث الإمامعليه السلام عمّا يتصل بالغرض من خلق الإنسان وينفي عنه خمسة أمور: الأوّل: أن يكون حال الإنسان حال سائر الحيوانات السائبة أو المعلوفة التي همها علفها.

والآخر: أن لا يكون هناك أي غرض من خلقه ويترك لحاله.

والثالث: أن يكون الغرض من خلقه اللعب واللهو.

والرابع: أن يكون سبباً لإضلال الآخرين وإغوائهم.

والخامس: أن يتحرك الإنسان نفسه في وداي الحيرة والضلالة، وعندما تنتفي جميع هذه الأمور الخمسة، نستنتج أنّ الإنسان خلق لغاية سامية وهدف مهم وليس ذلك سوى القرب من الله تعالى وتحصل الكمال الإنساني والفضائل النفسانيّة، ومن

---

١. «سدى» بمعنى الباطل وعدم الفائدة.

٢. «اعتسف» من مادة «اعتساف» بمعنى أداء العمل بدون فكر وهداية وإرادة، وتعني الانحراف عن الجادة أيضاً.

٣. «المتاهة» اسم مكان من مادة «تيه» بمعنى الحيرة والضلالة.

المعلوم أنّ خلق هذا العالم وكل ما فيه من النعم والمواهب الإلهيّة لو لم تكن له غاية سوى ذلك فإنّ هذا الخلق سيكون عبثياً ومخالفاً للحكمة، ولكن الله حكيم ولا تنسجم هذه الأغراض الباطلة والأمور التافهة مع حكمته سبحانه.

إنّ كلام الإمام عليه السلام هذا مقتبس في الحقيقة من آيات القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾[1].

وبديهي أنّ الله تعالى الذي خلق الخلق على مراحل عدّة وبكل هذه العجائب التي سخرها للإنسان في مظاهر الطبيعة كانت له غاية سامية وهدف كبير.

ويقول تعالى في مورد آخر: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام النقطة الثالثة فيما يتصل بكلامه السابق وكأنّه في مقابل الجواب عن إشكال مقدّر، حيث يقول: «وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ[3] الشُّجْعَانِ».

هذا المعنى الحاكم على الذهنية العامّة والذي يقرر وجود رابطة بين القوّة الجسمانيّة والأغذية الدسمة واللذيذة، يبعث على تصور أنّ الإنسان إذا اكتفى في طعامه بخبز الشعير وأمثاله فإنّه سيكون ضعيفاً ولا يقوى على شيء ولا يستطيع الصمود طويلاً في ميادين القتال والحرب.

هنا يتحرك الإمام عليه السلام من موقع الجواب عن هذا الإشكال ويضرب لذلك مثالين جميلين ويقول: «أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ[4] الْخَضِرَةَ أَرَقُّ

---

١. سورة القيامة، الآيات ٣٦ ـ ٣٩.

٢. سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

٣. «منازلة» بمعنى المقاتلة والحرب، من مادة «نزول» فالشخص المقاتل ينزل إلى الميدان في مقابل خصمه ويقاتله.

٤. «الرواتع» جمع «راتع» وهنا جاءت معنى الشجرة المزدهرة، من مادة «رتع» على وزن «نفع» بمعنى الأكل من المرتع.

جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ[١] أَقْوَى وَقُوداً[٢] وَأَبْطَأُ خُمُوداً[٣]».

فالأشجار «التي تقوم على ساق» والنباتات «من قبيل الحشائش والأزهار» لو كانت في الصحارى والبراري الجافة فإنّها ستزداد قوّة وصموداً، في حين أنّ الأشجار والنباتات التي تنمو على شواطيء الأنهار وتستقي من الماء بشكل دائم فإنّما ستكون ضعيفة ولا تقوى على الصمود، ومن هذه الجهة فالأشخاص الذين يعيشون الترف والنعم الوفيرة فإنّهم سيعيشون حالات الضعف وعدم القدرة على الصمود بوجه التحديات الصعبة، أمّا الأشخاص الذين يكبرون في خضم المشكلات والأزمات فإنّهم يملكون من القوّة والاستقامة الشيء الكثير.

ومن هذه الجهة نرى أنّ الجيوش المعاصرة تفرض تمارين شاقّة على أفرادها وجنودها لرفع مقدرتهم القتاليّة ومستوى صمودهم في الأجواء الصعبة، وإحدى الحِكم من صيام شهر رمضان المبارك أنّ روح الإنسان وجسمه يزدادن قوّة وقدرة على تحمل مشاكل الحياة وصعوباتها.

وطبعاً هذا لا يعني أنّ الإنسان لا يتناول الطعام والغذاء بشكل كافٍ ويعيش معيشة المرتاضين الذين يكتفون من طعامهم بحبّة واحدة، بل المراد أنّ الإنسان لا ينبغي أن يعيش معيشة الترف ويهتم باللذيذ المتنوع من الأطعمة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام وتأييداً لكلامه السابق: «وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ».

فقد كان النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش عيش الزهد والبساطة، ولكنه مع ذلك كان في غاية الشجاعة ولم يكن من هو أقرب إلىٰ العدو من النّبي في ساحات الوغى، وفي معركة أُحد التي فرّ فيها الآخرون صمد النّبي صلى الله عليه وآله، وأنا بدوري كنت تلميذاً لهذه المدرسة الإلهيّة وتابعاً لهذا النّبي العظيم صلى الله عليه وآله وذراعه اليمنى.

---

١. «العذية» تطلق على الأرض البعيدة عن الماء، ولا يرويه إلّا ماء المطر.

٢. «وقود» بمعنى الحطب.

٣. «خمود» أي انطفاء النار ثمّ أطلقت على كلّ شيء يهدأ ويسكن من نشاطه وفعاليته.

كما ورد هذا المعنى في الكلمات القصار في نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَىٰ الْعَدُوِّ مِنْهُ»[1].

والشاهد الناطق على هذا الكلام ما ورد في آية المباهلة حيث جعلت من الإمام علي عليه السلام نفس النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكذلك الأحاديث الشريفة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله طبقاً لما نقله «الكنجي الشافعي»: أنّ أحد الصحابة سأل من النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: فأيّهم (من الأصحاب) أحبّ إليك؟ فقال: علي بن أبي طالب، فقال: لِمَ؟ فقال: «لِأَنَّه خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ»، وينقل في هذا الكتاب عن المعجم عن الطبراني أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقَني وَعَلِيّاً مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ»[2].

أمّا قصّة إبلاغ سورة براءة عندما أرسل النّبي أبابكر لإبلاغها للمشركين في مكّة في موسم الحج، ثمّ استدعى النّبي أبابكر وأخذها منه وأعطاها للإمام علي عليه السلام، فإنّها معروفة في كتب التاريخ، فعندما عاد أبو بكر إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بأبي أنت وأُمّي: هل نزل فيَّ شيء؟ (فما سبب أخذك سورة براءة منّي) فقال النّبي صلى الله عليه وآله: لا: «وَلَكِن لَا يُبَلِّغْ عَنِّي غَيرِي أَوْ رَجُلٌ مِنِّي»[3].

وقد ورد هذا الحديث الشريف في مسند أحمد بن حنبل بصورة أبلغ وأوضح فقد قال النّبي صلى الله عليه وآله لأبي بكر: إنّ جبرائيل جاءني وقال: «لَن يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ»[4].

عبارة «كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ...» إشارة إلىٰ أنّ نور إيماني وقوّتي وقدرتي كلّها مستمدة ومقتبسة من نور إيمان النّبي وقوّته وقدرته، والتعبير بـ «وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ» إشارة إلىٰ أنّ العضد كلّما كان قوياً ومحكماً فإنّ الذراع أيضاً ستكون قوية بدورها.

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٩ من الكلمات الغريبة للإمام عليه السلام.

٢. كفاية الطالب، ص ٣١٥ وما بعده طبقاً لنقل شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ٧، ص ٤٦٨ و ٤٦٩.

٣. تذكرة الخواص، ص ٣٧.

٤. مسند أحمد، ج ١، ص ١٥١.

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام كلامه من موقع التأكيد على شجاعته: «وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا».

ولم يسمع بمثل هذا الكلام من أي شخص قبل ذلك، ومعلوم أنّ الإمام علي عليه السلام لا يتحدّث بذلك من موقع المبالغة بل إنّ ما يقوله هو عين الواقع، وقد أثبت هذه الحقيقة في ميادين الجهاد والقتال ضد قوى الشرك والباطل، فمن معركة بدر إلىٰ أُحد والخندق والغزوات الأخرىٰ كان علي بن أبي طالب عليه السلام هو الشخص الذي لم يدر ظهره للأعداء ولم يتردد أو يرتعب من كثرة الأعداء وتظافرهم عليه، إلىٰ درجة أنّه لقّب بكونه «كرّار غير فرّار». وقد ورد عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله هذا التعبير في قصّة فتح خيبر بعد أن توجه الآخرون لفتح قلاع خيبر ولم يفلحوا في ذلك، فقال النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ كَرَّارٌ غَيْرُ فَرَّارٍ لَا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»[1].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام وفي النقطة الرابعة والأخيرة من هذا المقطع من الرسالة يقول: «وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ[2]، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ[3] مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ[4]».

وجملة «أُطَهِّرَ الْأَرْضَ» إشارة جلية إلىٰ هذه الحقيقة، وهي أنّ وجود أمثال معاوية على سطح الأرض من شأنه تلويثها، وما لم يتمّ إزالة هذا التلوث عن الارض والحياة فإنّها لا تتطهر.

والتعبير بـ «الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ» إشارة إلىٰ أنّ أفكار معاوية مقلوبة، فهو يرى

---

١. بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٢٥٩؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٦.

٢. «المركوس» أي المنقلب، من مادة «ركس» على وزن «عكس» أي انقلاب الشيء ظهر على عقب، أو وضع الشيء برأسه على الأرض.

٣. «المدرة» قطعة الطين الجاف.

٤. «الحصيد» بمعنى النبات المحصود من مادة الحصاد.

الحق في نظره باطل والباطل في نظره حقّ.

وعبارة «الْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ» إشارة إلىٰ أنّ معاوية ليس فقط أفكاره مقلوبة بل إنّ سلوكياته وظاهره البشري يعيش الانتكاسة في سلوكياته وأعماله.

وأمّا عبارة «حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ» فهي إشارة إلىٰ أنّ الزراع عندما يحصدون زرعهم، فغالباً ما يختلط المحصول من الحبوب الجيدة مع بعض الأتربة والأحجار صغيرة، حيث يقوم الزراع بإخراج هذه الشوائب من بين الحبوب لينتفع بها الإنسان، وأنا بدوري ينبغي أن أُطهر المسلمين وفضاء المجتمع الإسلامي من هذه الشخصيّات التافهة والزائدة لتخليص الإسلام والمسلمين منهم.

وربّما يطرح البعض هذا السؤال: هل أنّ هذا الكلام للإمام عليه السلام ينسجم ويتناسب مع اقتدائه بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي بعث رحمة للعالمين؟

وفي مقام الجواب نقول: نعم، فإنّ الرحمة تكون لازمة في مواقعها والشدّة أو الغضب في موقعه، فمن الخطأ استخدام الرحمة إذا كان المورد يستدعي الشدّة والحزم، ومن الخطأ أيضاً التعامل بآليات العنف والشدّة إذا كان الموقع يستدعي الرحمة والشفقة، وسيرة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً شاهدة على هذا المعنى، ففي معركة أُحد كان النّبي صلى الله عليه وآله يدعو لهؤلاء المخالفين ويقول: «اللّهم إهدِ قَومِي فَإنّهُم لا يَعلَمُونَ»، ولكنّه في قصّة نقض يهود بني قريضة لعهودهم ومواثيقهم استخدم أُسلوب الشدّة والعنف.

وفي الحقيقة أنّ الإمام علي عليه السلام قد تعلم هذه الحقيقة الواضحة من القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، ويقول في مكان آخر: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[2].

80 03

١. سورة التوبة، الآية ٧٣.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٥٩. ويقول الفخر الرازي في تفسيره لسورة الحمد، ج ١، ص ٢٣٥: «لقد اشتهر أنّ النّبي صلى الله عليه وآله لمّا كسرت رباعيته قال: «اللّهم إهد قومي فإنّهم لا يعلمون».

## القسم الخامس

وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ، فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ! وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ. اعْزُبِي عَنِّي! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي.

## الشرح والتفسير

### أيّتها الدنيا ابتعدي عنّي!

القسم الأخير من هذه الرسالة (حيث قسمناها إلىٰ ثلاثة أقسام) هو ما يستهله السيّد الرضي؇ بالقول: «وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ».

فالإمام؈ في هذا المقطع من الرسالة، ومن أجل أن لا يسقط مخاطبه عثمان بن حنيف وجميع مخاطبيه على إمتداد التاريخ البشري، في مصائد النوازع النفسانيّة والمقامات الدنيويّة أو يتورط في اتّباع الملذات الرخيصة، يقول له الإمام؈ بتعبير

في غاية الروعة والبلاغة والجمال الأدبي: «إِلَيْكِ عَنِّي[1] يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ[2] قَدِ انْسَلَلْتُ[3] مِنْ مَخَالِبِكِ[4]، وَأَفْلَتُّ[5] مِنْ حَبَائِلِكِ[6]، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ[7]».

ونرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصيرة يشبّه الدنيا بأربعة أشياء، الأوّل: أنّ الدنيا تشبه الناقة التي ربّما تكون جذابة وحلوبة، ولكنّ صاحبها عندما يريد تركها لترعى في المرتع فإنّه يضع لجامها على ظهرها أو رقبتها، فترى هذه الناقة نفسها أنّها صارت حرّة من صاحبها فتبتعد عنه وتنشغل بالرعي في المرتع.

وفي التشبيه الثاني، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالسبُع الذي يروم صيد الفريسة بمخالبه القوية والخطيرة ويمزقها، ويقول الإمام عليه السلام: وأنا قد أفلتّ نفسي من مخالب هذا الحيوان المفترس فلا يصل إليّ بعد ذلك.

وفي التشبيه الثالث، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالصياد الذي نشر حبائله وشراكه لصيد الحيوانات أو الطيور، فيقول الإمام: لقد عرفت جيداً هذه المصائد والشراك وتخلصت منها فلا أقع فيها أبداً.

وفي التشبيه الرابع، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالمنزلق الخطير والوادي السحيق الذي يحتوي على مزالق كثيرة، منها: الشهوات، المال والمقام، الزوجة والأبناء، والعناوين البراقة والماديات المغرية، فيقول الإمام عليه السلام: لقد ابتعدت عن هذه المزالق جميعاً، ومن هذه الجهة فإنني لا أسقط في حبالها ولا في مخالبها ولا في منزلقاتها.

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام خطابه للدنيا ويقول: «أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ

---

١. «إليك عنّي» جملة تتشكل كلّ واحد منهما ظاهراً من جار ومجرور، في حين أنّ «إليك» اسم فعل بمعنى «أبعد». ويحتمل أن تكون جملة لفعل مقدّر وهو «ارجع» و«أبعد»، يعني «أرجع إليك وأبعد عنّي».

٢. «غارب» بمعنى المحل الذي يقع على ظهر ورقبة الناقة، ويأتي بمعنى الرقبة وآخر نقطة من الظهر.

٣. «انسللت» من مادة «سلّ» على وزن «حلّ» بمعنى سحب واخراجه بهدوء.

٤. «مخالب» جمع «مخلب» على وزن «منبر» تطلق على أظافر الطيور والوحوش.

٥. «أفلتّ» من مادة «فلت» على وزن «برف» بمعنى الخلاص والتحرر.

٦. «حبائل» جمع «حبالة» بمعنى المصيدة والشرك.

٧. «مداحض» جمع «مدحض» على وزن «مركز» بمعنى منزلق.

بِمَدَاعِبِكِ[١]! أَيْنَ الأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ[٢] الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ[٣] اللُّحُودِ[٤]!».

وهذا الكلام مقتبس من العديد من الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن الأقوام السابقة، الذين كانوا يملكون القدرة والجاه والثروة والإمكانات المادية الوفيرة. ولكنّهم جميعاً تورطوا في العذاب الإلهي بسبب عصيانهم وتمردهم على الحقّ والرسالة، وباتوا مدفونين تحت التراب بحيث لا يسمع لهم أدنى صوت ولا يملكون أدنى حركة. ونقرأ في الآية ٩٦ من سورة مريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾.

ونقرأ في الآية ١٢٨ من سورة طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾.

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الأجبالُ تَحرُسهُم ... غُلبُ الرّجالِ فَما أغنتهُمُ القُللُ
واستُنزِلُوا بَعدَ عِزٍّ عَنْ مَعاقِلِهِم ... فاودعُوا حُفراً يا بِئسَ ما نَزلُوا
ناداهُمُ صارخٌ مِنْ بَعدِما قُبروا ... أيـن الأسرةُ والتيجانُ والحُللُ
أيـن الوجُوهِ الّتي كانتْ مُنعمَةً ... مِن دُونها تُضربُ الأستارُ والكلل
فأفصحَ القبرُ عَنهم حينَ ساءلَهم ... تِلكَ الوجُوه عَليها الدودُ يقتتلُ
قَد طالَ ما أكلُوا دهراً وما شَرِبُوا ... وأصبحُوا بَعدَ طولِ الأكلِ قَد أُكلُوا
وَطالَما عَمروا دوراً لتحصنُّهُم ... ففارقُوا الدّورَ والأهلِينَ وانتقلوا
وَطالَما كَنزوا الأموالَ وادخروا ... فَخلّفوها علىٰ الأعداءِ وارتحلُوا
أضحتْ منازِلُهم قفراً معطلةً ... وساكِنُوها إلىٰ الأجداثِ قَد رَحلُوا[٥]

١. «مداعب» جمع «مدعبة» على وزن «مكتبة» بمعنى المزاح والمداعبة.

٢. «رهائن» جمع «رهينة».

٣. «مضامين» جمع «مضمون» في الأصل تعني الجنين في باطن أمّه، ثمّ اطلقت على كلّ شيء في مطاوي شيء آخر.

٤. «اللحود» جمع «لحد» على وزن «مهد» ويعني الشق الذي يقع في أسفل القبر ويوضع الميت فيه.

٥. الأنوار البهية، ص ٢٤٤.

وينقل المرحوم العلّامة التستري قصّة تتضمّن دروساً وعبرة عن الأمالي للشيخ الصدوق وخلاصتها: «انطلق ذو القرنين يسير في البلاد حتى مرّ بشيخ يقلّب جماجم الموتى، فوقف عليه بجنوده، فقال له: أخبرني أيّها الشيخ لأي شيء تقلّب هذه الجماجم، قال: لأعرف الشريف من الوضيع، والغني من الفقير فما عرفت، وإنّي لأ قلبها منذ عشرين سنة، فانطلق ذوالقرنين وتركه، وقال: ما عنيت بهذا أحداً غيري»[1].

ثمّ يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بعبارات حكيمة ومثيرة ويقول: «وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي[2]، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ[3] وَلَا صَدَرَ[4]».

وبديهي أنّ الدنيا، بمعنى المواهب المادية والظواهر الطبيعية لا تملك قلباً ولا فكراً ولا إرادة واختياراً، بل مجرّد وسائل وآليات يستخدمها الإنسان لنيل السعادة في حركة الحياة، أو يغرق في مستنقع الشقاء والعناء فيما لو سار في خط الرذيلة وقصر اهتمامه ونظره بها، أضف إلىٰ ذلك أنّ الدنيا بهذا المعنى ليست شيئاً يمكن إجراء الحدّ الإلهي عليها، ولكن الغاية التي يتوخاها الإمام عليه السلام من هذا الكلام هي الكناية اللطيفة والتشبيه الظريف لإيقاظ عقول المغرورين بها وتنبيه الغافلين عن الحقائق الغيبية ليتحركوا على مستوى تصحيح مسيرتهم والعودة إلىٰ عقولهم وفطرتهم والاعتبار من تاريخ الأُمم السابقة وإصلاح مستقبلهم بالاقتباس من دروس التاريخ.

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم الذي يذكر هذا المعنى بشكل آخر، فالآيات القرآنيّة تخاطب جميع أفراد البشر وتدعوهم لدراسة تاريخ الأقوام السالفة الذين تورطوا في دوامة البلايا والعذاب بسبب غفلتهم وغرورهم وكان

---

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٦، ص ٣٩٠؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٥.

٢. «المهاوي» جمع «مهوى» و «مهواة» يعني الوادي ويطلق على كلّ مكان خطر يتعرض فيه الإنسان للهلكة.

٣. «ورد» تعني في الأصل الوصول إلى حافة النهر، ثمّ أطلقت على كلّ وصول أو دخول.

٤. «صدر» ضد «ورد» يعني الخروج من الشاطيء ثمّ أطلقت على كلّ أنواع من الخروج.

مصيرهم الهلاك وقد دفنوا هم وثرواتهم تحت الأنقاض، فنقرأ في الآيات القرآنيّة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

ويقول تعالى في مورد آخر: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[2].

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه بطرح تشبيهات أخرى لحال الأشخاص الذين خدعوا بالدنيا والأشخاص الذين تخلصوا من شراكها وأفلتوا من حبالها، ويقول: «هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ[3] زَلِقَ[4]، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ[5] غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ[6] عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ[7]، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ».

في هذا المقطع الكلام النوراني للإمام عليه السلام يشبّه المواهب المادية في الدنيا بثلاثة أمور، بداية يتحدّث عن المزالق التي تواجه الإنسان في كلّ زمان واحتمال سقوطه في هذه المزالق، وهي المقامات الدنيويّة والثروات المادية والشهوات النفسانيّة، فلو أنّ الإنسان غفل قليلاً عن هذه الأمور فإنّه سيتلوث بالحرام ويقع أسيراً في شراك الأهواء والنوازع النفسانيّة.

والآخر، أنّ الإمام عليه السلام يشبّه الدنيا بالبحر المواج الذي يصعب جدّاً عبوره بسلام، والكثير من الأحايين تكون أمواج الأهواء والشهوات إلىٰ درجة من الشدّة والتلاطم بحيث إنّها تبتلع الإنسان وتغرقه في دوامتها.

---

١. سورة يوسف، الآية ١١١.

٢. سورة الدخان، الآيات ٢٥ ـ ٢٩.

٣. «دحض» بمعني منزلق.

٤. «زلق» من مادة «زلق» على وزن «دلق» بمعنى التزحلق.

٥. «لجج» جمع «لجة» على وزن «حجة» بمعنى القسم العظيم المتلاطم من البحر.

٦. «ازور» من مادة «ازورار» بمعنى الجنوح والانحراف من شيء، وهو من مادة «الزيارة».

٧. «مناخ» في الأصل بمعنى المحل الذي يبرك فيه الإبل، ثم أطلقت على كلّ محل للإستقرار.

والتشبيه الثالث يشبّه الإمام عليه السلام زخارف الدنيا وبريقها الخداع بالمصائد والفخاخ، بحيث إنّ الإنسان إذا استطاع اجتناب هذا البريق الخداع فإنّه سيوفق لنيل السعادة ومرتبة القرب الإلهي، وخلاصه منها بذاته يشكل له أكبر افتخار وانتصار في حركة الحياة مهما واجه في ذلك من صعوبات وتحديات.

ثمّ يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا باليوم الذي يوشك على الانتهاء وأنّ الشمس توشك على الغروب لسرعة انتهائها وزوالها، كما يقول الشاعر:

حُكْمُ المنِيَّةِ فِي البَرِيَّةِ جارِي ... ما هذِهِ الدُّنيا بِدارِ قَرارِ
بَينا يَرىٰ الإنسانُ فِيها مُخبراً ... حتّىٰ يُرىٰ خَبَراً مِنَ الأَخبارِ
طُبِعَتْ عَلىٰ كَدرٍ وَأَنتَ تُرِيدُها ... صَفواً مِنَ الأقدارِ والأكدارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيّامَ ضِدَّ طِباعِها ... مَتَطَلِّبٌ فِي الماءِ جَذوةَ نارِ
وَإِذا رَجَوتَ المُستَحِيلَ فَإِنّما ... تَبنِي الرَّجاءَ عَلىٰ شَفيرٍ هارٍ
فَالعيشُ نَومٌ وَالمنِيَّةُ يَقظَةٌ ... وَالمرءُ بَينهما خيالٌ سارٍ
فَاقضوا مَآرِبَكُم عِجالاً إنّما ... أَعمارُكُم سَفراً مِنَ الأَسفارِ

ونقرأ في حديث رواه المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اصْبِرُوا عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَتَصَبَّرُوا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنَّمَا الدُّنْيَا سَاعَةٌ فَمَا مَضَى فَلَيْسَ تَجِدُ لَهُ سُرُوراً وَلَا حُزْناً وَمَا لَمْ يَأْتِ فَلَيْسَ تَعْرِفُهُ فَاصْبِرْ عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا فَكَأَنَّكَ قَدِ اغْتَبَطْتَ»[1].

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا ويقول: «اغْرُبِي[2] عَنِّي! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلَا أَسْلَسُ[3] لَكِ فَتَقُودِينِي».

ولحدّ الآن لم يرد في الكتب والمدونات والخطب أنّ شخصاً خاطب الدنيا بمثل

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٤٥٩، ح ٢١.

٢. «اعزُبي» أي ابتعدي عنّي من مادة «عزوب» على وزن «غروب» بمعنى الابتعاد عن الشيء، ويطلق على من لم يتزوج أعزب لأنّه بعيد عن الحياة العائلية.

٣. «أسلس» من مادة «سلاسة» بمعنى المطيع وتأتي أحياناً بمعنى السهل والميسور.

هذا الخطاب واستدعاها إلىٰ محاكمتها بهذه القوّة والحزم وبالتالي أثبت إدانتها وزيفها وتخلص من شراكها ومصائدها.

أجل، فالشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يحاكم الدنيا بهذه الطريقة ويخاطبها بهذا الخطاب الشديد القاطع هو الذي استطاع إنقاذ نفسه من براثنها، وضرب على صدرها بيد الإعراض والطرد مع انفتاح جميع الطرق أمامه لتحصيل المآرب الدنيويّة، ولكنّه لم يستسلم لها ولجواذبها بأية صورة.

وهذا لكلام يتضمّن جواباً حاسماً على من يقول إنّ الدنيا قد أجبرتنا على التصرف على سلوك طريق الشر والرذيلة، فالإمام عليه السلام يقول: مادام الإنسان ملتزماً بمقتضيات الإيمان والقيم ولم يستسلم للدنيا من موقع الإذعان والخضوع فإنّها لا تستطيع إذلاله وإجباره على إرتكاب الخطيئة، فصحيح أنّ الدنيا بكلّ ما فيها من الجواذب والزخارف تستهوي الإنسان وتدعوه لمواقعتها، ولكنّها لا تجبر أحداً أبداً على اتباعها والتسليم لمطالبها، كما يتحدّث القرآن الكريم عن الشيطان ويقول: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[١].

## تأمّل

### طلاق الدنيا

ما يبيّنه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة في صدد محاكمته للدنيا وأنّها لو كانت شخصاً مرئياً وقالباً حسياً لأجرى حدود الله تعالى عليها بسبب خداعها وإغوائها للكثير من الناس، يدعونا لتذكر حديث شريف آخر للإمام علي عليه السلام يشير فيها إلىٰ أنّه في عالم المكاشفة رأي الدنيا وقال: «إنّي كنت بفدك في بعض حيطانها، وقد صارت لفاطمة عليها السلام قال: فإذا أنا بامرأة قد قحمت عليّ بجمالها فشبهتها ببثينة

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

بنت عامر الجحمي وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: ياابن أبي طالب هل لك أن تتزوّج بي فأُغنيك عن هذه المسحاة، وأدلّك على خزائن الأرض، فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقلت لها: من أنتِ حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا، قال فقلت لها، فارجعي وأطلبي زوجاً غيري وأقبلت على مسحاتي وأنشأت:

«لَقَدْ خَابَ مَنْ غَرَّتْهُ دُنْيَا دَنِيَّةٌ ... وَمَا هِيَ إِنْ غَرَّتْ قُرُوناً بِنَائِلِ
أَتَتْنَا عَلَى زِيِّ الْعَزِيزِ بُثَيْنَةَ ... وَزِينَتُهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ
فَقُلْتُ لَهَا غُرِّي سِوَايَ فَإِنَّنِي ... عَزُوفٌ عَنِ الدُّنْيَا وَلَسْتُ بِجَاهِلِ
وَمَا أَنَا وَالدُّنْيَا فَإِنَّ مُحَمَّداً ... أَحَلَّ صَرِيعاً بَيْنَ تِلْكَ الْجَنَادِلِ
وَهَبْهَا أَتَتْنِي بِالْكُنُوزِ وَدُرِّهَا ... وَأَمْوَالِ قَارُونَ وَمُلْكِ الْقَبَائِلِ
أَلَيْسَ جَمِيعاً لِلْفَنَاءِ مَصِيرُهَا ... وَيَطْلُبُ مِنْ خُزَّانِهَا بِالطَّوَائِلِ
فَغُرِّي سِوَايَ إِنَّنِي غَيْرُ رَاغِبٍ ... بِمَا فِيكِ مِنْ مُلْكٍ وَعِزٍّ وَنَائِلِ
فَقَدْ قَنِعَتْ نَفْسِي بِمَا قَدْ رُزِقْتُهُ ... فَشَأْنَكِ يَا دُنْيَا وَأَهْلَ الْغَوَائِلِ
فَإِنِّي أَخَافُ اللهَ يَوْمَ لِقَائِهِ ... وَأَخْشَى عَذَاباً دَائِماً غَيْرَ زَائِلِ[1]

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٦٣.

## القسم السادس

وَايْمُ اللهِ ـ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ـ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ!

## الشرح والتفسير

### هل الغرض الأكل والنوم فقط؟

يواصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته المباركة، كلامه فيما تقدّم عن عدم اهتمامه بالدنيا وزخارفها ويقول:

«وَايْمُ اللهِ [1] ـ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ـ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً [2] تَهِشُّ [3] مَعَهَا إِلَىٰ الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً [4]، وَلَأَدَعَنَّ

---

١. «أيم الله» بمعنى «أقسم بالله»، وقيل إنّها في الأصل من «أيمن» جمع يمين بمعنى القسم، وألفه ألف وصل، وتقرأ أحياناً بالفتح وأخرى الكسر، ثمّ حذفت النون منها وصارت «أيم الله»، وأحياناً تحذف الياء أيضاً ويقال: «أمُ الله» وعلى أيّة حال نظراً لأنّ هذه العبارة جمع، فإنّها تدلّ على القسم المؤكّد.

٢. «رياضة» في الأصل بمعنى ترويض وتطويع النفس أو البدن وتربيته، ومن هذه الجهة يقال للرياضات الجسمانيّة والنفسانيّة بأشكالها المختلفة «رياضة» ويقال للبستان روضة من جهة أنّ الإنسان يهتم بتنظيمها وترتيبها وفق برنامج مدروس لتكون مزدهرة وخضراء.

٣. «تهش» من مادة «هشاشة» على وزن «حوالة» بمعنى الفرح التبسم.

٤. «مأدوماً» من مادة «إدام» بمعنى المرق (الشي الذي يأكل مع الخبز) وعليه فإنّ «مأدوم» الشيء الذي يؤكل على شكل مغمس بالمرق.

مُقْلَتِي[١] كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ[٢] مَعِينُهَا[٣]، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا».

في المرحلة الأُولى يقسم الإمام عليه السلام ليبيّن جديّة هذا الأمر وللتأكيد على أهميّته وفي المرحلة الثانية، يقول إن شاء مراعاة للأدب مع الله تعالى كما أمر القرآن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الأمر، تقول الآية الشريفة: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً * إِلّاَ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[٤].

وفي المرحلة الثالثة: يتحدّث الإمام عليه السلام عن عزمه الراسخ على ترويض نفسه رياضة شديدة وقاسية، وهذا يحكي عن قوّة إرادة الإمام وسلطته العجيبة على نفسه، فما أشق الرياضة التي يفرضها الإنسان على نفسه بحيث تتحمل الجوع الشديد، وبالتالي تفرح فرحاً شديد إذا قدّم لها يوماً قرصاً من الخبز وقليلاً من الملح.

وفي المرحلة الرابعة: يخبرنا الإمام عليه السلام عمّا يعيشه من عشق لله تعالى وخوف عميق من الذات المقدّسة بحيث إنّه يتواصل في البكاء إلىٰ أن لا تنضب عينه من الدموع «وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»، ومعلوم أنّ مثل هذه الحالة لا تتوفر عند أي شخص إلّا النوادر، والإمام عليه السلام نفسه يشير إلىٰ هذه الحقيقة في مقطع آخر من هذه الرسالة، بأنّكم لا تستطيعون أن تفرضوا على أنفسكم مثل هذه الرياضات الشاقة ولكن أعينوني بالورع والتقوى والصلاح في حركة الحياة.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا كلّ هذا البكاء الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في كلامه؟ قطعاً إنّ هذا البكاء هو بكاء الشوق من جهة، وبكاء الخوف من جهة أخرى، الشوق إلىٰ العالم الأعلى والملكوت والقرب من الله تعالى والعشق لصفات الكمال والجمال الإلهي، والخوف من حرمان هذه لنعم والمواهب الإلهيّة.

---

١. «مقلة» يطلق على كرة العين بأجمعها، وأحياناً يراد منها سواد العين فقط.

٢. «نضب» من مادة «نضوب» في الأصل بمعنى ذهاب الماء في الأرض وجفاف البئر أو الغدير، وهذه المفردة تستعمل أحياناً في مورد العين أيضاً عندما يجف دمعها.

٣. «معين» من مادة «معن» على وزن «طعن» بمعنى جريات الماء و«ماء معين» يراد منها الماء الجاري، ثمّ استخدمت في جريان الدموع من العيون.

٤. سورة الكهف، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

إنّ رجال الله يعيشون دوماً بين حالات الخوف والرجاء، وبالتالي يدفعهم ذلك إلىٰ البكاء شوقاً وخوفاً، فكيف بالإمام علي عليه السلام وهو إمام العارفين ومقتدى السالكين في طريق الحقّ والمعنويّة؟

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستعرض في العبارات التالية جملة من التشبيهات الأخرىٰ ويقول: «أَ تَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ[1] مِنْ رِعْيِهَا[2] فَتَبْرُكَ[3]؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ[4] مِنْ عُشْبِهَا[5] فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ[6]! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ[7]، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ[8]!».

وبالرغم من أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتحدّث عنه نفسه، ولكن كلامه في الواقع درس لأبناء الدنيا الذين لا همّ لهم في الحياة سوى التمتع بالملذات الرخيصة، فهم يشبهون الأغنام والدواب التي لا تهتم إلّا للأكل والعلف والنوم والراحة، فما أقبح بالإنسان أن يهبط من أوج عظمة الإنسانيّة ويدرج نفسه مع الحيوانات وينزل بمستواه إلىٰ مصاف الدواب السائمة في المراتع، وكما يقول الشاعر:

أتَعمى عَنِ الدُّنيا وَأنتَ بَصيرُ … وَتَجهلُ ما فِيها وَأنتَ خَبيرُ
وتُصبِحُ تبنِيها كَأنَّكَ خَالِدُ … وَأنتَ غَداً عَمّا بَنيتَ تَسيرُ
وَترفَعُ فِي الدُّنيا بناءَ مُفاخِرٍ … وَمَثواكَ بيتٌ فِي القُبُورِ صَغيرُ
وَدُونَكَ فاصنَعْ كُلّما أنتَ صانِعُ … فَإنَّ بُيُوتَ المَيتِينَ قُبُورُ[9]

---

١. «السائمة» الحيوان الذي يترك ليرعى في الصحراء، من مادة «سوم» على وزن «قوم».

٢. «رعيها» تعني العلف الذي يأكله الحيوان أثنا الرعي، من مادة «رعى» على وزن «وحى».

٣. «تبرك» من مادة «بُروك» بمعنى الاستقرار والهدوء على الأرض.

٤. «الربيضة» قطيع الغنم وأمثال ذلك عندما يعود مع الراعي إلى محل استقراره أي الحضيرة. من مادة «ربض» و«ربوض» على وزن «قبض» و«قبوض» أي جمع الحيوان ليده ورجله للجلوس على الأرض.

٥. «عشب» النباتات الرطبة في مقابل الحشيش وهو النباتات الجافة.

٦. «يهجع» من مادة «هجوع» على وزن «ركوع» بمعنى النوم الخفيف.

٧. «الهاملة» الحيوان المتروك من مادة «همل» على وزن «حمل» بمعنى ترك الحيوان بدون راعي.

٨. «المرعية» اسم مفعول من مادة «رعى» على وزن «سعى» وهو الحيوان الذي يساق للمرعى.

٩. مجاني الأدب، ج ٢، ص ٣٧.

## تأمّل

### الرياضة المشروعة وغير المشروعة

إنّ مسألة رياضة النفس ومنذ القديم تقسّم إلىٰ قسمين: رياضة البدن، ورياضة النفس، أمّا رياضة البدن فتتمثّل في أنواع الألعاب الرياضية التي تمتد في التاريخ البشري ولها سابقة تاريخيّة طويلة، وحتى المسابقات العالمية الحالية مقتبسة من عصر اليونان القديم ومناطق أُخرى من العالم، وأمّا رياضة النفس والتي تتحقق عن طريق ترك المشتهيات النفسانيّة وتؤدّي إلىٰ تقوية روح الإنسان وإرادته وتمتد كذلك في التاريخ، فهي المعروفة عن المرتاضين الهنود، وحقيقة هذه الرياضية هي أنّ الإنسان بتركه وإعراضه عن رغباته النفسانيّة وعدم استسلامه لجواذب الشهوة بإمكانه أن يحصل على قوّة عظيمة بحيث أحياناً يستطيع انجاز أعمال خارقة للعادة.

وطبعاً الرياضيات النفسانيّة بدورها تنشعب في هدفها والغرض منها إلى: أهداف مادية، وأخرى معنويّة، أمّا الأهداف المادية فتتمثّل بالقدرة على الإتيان بأعمال خارقة للعادة والتوصل من خلالها إلىٰ بعض المنافع الدنيويّة وتحصيل الجاه والمقام، وأمّا الهدف المعنوي فهو القرب من الله تعالى وتطهير الروح من الرذائل الأخلاقيّة وتحكيم إرادة الإنسان على شهواته وضبط رغباته وترك ما تدعوه إليه نفسه من الرذائل والمنكرات.

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام في هذه الرسالة ناظر إلىٰ القسم الثاني من الرياضية المعنويّة في قوله: «إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ»، وقوله: «لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَىٰ الْقُرْصِ».

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في ذيل الخطبة ٢٢٠ (الخطبة ٢١٤ في شرح ابن أبي الحديد) بحثاً مفصلاً في موضوع رياضة النفس وأقسامها وتحدّث في تأثير الجوع في صفاء النفس ونقائها، ثمّ نقل كلمات الفلاسفة والحكماء في المكاشفات التي تحصل للإنسان من رياضة النفس، وضمن كلامه

بالاستشهاد بأبيات من أشعار الشعراء في هذه المجال.

ونقرأ في الأحاديث الشريفة عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام الإشارة إلىٰ هذه المسألة ومن ذلك ما ورد في «غرر الحكم» عن الإمام علي عليه السلام: «مَنْ استَدامَ رَياضَةِ نَفْسِهِ إنْتَفَعَ»[١].

وفي حديث آخر في هذا الكتاب قوله: «الشَّرِيعَةُ رِياضَةُ النَّفْسِ»[٢].

وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خبر عن وصايا الخضر النّبي لموسى عليه السلام أنّه قال: «رِضْ نَفْسَكَ عَلىٰ الصَّبرِ تَخْلَص مِنَ الإثم»[٣].

ونقرأ في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «جَوّعُوا بُطُونَكُم وَأظمِئُوا أكبَادَكُم وَأعْرُوا أجْسَادَكُم وَطَهِّرُوا قُلوبَكُم عَسَاكُم أنْ تُجاوزُوا المَلأ الأعلىٰ»[٤].

ولكن أحياناً يسلك بعض الناس في رياضة النفس طريق الإفراط والانحراف، فيقومون برياضات شاقة جدّاً وأحياناً خطيرة وغير مشروعة، وقد ذكر الغزالي في «إحياء العلوم» نماذج منها ويوجد الكثير منها مذكور في الكتب الصوفية.

ومن ذلك أنّ «الشبلي» كان له سرداب ينزل إليه ومعه مجموعة من العصي وكلّما غفل قلبه عن الذكر يضرب نفسه بهذه العصي حتى تتكسر، وأحياناً عندما تنكسر جميع العصي يربط يديه ورجليه بالجدار ويعلقها بالمسامير[٥].

وذكروا في حالات «الشيخ أبو سعيد» الصوفي المعروف، أنّه لما كان شاباً كان ينهض من فراشه بهدوء بعد ما ينام أهل بيته ويتوجه إلىٰ المسجد، وكانت هناك بئر في زاوية المسجد، فيشد عصاً بحبل من وسطها ويشدّ قدمه بالطرف الآخر من الحبل، ثمّ يضع العصا على حافة البئر وينزل إلىٰ البئر ويبقى إلىٰ الصباح معلقاً من

---

١. غرر الحكم، ح ٤٨٠٩.
٢. المصدر السابق، ح ٤٧٩١.
٣. كنز العمال، ح ٤٤١٧٦.
٤. ميزان الحكمة، ح ٧٥٤١.
٥. تذكرة الأولياء، ج ١، ص ٢٣٥.

قدمه في البئر ويقرأ القرآن[1].

وحكي عن حالات «أبي بكر الشبلي»: كان في بداية أمره مشغولاً بالرياضة في سنوات مديدة وكان يضع الملح في عينه لئلا ينام[2]، وهناك الكثير من هذا القبيل من الأعمال لدى المتصوفة.

ومثل هذه الرياضات الخطيرة تعتبر من النقاط السلبية والسلوكيات غير المشروعة في نظر الإسلام ويجب الاجتناب عنها تماماً. ويشاهد في حالات المرتاضين الهنود وبعض الصوفية مثل هذه الرياضات غير المشروعة التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام، ولكن أفضل رياضة تتمثّل في اجتناب أي شكل من الأشكال المعاصي والذنوب ومن ثمّة ترك بعض المشتهيات النفسانيّة من المباحات، وقد ورد هذا المعنى في سيرة النّبي الأكرمﷺ وأئمّة الهدى عليهم السلام وأصحابهم، فكانوا أحياناً يلبسون الخشن من الثياب ويقنعون بالأطعمة البسيطة جدّاً، وينهضون للصلاة والعبادة في ساعات الليل، ومثل هذه الرياضيات تزيد من نورانيّتهم وتعمق من معنويتهم.

وقد ورد في الخطبة ٢٠٩ في نهج البلاغة (الجزء الثامن من هذا الكتاب) قصّة إفراط وتفريط أخوين هما (علاء بن زياد وعاصم بن زياد) حيث كان أحدهما يعيش حياة مرفهة وناعمة والآخر قد ترك العمل والكسب تماماً وانشغل بالعبادة في زاوية البيت، وقد نهاهما الإمام عليه السلام عن كلا هذين المسلكين، ولمزيد من التوضيح انظر الجزء الثامن، من هذا الكتاب ذيل الخطبة ٢٠٩.

وخلاصة الكلام أنّ مسألة الرياضة الشرعية وردت في نهج البلاغة وكذلك وردت في الكثير من الروايات الشريفة عن النّبي الأكرمﷺ وأهل البيت عليهم السلام، ولا شك في ترتب الآثار الإيجابيّة من هذه الرياضة المشروعة على روح الإنسان فيما يتصل بزيادة نورانيّته معنويّته، ولكن ذلك لا يعني أنّ مثل هذه الرياضيات محبذة

---

١. «تاريخ تصوف» للدكتور الغني، ص ٣٦١، بالفارسية.

٢. تذكرة الأولياء، ج ٢، ص ١٦٤.

للجميع، ومن هذه الجهة ورد في العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الاذن في تناول الطيبات والانتفاع من النعم الحلال وشكر الله تعالى على ما وهبه للإنسان من هذه النعم والملذات: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

---

١. سورة المؤمنون، الآية ٥١.

## القسم السابع

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ﴿أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فَاتَّقِ اللهَ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ.

## الشرح والتفسير

### أيّها الوالي! إحذر المشاركة في مثل هذه الضيافة!

في المقطع السابع والأخير من هذه الرسالة يتحدّث الإمام عليه السلام في توصيف بليغ عن حياة الإنسان الكامل، وبتعبير آخر: أفراد حزب الله، ويذكر لهم ثلاثة أعمال وأربع صفات، يقول: «طُوبَى [1] لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَىٰ رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ [2] بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا [3] وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا [4]، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى [5] عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا

1. «طوبى» مؤنث «أطيب» ولها معنىً واسع وتشمل أطهر وأفضل الخيرات والطيبات، وفي مثل هذه الموارد تشبه الدعاء للآخرين.
2. «عركت» من مادة «عرك» على وزن «أرك» في الأصل تعني التمرغ ثمّ أطلقت على كلّ ما يؤثر على كلّ شيء وينتهي لفنائه وزواله.
3. «بؤس» يعني كلّ أشكال الانزعاج والمساءة وهي في مقابل النعمة والراحة.
4. «غمض» من مادة «غموض» بمعنى غض النظر عن الشيء وعدم رؤيته، ثمّ أطلقت على حالة النوم، لأنّ الإنسان يغمض عينه فيه، وفي الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنى.
5. «كرى» يعني النوم.

وَتَوَسَّدَتْ[1] كَفَّهَا».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الأشخاص المحبوبين عند الله تعالى هم الذين يتحركون في سلوكهم اليومي من موقع أداء الفرائض الدينيّة والتكاليف الفردية والاجتماعيّة، وفي ساعات الليل يخلون مع ربّهم ويطرقون باب رحمته ويبتهلون إليه بالدعاء والمناجاة، وعندما يغلبهم النوم يقنعون باستراحة مختصرة، لا علىٰ الفرش الوفيرة والغالية والوسادات الناعمة بل يضطجعون على الأرض ويضعون يدهم تحت رؤوسهم كوسادة.

وهذه إشارة إلىٰ أنّ العابد ليس هو الشخص الذي يقضي ليله ونهاره بالعبادة وهو قابع في زاوية البيت، بل العابد هو الشخص الذي يؤدّي فرائضه الفردية والاجتماعيّة في النهار، ويتجه في الليل إلىٰ الله تعالى ويقوم بفروض الصلاة والعبادة، وقد ورد في حديث عن الإمام زين العابدينعليه السلام وأنّه قال: «مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ»[2].

وبهذا المضمون وبشكل أشمل ورد في الحديث الشريفة عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله أنّه قال: «يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ مَنْ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ مَنْ أَتَى اللهَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ وَمَنْ وَرِعَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ وَمَنْ قَنِعَ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ فَهُوَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ»[3].

وجملة «افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا» إشارة إلىٰ غاية القناعة لدى هؤلاء بحيث إنّهم لا يطمعون في فرش مريحة ونوم هنيء، أضف إلىٰ ذلك أنّ مثل هذه الفرش ربّما تعيق الإنسان عن النهوض في أوقات السحر للعبادة والابتهال لله تعالى.

ثمّ يواصل الإمامعليه السلام كلامه في وصف حالات هؤلاء الأخيار ويقول: إنّ هؤلاء

---

١. «توسّد» من مادة «وسادة» بمعنى المتكأ والمخدة.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٨٤، ح ٧.

٣. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٥٨، ح ٥٧٦٢.

الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع يعيشون خوف المعاد: «فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ[١] عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ[٢] عَنْ مَضَاجِعِهِمْ[٣] جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ[٤] بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ[٥] بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ».

فمثل هذا الخوف من الحساب والقيامة أسهر عيونهم ومنع أبدانهم من الإخلاد إلى النوم وجعل شفاههم تتمتم بذكر ربّهم وأنّهم لكثرة استغفارهم تقشعت وتساقطت ذنوبهم: «وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ»، وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من القرآن الكريم كما ورد في صفات المؤمنين الحقيقيين قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٦].

وفي مورد آخر يقول تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٧].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مستفيداً من الآية الشريفة من القرآن الكريم في وصف هؤلاء المتقين بصفة «حزب الله»: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٨].

وأخيراً يختم الإمام عليه السلام رسالته المنيرة والمثمرة بهذه الجمل يخاطب بها عثمان بن حنيف وجميع السائرين في خط الفضيلة والطالبين للسعادة ويقول: «فَاتَّقِ اللهَ يَاابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ[٩] أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ».

---

١. «أسهر» من مادة «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظة.

٢. «تجافت» من مادة «تجافي» بمعنى التنحي والابتعاد ومادته الأصليّة «جفاء» بمعنى أبعاد الشيء.

٣. «مضاجع» جمع «مضجع» بمعنى محل النوم.

٤. «همهمت» من مادة «همهمة» بمعنى الكلام بصورة همس.

٥. «تقشّعت» من مادة «تقشّع» على وزن «توقع» ويعني التلف والتفرق من مادة «قشع» على وزن «مشق» بمعنى الرفع والدفع.

٦. سورة السجدة، الآية ١٦.

٧. سورة الذاريات، الآيتان ١٧ و ١٨.

٨. سورة المجادلة، الآية ٢٢.

٩. «ولتكفف» من مادة «كفّ» بمعنى المنع، ولكن في الكثير من نسخ نهج البلاغة وشروحها وردت «وَلْتَكْفِكَ» من مادة «كفاية» يعني أنّ أقراص الخبز كافية لك فلا تقصد الموائد الفاخرة والأطعمة الملونة.

لأنّ التلوث بمثل هذه الضيافات الثقيلة والموائد المجللة، التي لا طريق للجائعين إليها، والتي يدعى إليها الأشراف والأثرياء فقط وهم غالباً من الملوثين بـالأموال الحرام، ويبعدك عن ذكر الله والمعاد والالتفات إلىٰ المحرومين وتزيد من ثقل ذنوبك وتسبب لك المشاكل يوم القيامة.

وجاء في تاريخ «مروج الذهب»: ذكر الفضل بن الربيع (وزير المهدي): دخل شريك (بن عبدالله) القاضي على المهدي (العباسي) يوماً، فقال له: لابدّ أن تجيبني إلىٰ خصلة من ثلاث خصال، قال: وما هي ياأميرالمؤمنين؟ قال: إمّا أن تلي القضاء، أو تحدّث ولدي وتعلّمهم، أو تأكل عندي أكلة. ففكر ثمّ قال: الأكلة أخفهنّ على نفسي، فاحتبسه وقدّم إلىٰ الطبّاخ أن يطبخ له ألواناً من المخ المعقود بالسكر والطبرزذ والعسل، فلمّا فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ، ياأميرالمؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً، قال الفضل بن الربيع: فحدّثهم شريك بعد ذلك، وعلّم أولادهم، وولي القضاء لهم، وقد كتب بارزاقه إلىٰ الجهبند فضايقه في النقص، فقال له الجهبند: إنّك لم تبع بزّاً، قال له شريك: بلى والله لقد بعت أكبر من البز، لقد بعت ديني[1].

أجل، ربّما تكون للقمة من طعام حرام هذه الآثار السلبية العجيبة في الإنسان، فلو أنّ شريك تعامل مع هذه المسألة بآليات العقل واكتفى بتعليم أبناء الخليفة فربّما استطاع تعليمهم معارف الإسلام وحقيقة الرسالة الإلهيّة ليدفع ظلمهم وجورهم في المستقبل.

## تأمّلان

### ١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهيّة

بعد المطالعة الدقيقة لهذه الرسالة ربّما يثار هذا السؤال: هل أنّ الإسلام يحرم

---

١. مروج الذهب، ج ٣، ٣١٠.

التلذذ بالأطعمة والمأكولات اللذيذة والحضور في هذه الموائد الفخمة، أو أنّ هذا العمل حلال في نفسه؟ وهل هناك تقاطع بين الزهد الإسلامي والاستفادة من النعم الإلهيّة الدنيويّة؟ الكلام في هذا المجال متشعب ومفصّل، ولكن يمكن تقديم عصارة لمثل هذا الموضوع فنقول:

وردت روايات كثيرة في تشويق المسلم للزهد في الدنيا منها: «الزَّهَادَةُ فِي الدُّنيَا لَيسَتْ بِتَحرِيمِ الحَلالِ وَلا إزالَةِ المَالِ وَلَكنّ الزَّهادَةَ فِي الدُّنيا أنْ لا تَكُونَ بِمَا فِي يَدِيكَ أَوثَقُ مِمَّا فِي يَدِ اللهِ»[١].

وجاء في حديث آخر عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام يقول: «الزَّهَادَةُ قِصَرُ الأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ»[٢].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَا يُحَاسِبُ اللهُ عَلَيْهَا المُؤْمِنَ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ وَثَوْبٌ يَلْبَسُهُ وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعَاوِنُهُ وَتُحْصِنُ فَرْجَهُ»[٣].

ويتبيّن من هذه الرواية الشريفة أنّ الانتفاع من هذه المواهب لا يتنافى مع الزهد أبداً، وكذلك ما ورد من الآيات الروايات في هذا الباب ممّا يستدعي استعراضها وبيانها لتأليف كتاب مستقل عنها.

ولكن في مقابل هذه النصوص هناك روايات أخرى تدعو الإنسان إلى ترك لذات الدنيا وتمدح ترك التلذذ والتنعم بالمواهب الإلهيّة الكثيرة، منها:

ما ورد في حديث معروف عن الإمام علي عليه السلام قاله ليلة استشهاده بعد أن تناول فطوره المكوّن من خبز وملح وترك ما سواهما، قال مخاطباً إبنته: «يَا بُنَيَّة مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إلَّا طَالَ وُقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤].

---

١. ورد هذا الكلام عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في سنن الترمذي، ص ٢٤٤٣. وكذلك ورد هذا الحديث في وسائل الشيعة ج ١١، ص ٣١٥، ح ١٣ باب استحباب الزهد في الدنيا وحد الزهد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٨١

٣. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢٩٩.

٤. المصدر السابق، ج ٤٢، ص ٢٧٦.

وجاء في حديث آخر في كتاب «كنز العمال» عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «فِي حَلالِها حِسابٌ وَفِي حَرامِها عِقابٌ، فَدَعِ الحَلالَ لِطُولِ الحِسَابِ وَدَعِ الحَـرامَ لِطُولِ العَذابِ»[١].

ويبدو أنّ الجمع بين هذه الآيات والروايات ممكن بإحدى هذه الطرق التالية:

١. إنّ الاستفادة من المواهب الإلهيّة حكم لعامّة الناس، والتوجه نحو الزهد والترغيب فيه هو حكم للخواص.

٢. إنّ روايات الزهد تهدف إلى التخفيف من استغلال الآيات والروايات من الطائفة الأُولى، وتمنع الإنسان من الإفراط في تناول الأطعمة والإكثار من الملذات الحلال، لئلا يغرق الإنسان في هذه الملذات فتعيقه بالتالي عن سلوك طريق الهداية والمعنويّة.

٣. إنّ أولياء الدين يمثّلون الأُسوة والقدوة للناس في سيرتهم وحياتهم، فينبغي أن يعيشوا معيشة ضعفاء الأُمّة ولمواساة المحرومين والتخفيف عن صعوبة معيشتهم.

٤. إنّ سلوك طريق الزهد يمنح جميع الأفراد حتى غير الأولياء مزيداً من الهدوء الروحي والصفاء النفسي، لأنّ الغرق في النعمة والرفاهية تثقل الروح وبخاصة فيما لو كان الآخرون يعيشون في شغف العيش، فهذه الحالة متنافية مع القيم ومذمومة من جهة عاطفية.

٥. نظراً لما يترتب على الحلال من حساب يوم القيامة، فقد رجحت جماعة من المؤمنين الحياة البسيطة على المعيشة المرفهة لئلا يطول وقوفهم يوم القيامة للحساب.

وبالنسبة لحقيقة الزهد والجمع بين هذه التعاليم الإسلاميّة من جهة، والانتفاع من المواهب الإلهيّة الواردة في الآيات والروايات الشريفة المذكورة آنفاً من جهة أخرى راجع ما ورد في ذيل الخطبة ٨١ في الجزء الثالث من هذا الكتاب وكذلك يمكنك مراجعة كتاب دائرة المعارف للفقه المقارن، الجزء الثاني (بحث الزهد والتنمية الاقتصاديّة).

---

١. كنز العمال، ح ٨٥٦٦.

٦. مضافاً إلىٰ ما تقدّم فإنّ التحرك في خط الزهد والإعراض عن الدنيا وملذاتها يعتبر أحد العوامل الرئيسية في تربية الروح وتزكية النفس كما ورد شرحه في بحث رياضة النفس من هذه الرسالة.

## ٢. من هم حزب الله؟

ما ذكر الإمام عليه السلام في نهاية هذه الرسالة عن حزب الله، مقتبس من آيات القرآن الكريم:

وقد وردت هذه العبارة في آيتين من القرآن الكريم، الأُولى في آية ٥٦ من سورة المائدة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا[١] فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

ونرى في هذه الآية الشريفة أنّ قبول الولاية الإلهيّة والأولياء الإلهيين تعدّ من صفات حزب الله.

وجاء في الآية ٢٢ من سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

في الآية الأُولىٰ ورد وصف أفراد حزب الله، كما أشرنا إلىٰ آنفاً بوصف قبولهم لولاية الله ورسوله والأولياء الإلهيين، وفي الآية الثانية ورد وصفهم بأنّهم «يبغضون في الله»، أو يعادون أعداء الحقّ، ويستفاد من مجموع هاتين الآيتين أنّ مسألة «الحبّ في الله» و«البغض في الله» على أساس أنّهما من أركان من يتصف بكونه من حزب الله، وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الرسالة بأنّ حزب الله هم القائمون في

---

١. المؤمنون هنا، بقرينة الآية السابقة إشارة إلى أميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام وهي آية الولاية واعطاء الإمام خاتمه في حال الركوع، وعلى فهذه الآية نازلة في شأنه عليه السلام.

الأسحار والعابدون والزاهدون في الحقيقة متقبس من القرآن وكون هذه الصـفات من قبيل اللازم والملزوم.

٤٦

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ بعض عُمّالِهِ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

تمثّل هذه الرسالة في الواقع دستوراً عملياً لأحد عمّال الإمام علي عليه السلام وولاته في حكومته، وتتضمّن جمل قصيرة وزاخرة بالمعاني العميقة حيث يدعو الإمام مخاطبه بأداء وظيفته والقيام بمسؤوليّته، وتتكوّن هذه الرسالة من ثلاثة مقاطع:

في المقطع الأوّل يشيّد الإمام عليه السلام بشخصيّة هذا الوالي ويشيد بمكانته المرموقة ليثير في نفسه الاستعداد لقبول هذه المسؤوليّة المهمّة.

---

١. سند الرسالة:

أجمل الكثير من شرّاح في من هو المخاطب في هذه الرسالة، ولكنّ صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغة) يرى أنّ المخاطب لها هو مالك الأشتر، وكذلك ذكره صاحب كتاب (تمام نهج البلاغة) ويضيف صاحب المصادر: عندما عاد الإمام علي عليه السلام من صفين أرسل مالك الأشتر إلىٰ منطقة حكومته وإدارته «منطقة الجزيرة» (وفقاً لما ورد في معجم البلدان أنّ الجزيرة منطقة في العراق تقع بين نهري دجلة والفرات) وعندما انتهت قضيّة التحكيم وتغيرت أوضاع مصر أرسل الإمام علي عليه السلام مالك الأشتر إلى مصر بدلاً من محمّد بن أبي بكر وأرسل معه هذه الرسالة وقال: إنّ هذه المهمّة لا يقوم بها إلّا أنت، وأعطاه رسالة العهد التي ستأتي في الرقم ٥٣.

ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضي، إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب الغارات، وكذلك البلاذري في أنساب الأشراف، والطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٨، ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرسالة بعد السيّد الرضي، ابن الأثير في كتابه «الكامل». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٦).

وفي المقطع الثاني يوصيه الإمام عليه السلام بالتواضع في مقابل الرعيّة والتعامل معهم بأُسلوب اللطف والملائمة وسعة الصدر.

وفي المقطع الثالث يشير الإمام عليه السلام لزوم رعاية العدالة والمساواة بين الناس حتى في الإشارة والنظرة والتحية لئلا يطمع أصحاب الثروة والقوّة في عمليّة التمييز، وييأس الضعفاء من إجراء العدالة.

وذكروا أنّ من جملة الأشخاص المخاطبين لهذه الرسالة هو مالك الأشتر رحمه الله وقد أوردها الشيخ المفيد في الأمالي، صفحة ٧٩، والمؤرخ المعروف الطبري في تاريخه الجزء الرابع، صفحة ٧١ في حوادث سنة ٣٨.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ.

## الشرح والتفسير

### عامل الناس بالرفق!

أشرنا آنفاً في ذكر سند هذه الرسالة أنّ المخاطب لها حسب الظاهر مالك الأشتر، والعبارات الواردة فيها والثناء والتجليل في هذه الرسالة يتناسب مع شخصيّة مرموقة مثل مالك الأشتر، رغم أنّ الكثير من شرّاح نهج البلاغة لم يذكروا المخاطب فيها واكتفوا بالإجمال.

يستعرض الإمام عليه السلام في القسم الأوّل من هذه الرسالة لهذا الوالي عدّة صفات حسنة ويثني عليه ثناءاً جميلاً ممّا يعمق فيه الاعتماد على النفس ويكرس فيه القدرة والإرادة على حلّ المشكلات ومواجهة التحديات يقول الإمام عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ[1] بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ[2] بِهِ نَخْوَةَ[3] الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ

---

١. «استظهر» من مادة «استظهار» بمعنى طلب المعونة والمساعدة.

٢. «أقمع» من مادة «قمع» على وزن «قرض» بمعنى انصراف الشخص من إنجاز هدفه، وبمعنى القهر والضغط ←

لَهَاةَ[٤] الثَّغْرِ[٥] الْمَخُوفِ».

وهذه التعبيرات تشير إلىٰ أنّ الإمام عليه السلام اختار لتولي الأمور جماعة من الشجعان وأصحاب المعرفة والدراية والتدبير ليساعدوه في هذه الأمور الثلاثة، أي إقامة أركان الدين، وقمع المتمردين والفاسدين، وحفظ الثغور والمواقع الخطيرة على حدود البلاد الإسلاميّة، وكان مخاطب هذه الرسالة، أي مالك الأشتر، أحد هؤلاء الولاة والأُمراء الموثوقين لدى الإمام.

وكأنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إذا أوكلتك لهذا الأمر وفوّضت إليك مسؤوليّة تدبير مصر وإقامة الأحكام الدينيّة فيها ولمنع تعديات قوى الظلام والانحراف وحفظ الثغور في مقابل التهديد الخطير الذي يتمثّل بجيش الشام وأتباع معاوية فإنّ ذلك بسبب لياقتك وجدارتك في هذه الأمور، والحقيقة أنّ مالك الأشتر كان كذلك كما بيّنه الإمام عليه السلام في هذه الجمل الموجزة والعميقة المغزى.

إنّ الحوادث التي وقعت لمالك الأشتر وذكرها المؤرخون في كتبهم شاهد حي على هذه الحقيقة.

ومن ذلك عندما أراد الإمام علي عليه السلام قتال المتمردين في واقعة الجمل، أرسل عمّار بن ياسر إلىٰ الكوفة لتحشيد الناس للالتحاق والانضمام إلىٰ جيش الإمام علي عليه السلام يقول الراوي: «والله إنّي لفي المسجد يومئذٍ وعمّار يخاطب أبا موسى ويقول له ذلك القول (ويعبىء الناس للمشاركة في جيش الإمام ولكن أبا موسى الأشعري كان واقفاً على المنبر ويثبط الناس) إذ خرج علينا غلمان لأبي موسى وقالوا: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر وضربنا وأخرجنا، فنزل أبوموسى

---

☜ على الشخص للاستسلام، و«مِقمعة» تعني العمود الحديدي الذي يضرب به الشخص أو الحيوان المتمرد على رأسه لمنعه من التمرد.

٣. «نخوة» التكبر والغرور.

٤. «لهاة» بمعنى اللسان الصغير، ثمّ أُطلقت على المخنق والحنجرة كما ورد في الجملة أعلاه.

٥. «الثغر» يعني حدود البلد وفي الأصل بمعنى كلّ شقّ.

فدخل القصر، فصاح به الأشتر اخرج من قصرنا لا أمّ لك أخرج الله نفسك، فوالله أنك لمن المنافقين قديماً، قال: أجّلني هذه العشية. قال: هي لك ولا تبيتنّ في القصر الليلة، ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر، وقال: إنّي قد أخرجته فكفّ الناس عنه»[1].

وكذلك ورد في كتب التاريخ: عندما وصل الإمام علي عليه السلام في مسيره إلىٰ صفين، إلى أرض الرقة، فكان لابدّ لهم من عبور النهر، ولكن الناس لم ينصبوا الجسر للإمام عليه السلام وجيشه، (وكأنّهم كانوا يرتبطون بعلاقة خاصّة بمعاوية) فعزم الإمام أن يعبر النهر من جسر منبج[2] (هو بعيد عن هذا المكان) فقال الأشتر لأهالي تلك المنطقة: أُقسم بالله إذا لم يعبر أميرالمؤمنين هذا الجسر ولم تحضروا له جسراً ليمر عليه فأُعاقبكم بسيفي هذا وأقتل رجالكم وأُخرب دياركم وآخذ أموالكم، فنظر بعضهم إلىٰ بعض وقالوا: هذا الأشتر فهو يفي بقسمه قوموا واحضروا الجسر، فلما أحضروا الجسر وهيئوه عبر جيش الإمام أجمعه عليه، وكان الأشتر آخر نفر عبر عليه.

على أية حال فالإمام عليه السلام بعد هذه العبارات الهادفة والدقيقة يطرح على مالك الأشتر دساتير وتوصيات مهمّة في مجال التعامل مع الناس، بداية يقول: «فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الأصل والأساس في كسب النجاح والتوفيق في إدارة البلاد وتدبير أموره هو الإستعانة بالذات المقدّسة وطلب المعونة والتسديد منه.

وفي التوصية الثانية يقول: «وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ[3] مِنَ اللِّينِ».

وهو إشارة إلىٰ أنّ أمر الحكومة وتدبير الولاية وإجراء البرامج الاجتماعيّة لا

---

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥٠١، حوادث سنة ٣٦.

٢. «منبج» على وزن «مجلس» اسم مدينة من مدن الشام.

٣. «ضغث» على وزن «خرص» تعني قبضة من الأعواد الرفيعة مثل سيقان الحنطة والشعير أو محمل التمر في النخلة، ويأتي بمعنى حزمة من حطب أو نبات الجاف أيضاً، وأحياناً تطلق على المنامات المضطربة، وهنا وردت بمعنى مجموعة من عوامل اللين.

تتحقق من خلال الاعتماد على آليات الشدّة والعنف فقط، بل ينبغي على الوالي أن يخلط الين بالشدّة، لأنّ أسلوب الشدّة والقهر يتسبب في نفور الناس وعداوتهم وربّما لا يصل إلىٰ نتيجة، ولو استخدم الوالي آليات اللطف والملائمة والليونة دوماً فإنّ الكثير من الأفراد لا يأخذون عمله على محمل الجد وربّما يؤدّي ذلك إلىٰ تكاسلهم وتواكلهم وبالتالي فشل المشروع، وهذا هو ما ورد في منهج الأنبياء الإلهيين من كون كلّ نبي (مبشراً ونذيراً) والقرآن الكريم يؤكّد من جهة أنّ الله تعالى في موضوع العفو الرحمة أرحم الرحمين وفي موضوع الجزاء والنقمة أشدّ المعاقبين.

والتوصية الثالثة تبيّن ما هو الأصل بين الرفق والشدّة وما هي مواردهما، يقول الإمام عليه السلام: «وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ».

وعلى هذا الأساس فالأصل في المناسبات بين الوالي والرعيّة، بل يأتي هذا الأصل في جميع أشكال الإدارة، هو الرفق والمداراة، ولكن إذا كان البعض يستغلون هذا اللين والرفق ويسيئون الاستفادة من مداراة المدير والوالي لهم، فهنا لابدّ من استخدام الشدّة.

وقد ورد في الحديث الشريف المعتبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[1].

إِنَّ المَكارِمَ أخلاقٌ مُطَهرةٌ    فَالدِّينُ أَوّلُها والعِقلُ ثانيها
والعلمُ ثالثُها والحِلمُ رابِعُها    والجُودُ خامِسُها والعُرفُ سادِسُها
وَالبِرُّ سابِعُها والصَّبرُ ثامِنُها    والشُّكرُ تاسِعُها واللّينُ عاشِرها[2]

يُخاطِبُني السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبحٍ    وَأَكرَهُ أن أَكُونَ لَهُ مُجِيباً

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١١٩، ح ٦.
٢. مجاني الأدب، ج ٢، ص ٤٨.

يَــزيدُ سَـفاهةً وَأَزيـدُ حِـلماً    كَــعُودٍ زَادهُ الإحـراقُ طِـيباً[1]

وحالياً نشاهد أنّ أفضل الطرق لمواجهة المفاسد الاجتماعيّة والتصدي لأشكال الجنوح والانحراف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استخدام آليات المحبّة والخطاب المنطقي المقترن بالأدب والمداراة، فإنّ غالبية الناس يتحركون بالاتجاه الصحيح بهذا الأسلوب، ولكن هناك قلّة من الناس لا ينفع معها سوى الشدّة ولا ينتهون عن سلوكياتهم الخاطئة إلّا بآليات القهر والقوّة.

في التوصية الرابعة والخامسة والسادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَاخْـفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذه التوصيات في الحقيقة مقتبسة من الآيات القرآنيّة الشريفة، فالقرآن يخاطب النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ويقول في آية أخرى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[3].

وفي التوصية السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام: «وَآسِ[4] بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ[5]، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ».

وهذه التوصية تشمل المدراء والولاة في المجتمع الإسلامي، وكذلك تشمل القضاة أيضاً حيث ورد في كتاب القضاء أنّ هذه الأمور من وظائف القضاة، ولعل ذلك ينحصر بتعاليم الإسلام، بأن ينظر القاضي أو الوالي بنظرة واحدة للجميع، فلو قام احتراماً لواحد من المتخاصمين أو المراجعين يجب عليه القيام للجميع، وإذا سلّم على بعضهم ينبغي أن يسلّم على الجميع بصورة واحدة، بل لا ينبغي له أن ينظر

---

١. مجاني الأدب، ج ٢، ص ١٠١.

٢. سورة الحجر، الآية ٨٨.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٤. «آس» من مادة «مواساة» تعني وقوع الأشياء في صف واحد والتساوي في المرتبة.

٥. «حيف» الانحراف عن الحقّ والعدالة.

إلىٰ بعضهم بجميع بصره وينظر إلىٰ الآخر بطرف عينه، فمثل هذه التوصية تعني أن يحسب الآخرين حسابهم ويعلموا أنّ هذا المكان هو مكان يراعي فيه موازين العدل والانصاف ولا ينبغي أن يتوقع أحدهم التمييز في الأُمور المهمّة.

ﮩﮪ

# ٤٧

# وَمِنْ كِتابٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

## لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام لَمّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللهُ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

هذه الوصيّة في الواقع تعتبر أحد الوصايا الشاملة والمهمّة للإمام علي عليه السلام عندما كان في سرير الشهادة، ومخاطب هذه الوصيّة ولداه الحسن والحسين عليهما السلام، بل جميع الشيعة وأتباع آل البيت عليهم السلام وتتضمّن عدّة فصول مهمّة:

الفصل الأوّل، يوصي الإمام عليه السلام إبنيه بتقوى الله وعدم اهتمام بزخارف الدنيا، والدفاع المظلومين وحماية حقوقهم في مقابل الظالمين.

وفي الفصل الثاني، يصرّح الإمام عليه السلام بأنّ مخاطبه هو جميع أبنائه وأهله وكل من تصل إليه هذه الوصيّة إلىٰ يوم القيامة، ومرّة أخرى يؤكّد الإمام في وصيّته على التقوى ونظم الأمور والإصلاح بين الناس.

---

١. سند الرسالة:

نقل هذه الوصيّة جماعة كثيرة قبل السيّد الرضي، ومنهم أبومخنف (لوط بن يحيى طبقاً لنقل مقاتل الطالبيين) وأبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرون، والطبري في تاريخه المعروف في حوادث سنة ٤٠، والكليني في كتاب الكافي، والمسعودي في مروج الذهب، والشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه، وجماعة آخرون. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١).

وفي الفصل الثالث، يشير الإمام عليه السلام إلىٰ عدّة مسائل مهمّة، منها الدعوة لكفالة الأيتام وحفظ حقوق الجيران، والعمل بالقرآن والاهتمام بإقامة الصلاة والحج والجهاد بالنفس والمال واللسان وتوثيق العلاقة بين الأفراد واجتناب الكراهية والفرقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الفصل الأخير يخاطب عليه السلام أبناء عبدالمطلب مؤكّداً لهم أنّهم بعد استشهاده ينبغي أن يمتنعوا من سفك دماء المسلمين بذريعة مقتله والانتقام له، ويحمل المسؤوليّة فقط على قاتله الذي يجب القصاص في حقّه، ثمّ يوصيهم باجتناب المثلة بعد القصاص من القاتل ولزوم دفنه.

٭٭٭

## القسم الأوّل

**أوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالْحَقِّ وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.**

## الشرح والتفسير

### كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!

هذه هي الوصيّة الثانية للإمام علي عليه السلام في فراش الوفاة (وقد سبق ذكر وصيّة أخرى للإمام في الكتاب رقم ٢٣).

وكما أشرنا آنفاً، أنّ الإمام عليه السلام تحدّث بهذا الكلام في فراش الوفاة وكتب هذه الوصيّة، ونعلم أنّ الإنسان في مثل هذه الحالة يهتم ببيان الأمور المهمّة لديه بعبارات موجزة، ولم تكن وصيّة الإمام هذه تتعرض لكيفية تقسيم أمواله وثرواته، لأنّه لم يترك مالاً وثروة لورثته، وإن كان يملك مبلغاً من المال فقد جعله وقفاً للمسلمين، وتتركز هذه الوصيّة حول القيم الأخلاقيّة والمثل الإنسانيّة والتكاليف الدينيّة في واقع الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وبالرغم من أنّ المخاطب في هذا المقطع من الوصيّة، الحسن والحسين عليهما السلام، ولكن بقرينة المقطع الثاني من الوصية فإنّ الآخرين أيضاً مخاطبون بهذا الخطاب المهم.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام في المقطع الأوّل لهذه الوصيّة يوصي ولديه بسبعة أمور مهمّة:

الأوّل يقول عليه السلام: «**أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ**».

أجل، كما قلنا مراراً أنّ التقوى تعني الاحساس بالمسؤوليّة الباطنيّة في مقابل الأوامر الإلهيّة، فهي تمثّل عصارة تعاليم جميع الأنبياء والأولياء وبدونها لا يستطيع أي شخص الخلاص من الوساوس الشيطانيّة والأهواء النفسانيّة، فمفتاح الجنّة هو التقوى، والمركب الذي يركبه السائل في مراتب السلوك المعنوي والقرب الإلهي هو الورع.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في الوصيّة الثانية والثالثة يقول: «وَأَلَّا تَبْغِيَا[1] الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ[2] عَنْكُمَا».

ومعلوم أنّ الدنيا ذات أبعاد وأقسام مختلفة: قسم منها ضروري لحياة الإنسان وبقائه، والقسم الآخر يتمثّل في وسائل الترفيه بالشكل المعقول، ولكن القسم الذي يتضمّن أكثر من ذلك والإنسان يتجه نحوه بدافع الأهواء والتفاخر وأمثال ذلك، وبديهي أنّ الإمام عليه السلام لا ينهى عن القسم الأوّل والثاني، بل هو ناظر إلى القسم الثالث، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[3] وقطعاً إذا تحرك الإنسان بهذا الاتجاه من طلب الدنيا فإنّ ذلك يبعده عن الله والآخرة ويدفعه للتلوث بأنواع الذنوب والمعاصي.

وعندما يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا»، فالعلّة في ذلك جلية لأنّ التأسف على شيء فقده الإنسان في الماضي لا يعيده إليه، هذا أوّلاً، وثانياً، إنّ هذه الحالة السلبية في النفس من شأنها إعاقة الفعاليات الإيجابيّة وعدم تركيز الاهتمام لحفظ ما يملكه الإنسان حالياً.

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم ويقول: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[4].

---

١. «تبغيا» و«بغت» كلاهما من مادة «بغاء» على وزن «سناء» بمعنى طلب الشيء.

٢. «زوى» من مادة «زيّ» على وزن «حيّ» وتعني الابعاد والنهي، وفي الجملة أعلاه «زوي» بمعنى أخذ.

٣. سورة الحديد، الآية ٢٠.

٤. سورة الحديد، الآية ٢٣.

ونقرأ في حديث عميق المعنى، أنّ رجلاً كان يصلّي مع النّبيﷺ، فلمّا انصرف قال النّبيﷺ: «هَذا رَجُلٌ مِنْ أَهلِ الجِنّةِ»، قال عبدالله بن عمرو، فأتيته فقلت: ياعمّاه الضيافة، قال: نعم، فإذا له خيمة وشاة ونخل، فلمّا أمسى خرج من خيمته فاحتلب العنز واجتنى لي رطباً ثمّ وضعه، فأكلت معه فبات نائماً وبت قائماً، وأصبح مفطراً وأصبحت صائماً، ففعل ذلك ثلاث ليال، فقلت له: رسول اللهﷺ قال فيك: إنّك من أهل الجنّة، فأخبرني ما عملك؟ قال: فائت الذي أخبرك حتى يخبرك بعملي، فأتيت رسول اللهﷺ، فقال: ائته فمره أن يخبرك، فقلت: إنّ رسول الله يأمرك أن تخبرني، قال: أمّا الآن فنعم، قال: لو كانت الدنيا لي فأخذت منّي لم أحزن عليها، ولو أُعطيتها لم أفرح بها، ولا أبيت وفي قلبي غل على أحد، قال عبدالله: لكنّي والله أقوم الليل وأصوم النهار، ولو وهبت لي شاة فرحت بها، ولو ذهبت لحزنت عليها، والله لقد فضلك الله علينا فضلاً بيّناً[1].

أجل، هكذا هي طبيعة الدنيا، فيوم لك ويوم عليك، فلا إقبالها يوحي بالاطمئنان لها ولا إدبارها يثير التأسف عليها.

ونقرأ في حديث آخر عن ابن عباس أنّه قال: لم أنتفع بعد كلام رسول اللهﷺ بانتفاعي بكتاب كتبه علي بن أبي طالبعليه السلام فإنّه كتب إليّ: «أَمّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ يَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ وَيَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تَكُن بِهِ فَرِحاً وَمَا فَاتَكَ مِنْها فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ حُزْناً وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالسَّلَامُ»[2].

وفي التوصية الرابعة والخامسة يقولعليه السلام: «وَقُولَا بِالْحَقِّ، وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ».

أمّا نصرة الحقّ والالتزام الواعي بقول الحقّ وفقد ورد في آيات متعددة من القرآن الكريم ومن ذلك ما ورد في سورة «العصر» الأمر بالتواصي بين المؤمنين

---

١. تفسير در المنثور، ذيل الآية ١٠ من سورة الحشر.

٢. ميزان الحكمة، ج ٣، باب الحزن، ح ٣٧٨٩. وللاطلاع أكثر انظر الرسالة ٢٢ من هذا الكتاب.

بالحق: ﴿وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ﴾.

والجدير بالذكر أنّ الحقّ له معنى واسع جدّاً ويشمل كلّ حقيقة عقائدية وأخلاقيّة وحكمية والتعاليم والأحكام الإلهيّة وحقوق الناس فيما بينهم، والحقّ المتقابل بين الحاكم والرعيّة، أو بين السلطة والشعب، وحقّ الإنسان على نفسه وما إلىٰ ذلك.

وأمّا للعمل والأجر والثواب الإلهي فهذا يعني إخلاص النيّة وأن لا ينظر الإنسان إلى ما في أيدي الناس بعين الطمع، وأن يحصر فكره ونظره بالثواب الإلهي ويؤدّي كلّ عمل بنيّة خالصة لله تعالى.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في التوصية السادسة والسابعة إلىٰ مسألة في غاية الأهميّة، ويقول: «وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً».

وهذه التوصية في الحقيقة تأكيد على لزوم نصرة الحقّ والدفاع عنه كما ورد في العبارات السابقة، وما حقّ أعظم من أن يعين الإنسان المظلوم في مقابل الظالم، ليصل المظلوم إلىٰ حقّه ويجتنب الظالم ظلمه، واللافت للنظر أنّ الظالم والمظلوم في هاتين الجملتين مطلقان فلا يختصان بالمسلمين، ومن هذه الجهة فإنّ كلّ مظلوم في العالم يجب على المسلمين الدفاع عنه ونصرته، ويجب عليهم التصدي لكلّ ظالم وجائر في هذا العالم، ولو أنّ منظمات حقوق الإنسان اهتمت بتطبيق هذين الأمرين فقط، فإنّ الدنيا ستتحول إلىٰ جنّة، ولكننا نرى أنّ هؤلاء الذين يدّعون الدفاع عن حقوق الإنسان يقفون مع الظالم عندما تتعرض منافعهم غير المشروعة للخطر، ويقفون ضد المظلوم، رغم أنّهم يرفعون لواء حماية المظلومين والتصدي للظالمين في الظاهر.

ونقرأ في حديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهُمُّ بِظُلْمِ أَحَدٍ غَفَرَ اللهُ مَا اجْتَرَمَ»[1].

وفي الحقيقة أنّ أكثر الذنوب تعدّ نوعاً من أنواع الظلم والشخص الذي يجتنب

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ٨.

الظلم بجميع أشكاله هو الذي يتخلص من الذنوب كافّة.

ونقرأ في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «وَمَنْ أَخَذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ مُصَاحِبا»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في «غررالحكم» يقول: «أَحْسَنُ العَدْلِ نُصْرَةُ المَظْلُومِ»[2].

وكذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء ٣٨ من الصحيفة السجاديّة (بوصفه قدوة لعامّة الناس): «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظُلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْه».

٨٠٠٣

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٥٩.

٢. غرر الحكم، ص ٤٤٦، ح ١٠٢١٠.

## القسم الثاني

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي[1]، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ[2] بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا عليه السلام يَقُولُ: «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

## الشرح والتفسير

### أفضل الأعمال صلاح ذات البين!

في هذا المقطع من الوصيّة يوسع الإمام عليه السلام دائرة مخاطبيه لتمتد إلىٰ أبعد من ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، وهم أهله وجميع أرحامه ومن تصل إلىٰ أيديهم هذه الوصيّة إلىٰ يوم القيامة ليقعوا جميعاً في دائرة هذا الخطاب الإيماني، فيقول: «أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا عليه السلام يَقُولُ: (صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ)».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد في هذا المقطع من الوصيّة على أمور ثلاثة: الأوّل: التأكيد مرّة على الالتزام والواعي بمقتضيات التقوى والورع، فطريق النجاة لا

---

١. جاء في رواية وفقاً لما ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: عندما عاين الطبيب المعروف في الكوفة الإمام عليه السلام قال: أنا آيس من بقاءك وحياتك، فأمر الإمام عليه السلام بأن يأتوا له بدواة وقلم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٧٩).

٢. «ذات» في الأصل بمعنى الخلقة والبنية وأساس الشيء، وإن جاء في اصطلاح الفلاسفة بمعنى عين الشيء وحقيقته، ومن هذه الجهة فإنّ إصلاح ذات البين أو صلاح ذات البين إشارة إلى إزالة الكدورات والأحقاد من الأصل والأساس.

يتيسر للإنسان إلّا من خلال التقوى، التي تعتبر زاد الإنسان ومتاعه في سفره إلىٰ الآخرة وكذلك تعتبر معيار شخصيّة الإنسان وكرامته أمام الله تعالى بمقتضى قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[١].

والأمر الثاني: يوصي الإمام عليه السلام ولديه بنظم أمورهم في حركة الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وهذا يشمل النظم في الأبعاد الأمنيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وفي العبادة، وكذلك ما يرتبط بالأُسرة والتعليم والتربية للأبناء ونعلم أنّ بقاء عالم الوجود مرتبط بشكل وثيق بما فيه من نظام محكم في ظلّ التدبير الإلهي، فلولا وجود النظم في الأفلاك والمجرات السماوية لما بقي عالم الكون والطبيعة ولسارع إلىٰ الانحلال والاندثار، ولو أنّ بدن الإنسان وما فيه من أجهزة وأعضاء تتحرك في إطار من النظم الدقيق لسارعت الأمراض إليه وإرتبك عمل هذه الأجهزة المختلفة ولمات الإنسان في وقت قصير، وكل مجتمع يفتقد النظم اللازم فإنّه يتعرض للفناء والانقراض، وكل إنسان يسلك في خط العشوائيّة والعبثيّة بعيداً عن النظام في حركة الحياة فلا يصل إلىٰ نتيجة مهما كان يملك من قابليات وإمكانات كثيرة.

وعلى سبيل المثال يوجد في دم الإنسان أكثر من عشرين نوعاً من العناصر المعدنيّة وشبه المعدنيّة ترتبط فيما بينها برابطة خاصّة ولكل واحد منها مهمّة خاصّة يؤدّيها في البدن، فلو أنّ هذه التركيبات والعناصر تغيّرت قليلاً من الناحية الكميّة والكيفيّة فستظهر علائم الأمراض على الإنسان، ولهذا السبب فإنّ جميع الأطباء ومن أجل تشخيص جذور المرض الأصليّة يعملون على تحليل دم المريض في المختبر ليروا في أي قسم يوجد الخلل والنقص.

وفي المسائل الفلكيّة نرى أحياناً أنّ المنجمين وعلماء الفلك يتنبؤن بشكل دقيق بالخسوف وأنّه سيقع في الساعة الفلانيّة والدقيقة الفلانيّة في المكان الفلاني من الكرة الأرضية وذلك قبل عدّة أشهر من وقوع الخسوف أو الكسوف، ويجتمع في

١. سورة الحجرات، الآية ١٣.

تلك المنطقة جماعات كثيرة في لحظة وقوع الكسوف لرصد الشمس في ذلك الوقت، فلولا وجود نظم دقيق حاكم على عالم الوجود لما أمكن لعلماء الفلك أن يتنبأوا بمثل هذه الأمور، بل إنّهم يتنبؤون بالظواهر الكونيّة قبل آلاف السنين من وقوعها.

والآن لو أنّ الإنسان أراد في علاقاته الاجتماعيّة أن يسلك طريقاً اللانظم واللامبالاة فسيكون قطعة غير متجانسة مع عالم الوجود، ومثل هذا الشيء الاستثنائي وغير المنسجم من مظاهر الطبيعة محكوم بالفناء والزوال.

أمّا صلاح ذات البين والحديث الذي نقله الإمامعليه السلام عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله بأن إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصوم، فالعلّة في ذلك جلية، لأنّه لولا مسألة إصلاح ذات البين والعمل على رفع الكدورات وإزالة العداوات وتبديل حالات الكراهية إلىٰ حالات المحبّة والمودّة بين أفراد المجتمع الواحد، لسادت حالات التشتت والفرقة والتزلزل بينهم، وهذا بدوره يقود المجتمع كما يقول القرآن إلىٰ الفشل والتناحر.

ولهذا السبب كان إصلاح ذات البين من أفضل العبادات بل ورد في الروايات الشريفة أنّ المصلح بمنزلة المجاهد في سبيل الله: «جَعَلَ النَّبِيُّصلى الله عليه وآله أجْرَ المُصْلح بَيْنَ النّاسِ كَأَجْرِ المُجَاهِدِ عِنْدَ النّاسِ»[1].

ولا شك ولا ريب في أنّ الجهاد يوجب عزّة الإسلام، والشخص الذي يتحرك في واقعه الاجتماعي من أجل إيجاد حالات التفاهم والتواصل بين الناس ويسوق المجتمع الإسلامي نحو التوحد والاتحاد فإنّ عمله هذا يتسبب في عزّة الإسلام والمسلمين.

يقول الإمام الصادقعليه السلام: «صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارُبُ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»[2].

وقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام حديثاً معروفاً، عندما قال مخاطباً المفضّل (وهو أحد أصحاب الإمام): «إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ شِيعَتِنَا مُنَازَعَةً فَافْتَدِهَا مِنْ مَالِي»،

---

١. تفسير الثعلبي، ج ٩، ص ٨٠.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ١.

أي أصلح بينهما وارفع النزاع ولو كان بدفع مبلغ من المال لهما، ولذلك نقرأ في الرواية عن أبي حنيفة سابق الحاج قال: مرّ بنا المفضّل وأنا وختني[1] نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلىٰ المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوفىٰ كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: أمّا إنّها ليست من مالي، ولكن أبوعبدالله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبدالله عليه السلام[2].

ونختم هذا البحث بحديث آخر من جملة الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا المجال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ إِصْلاحُ ذاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسادَ ذاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحالِقَةُ»[3].

وبعد أن ينقل العلّامة المجلسي الحديث النبوي الشريف الوارد في كلام الإمام عليه السلام مورد البحث، ينقل عن أمالي الشيخ الطوسي بعد ذكره لهذه الرواية: «المراد صلاة التطوّع والصوم»[4] وكأنّ توضيح الشيخ الطوسي في هذا الكلام يعتمد على رواية معتبرة عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصوم**»[5].

---

١. الختن، زوج بنت الرجل وزوج اخته.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ٣ و ٤.

٣. كنز العمّال، ح ٥٤٨٠؛ مجموعة ورام، ج ١، ص ٣٩.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٤٤.

٥. المصدر السابق، ص ٤٣.

## القسم الثالث

**اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا، وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.**

## الشرح والتفسير

### وصايا هامّة على فراش الشهادة!

يقدّم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيّة عشر توصيات مهمّة فيما يتصل بالمسائل الاجتماعيّة والعباديّة والأخلاقيّة، وفي ستة موارد منها يستهلها الإمام عليه السلام بكلمة «الله الله» وذلك للدلالة على غاية الاهتمام والتأكيد، وبداية يشرع الإمام من الأيتام ويقول: «اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا[1] أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ».

وفيما يتصل بالاهتمام في أمر اليتامي فقد ورد في القرآن الكريم والروايات

---

١. «تغبوا» من مادة «غَبّ» على وزن «حد» بمعنى العاقبة، وهذه المفردة تأتي أحياناً في مورد الأعمال والأمور التي يؤتى بها بشكل غير متوالي، من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً» (مستدرك الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).

الشريفة تأكيدات كثيرة بهذا المضمون، ممّا يعكس الروح الإنسانيّة وحالات التكافل الاجتماعي وحماية الضعفاء في التعاليم والأحكام الإسلاميّة.

فنقرأ في الآية ٩ من سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

ويقول في الآية بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾.

وورد في حديث معروف عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال: «مَنْ مَسَحَ عَلىٰ رَأْسِ يَتيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرّ عَلىٰ يَدِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[1].

أجل، فإنّ روح اليتامى عطشى للمحبّة، فتأثير المحبّة والمداراة لهؤلاء الأطفال اليتامى لا يفوقه أي إكرام واحترام لهم.

وفي حديث مشهور آخر عن رسول اللهﷺ أنّه قال: «إِنّ الْيَتيمَ إِذا بَكىٰ اهْتَزَّ لِبُكائِهِ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ»[2].

وجاء في ذيل هذا الحديث أنّ الله تعالى يخاطب ملائكته ويقول: «إنّ اليتيمَ إذا بَكىٰ اهتزّ لِبُكائِهِ عَرشُ الرّحمنِ، فَيقُولُ اللهُ لِملائكتِه: يا مَلائكتِي! مَنْ أبكىٰ هذا اليتيمَ الّذي غُيّب أبوه فِي التّراب؟ فَتقُولُ المَلائكةُ، أنتْ أعلمُ، فَيقُولُ اللهُ تعالى: يامَلائكتِي! فإنّي أُشهِدُكُم أنّ لِمَن أسكتَه وَأرضاهُ أنْ أرضيهِ يَومَ القِيامةِ».

وجاء في كتاب الكافي، جيء إلىٰ أميرالمؤمنينؑ عسل وتين من هَمدان وحُلوان[3] فأمر العرفاء أن يأتوا باليتامي، فأمكنهم من رؤوس الأزقاق يلعقونها وهو يقسمها قدحاً قدحاً، فقيل له: ياأميرالمؤمنين ما لهم يلعقونها، فقال الإمامؑ: «إِنَّ الإِمَامَ أَبُو الْيَتَامَى وَإِنَّمَا أَلْعَقْتُهُمْ هَذَا بِرِعَايَةِ الآبَاءِ»[4].

---

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

٢. المصدر السابق.

٣. من بلاد كردستان قريبة من بغداد.

٤. الكافي، ج ١، ص ٤٠٦، ح ٥.

والملفت أنّ أباالطفيل (الصحابي المعروف ومن الأتباع المخلصين للإمام عليعليه‌السلام) يقول: «رأيت علياًعليه‌السلام يدعو اليتامى فيطعمهم العسل، حتى قال بعض أصحابه: لوددت أني كنت يتيماً»[١].

ثمّ إنّ الإمامعليه‌السلام في وصيّته الثانية يؤكّد على ضرورة الاهتمام بحقّ الجيران ويقول: «اللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ[٢]».

وجملة «فَإِنَّهَا وصِيَّةِ نَبِيِّكُمْ»، إمّا من باب حذف المضاف، وهي في الأصل: «فإنّها محل وصّية نبيّكم»، أو من باب التأكيد بأنّهم عين وصيّته، من قبيل أن يقال: زيد عدل، أو نقول مثلاً: الشخص الفلاني عين العدالة.

والتعبير بـ«ظنّ» في جملة در جملة «حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ»، بأن يكونوا شركاء في الميراث إمّا على مستوى التأكيد ومن خلال ما سمعوه من تكرار توصية النّبي بالجيران، أو يراد بها المعنى الحقيقي، وأنّهم حسبوا واقعاً أنّ مقام الجيران إلىٰ درجة يمكن أن يلحقوا بالأرحام والأقرباء ويكونون شركاء في الميراث.

وعلى أيّة حال فالجار في الإسلام يتمتع باحترام خاص خلافاً لما نراه في عالم اليوم والحياة المادية في المجتمعات المعاصرة، فربّما عاش رجلان عشرين سنة جيراناً ولكن أحدهما لا يعرف الآخر بتاتاً.

إنّ فلسفة احترام الجار في الإسلام جلية وواضحة، لأنّ الإسلام دين اجتماعي بامتياز، فتعاليمه ناظرة إلىٰ تجمع الأسرة، تجمع الأقرباء والأرحام، تجمع الجيران، تجمع أهالي المدينة، تجمع المواطنين في البلد الواحد، فكل واحد من أفراد هذه التجمعات له مكانة خاصّة في الإسلام، فلو أنّ الجيران كانوا يهتمون واقعاً ببعضهم

---

١. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٩.

٢. «سيورثهم» «ورث» (صيغة الثلاثي المجرّد) تعني أخذ الميراث، ولكن «ورّث» من باب التفعيل تعني اعطاء الميراث أو ترك الميراث.

البعض ويتشاركون الأفراح والأحزان فيما بينهم فإنّ الحياة ستكون حلوة وهنيئة وسيمنح هذا التواصل والتكاتف أفراد الجيران القوّة والروحية بحيث تمكنهم من التغلب بسهولة على المشاكل والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع، فاليوم يواجه هذا الجار مشكلة معينة فينهض سائر الجيران لمساندته وتقديم المعونة إليه لحل هذه المشكلة، وغداً تكون نوبة الجار الآخر ويتداعى له الجيران بالمعونة وهكذا.

ونقرأ في حديث عميق المغزى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هَلْ تَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ مَا تَدْرُونَ مِنْ حَقِّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلاً أَلَا لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ فَإِذَا اسْتَقْرَضَهُ أَنْ يُقْرِضَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَّاهُ لَا يَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ يَحْجُبُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَإِذَا اشْتَرَى فَاكِهَةً فَلْيُهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ يُهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلْهَا سِرّاً وَلَا يُعْطِي صِبْيَانَهُ مِنْهَا شَيْئاً يُغَايِظُونَ صِبْيَانَهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْقَرَابَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ الْكَافِرُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ»[1].

ونقرأ في الآية ٣٦ من سورة النساء أنّ القرآن الكريم بعد التأكيد على الإحسان الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، يؤكّد على الإحسان للجيران القريبين والبعيدين، يقول: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.

واللافت ما ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام أنّ حدّ الجار يتمثّل في أربعين منزلاً من الجهات الأربع[2].

وممّا يجدر ذكره أنّ هذا الحديث الشريف لا يعني أن نحسب أربعين داراً من كلّ جهة في خط مستقيم بحيث يكون المجموع ١٦٠ منزلاً، وأن لا تحسب المنازل الواقعة بين هذه الخطوط المستقيمة حتى لو كانت على مقربة من دار الشخص، بل

---

١. مستدرك الوسائل، ج ٨، ص ٤٢٤، ح ١٤.

٢. أنظر: وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٩١، آداب العشره، باب ٩٠.

المراد أنّ دائرة الجيران تمتد لشعاع أربعين منزلاً من كلّ جهة، ونعلم أنّ مساحة الدائرة تساوي ضرب نصف القطر في عدد ٣/١٤، ويتبيّن في حساب بسيط أنّ المجموع يبلغ قرابة خمسة آلاف بيتاً، فجميع هذه البيوت والدور، وفق ما ورد في الحديث الشريف، تعتبر من الجيران، أي أنّها مدينة مكونة من عشرين ألف نفر.

ونختم هذا الكلام بذكر قصّة تاريخيّة، ينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنّ رجلاً يدعى أبوالجهم باع داره وكان في جواره سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلمّا أحضرها المشتري قال (أبوالجهم) له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار، فقال المشتري: أي جوار قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط، قال: ردّ عليَّ داري، وخذ مالك، لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عنّي وإن رآني رحّب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قرّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني نائبة فرج عنّي، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك[1].

ونقرأ في التوصية الثالثة أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على العمل بالقرآن والالتزام بتعاليمه وأحكامه ويقول: «وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ».

وهذا الكلام إشارة إلىٰ أنّكم لا ينبغي أن تقنعوا بتلاوة القرآن وتجويده وتغفلوا عن مضامينه وتعاليمه، في حين أنّ الأجانب يتحركون في حياتهم من موقع العمل بمضامين القرآن وتعاليم الإسلام، مثلاً، عندما يعرضون بضاعتهم في السوق يراعون الصدق والأمانة في معاملاتهم ولكنّكم لستم كذلك، أو أنّهم يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم وأنتم تنقضون العهود ولا تلتزمون بالمواثيق فيما بينكم، وأولئك يسعون بجديّة لتحصيل وكسب العلوم المختلفة وإيجاد حالة النظم والانضباط في علاقاتهم ولكنّكم لا تهتمون لذلك فتبقون في ركب التخلف والتبعية، كما نشاهد هذا الحال ـ وللأسف ـ في بعض المجتمعات البشرية والإسلاميّة وأنّهم يعملون على وضع

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٧، ص ٩.

شارة وعلامة الشركات الأجنبيّة على منتوجاتهم ومصنوعاتهم ويبيعونها في السوق، وهذا يعني أنّ الناس تعتمد وتثق بالبضاعة الأجنبيّة ولكنهم لا يعتمدون على منتوجاتهم، والأجانب يسعون دائماً في خط التطور العلمي ويبذلون الجهود الكبيرة في سبيل التقدم والإزدهار، في حين أنّ الكثير من الشعوب الإسلاميّة يعيشون الغفلة وحالة الاسترخاء والتكاسل وكأنّهم نيام، وهذا الأمر مؤلم جدّاً ومؤسف.

وقد ورد في الحديث الشريف أنّ زياد بن لبيد جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له النّبي الأكرم ﷺ أمراً ثمّ أضاف شيئاً وقال: «ذَلِكَ عِندَ أَوان ذِهابِ العُلمِ»، فقلنا: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا وأبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟ فقال: «ثَكَلَتْكَ أُمّكَ يا زِياد! إنْ كُنتُ لأراكَ أفضلُ رَجل بِالمَدينةِ، أوَلَيسَ هَذِهِ اليَهودُ والنّصارىٰ يَقرأُونَ التَّوراةَ والإنجِيلَ وَلا يَعمَلُونَ بِشيءٍ مِمّا فِيها»[1]. يعني اخشوا يوماً تكونوا مثلهم.

وقد وردت تعبيرات في غاية الأهميّة فيما يتصل بأهميّة القرآن الكريم في النصوص القرآنيّة والروايات الإسلاميّة، فنقرأ في خطب نهج البلاغة كلاماً مطولاً وعميقاً في هذا الشأن وقد سبق أن ذكرناه في البحوث السابقة، ولكنّا نكتفي هنا بذكر مقطع من الخطبة ١٨٢ التي أوردناها في الجزء السابع من هذا الكتاب، وأنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يتأسف ويتأوه على فراق إخوته وأحبّته ويذكرهم بهذه العبارات: «أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ»[2].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في هذه الوصية ويتحدّث في التوصية الرابعة عن الصلاة ويبيّن أهميتها ويقول: «وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ».

وقد ورد هذا التعبير بعمود الدين بشكل واسع في روايات المعصومين عليهم السلام ومن

---

١. بهج الصباغة، ج ١١، ص ٨٠.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

ذلك ما ورد عن النّبي الأكرمﷺ أنه قال: «إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ صَحَّتْ نُظِرَ فِي عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ لَمْ يُنْظَرْ فِي بَقِيَّةِ عَمَلِهِ»[1].

ويبيّن الإمام الباقرعليه السلام هذا المعنى بشكل واسع ويقول: «الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ مَثَلُهَا كَمَثَلِ عَمُودِ الْفُسْطَاطِ إِذَا ثَبَتَ الْعَمُودُ ثَبَتَتِ الْأَوْتَادُ وَالْأَطْنَابُ وَإِذَا مَالَ الْعَمُودُ وَانْكَسَرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتِدٌ وَلَا طُنُبٌ»[2].

والدليل على ذلك أنّ الصلاة تربط الإنسان بالباري تعالى وتقوي فيه العلاقة بينه وبين ربّه وتحيي فيه روح التقوى والإيمان، ومن هنا فإنّها تردع الإنسان من اقتراف الفحشاء والمنكرات وتمنحه القدرة والقوّة على الإتيان بسائر الطاعات والعبادات الأخرىٰ، ومن هذه الجهة تبقى خيمة الدين منصوبة في حياة الإنسان المعنويّة، وأمّا ترك الصلاة فإنّه يقود الإنسان إلىٰ نسيان الله، والغفلة عنه ومن يغفل عن الله تعالى فإنّه يتلوث بكل عمل قبيح.

ثمّ يبيّن الإمامعليه السلام في التوصية الخامسة أهميّة الحج إلىٰ بيت الله، ويقول: «وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا».

وذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ جملة «لَمْ تُنَاظَرُوا» إشارة إلىٰ ابتعادكم عن نظر اللطف الإلهي بسبب عدم اهتمامكم ببيته، أو ابتعادكم عن نظرة تعظيم الناس لكم، بسبب تفرّق المسلمين وضعفهم فيما لو تركوا البيت الحرام، ولكنّ الظاهر أنّ المراد من التناظر في هذه العبارة هو الإمهال، وذلك إشارة إلىٰ أنّ المهلة الإلهيّة ستنقضي وسيحل عليكم العذاب[3].

---

١. التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٧، ح ٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢١٨، ح ٣٦.

٣. ذكر المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٥١، وجماعة من شرّاح لنهج البلاغة معنى الجملة كما ذكرناه في المتن، وبهذا المعنى ورد في مجمع البحرين، ولكن جماعة من الأكابر كالفيض ←

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِماً مَا قَامَتِ الْكَعْبَةُ»[١].

والروايات الشريفة التي تتحدّث عن أهميّة الحج وزيارة بيت الحرام إلىٰ درجة من الكثرة والاستفاضة أنّها خارجة عن إطار هذا المختصر، فنكتفي هنا بذكر جملة واحدة من هذه الروايات كخاتمة لهذا البحث:

يقول أحد أصحاب الإمام الصادقعليه السلام: قلت لأبي عبدالله: إنّ رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال (من الجهة الماليّة أو البدنيّة) فأشرت إليه أن لا تحج، فقالعليه السلام: «مَا أَخْلَقَكَ[٢] أَنْ تَمْرَضَ سَنَةً»، قَالَ: فَمَرِضْتُ سَنَةً[٣].

حكي عن رجل السياسة في بريطانيا ويدعى (غلادستون) أنّه قال: مادام المسلمين يقرأون القرآن ويطوفون بالكعبة ويذكروا اسم محمّد كلّ صباح ومساء على المآذن، فإنّ النصرانيّة في خطر محدق، فعليكم أن تحرقوا القرآن وتهدموا الكعبة وتمحو اسم محمّد من الآذان.

وفي التوصية السادسة يقول الإمامعليه السلام: «وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ».

والمراد من الجهاد بالأنفس، الحضور في ميادين القتال والتصدي لأعداء الإسلام والمسلمين للحفاظ على الإسلام والبلدان الإسلاميّة في مقابل تحديات الأعداء وعدوانهم، وأمّا الجهاد بالأمول فيتمثّل بالمساعدات المادية والماليّة لتعبئة الجيوش الإسلاميّة في الأزمنة القديمة ومدّها بالمؤن والعتاد اللازم، وفي هذا العصر يشمل الجهاد بالأموال جميع أشكال المساعدات فيما يتصل بالأمور الثقافيّة والاجتماعيّة

---

☜ الكاشاني في الوافي، والمحقق السبزواري في ذخيرة المعاد، والسيّد أحمد العاملي في مناهج الأخيار في شرح الاستبصار فسّروا جملة: «لم تناظروا» بمعنى «لم تمهلوا».

١. الكافي، ج ٤، ص ٢٧١.

٢. ورد في بعض نسخ الوسائل «ما أخلفك».

٣. الكافي، ج ٤، ص ٢٧١، ح ١.

والاقتصاديّة لتقوية دعائم الإسلام في واقع المجتمعات الإسلاميّة، وأمّا الجهاد باللسان فيتمثّل بالدفاع المنطقي والخطاب العقلاني والتبليغ المستمر لنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، واليوم يستفاد في هذا السبيل من جميع وسائل الارتباط الجمعي في العالم والأجهزة الحديثة في هذا الشأن.

ويعتبر الجهاد قانوناً عاماً في عالم الطبيعة، لأنّ جميع الموجودات الحيّة، سواءً من النباتات أو الحيوانات والأحياء الأخرىٰ تتحرك في مواجهتها للموانع والمعيقات بآلية الجهاد لتستمر في حياتها وتزيح المعيقات من أمامها.

وفي طبيعة الخلقة في هذا العالم، فإنّ كلّ موجود يستبطن في ذاته آفة ونقصاً، ولو لم يناضل ويكافح من أجل التغلب على تلك الآفة فإنّه سرعان من يصيبه العطب ولا يمكنه الاستمرار في حركة التكامل وإدامة الحياة.

إنّ جذور الأشجار، ولغرض الحصول على الماء والغذاء، تتجه دائماً إلىٰ أعماق الأرض، وعند وصولها إلىٰ مانع كالحجر فإنّها تحاول النفوذ فيه وتحطيمه أو الالتفاف عليه والاستمرار في حركتها، وأحياناً نرى أنّ الجذور الرقيقة للنباتات تنفذ إلىٰ الموانع الصلبة وحتى الفولاذية وتثقبها.

ولا نبتعد كثيراً فإنّ أبداننا تعيش حالة الجهاد في الليل والنهار، لأنّ الميكروبات تنفذ إلىٰ البدن من أربع طرق: الماء، الهواء، والغذاء، والجلد (في حال وجود جرح أو خدش)، فلولا وجود القوى الدفاعية للبدن المتمثّلة في خلايا الدم البيضاء وتصديها لهذه المكروبات فربّما يصاب الإنسان في يوم واحد بأنواع الأمراض والأسقام، ولكنّ هذا الجهاد الصامت والعميق هو الذي يحفظ لنا سلامتنا وصحتنا.

والمجتمعات التي لا تتحرك في خط الجهاد والتصدي للأعداء فإنّها ستواجه في مدّة قصيرة الهلاك والفناء، أو تنحدر نحو الضعف والذلة والمهانة.

ونقرأ في حديث عن النّبي الأكرمﷺ أنّه قال: «مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللهُ ذُلّاً وَفَقْراً فِي مَعِيشَتِهِ وَمَحْقاً فِي دِينِهِ» ثمّ قال: «إِنَّ اللهَ أَعَزَّ أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا وَمَرَاكِزِ

رِمَاحِهَا»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «وَاللهِ مَا صَلَحَتْ دُنْيَا وَلَا دِينٌ إِلَّا بِهِ (بالجهاد)»[2].

وبالنسبة لأهميّة الجهاد فقد تحدّثنا في البحوث السابقة عن هذا الموضوع، ومن ذلك ما ورد في ذيل الخطبة ٢٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام توصياته لبنيه وشيعته ويأمرهم بأربعة أمور مهمّة، ويقول في البيان الأوّل والثاني: «وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ».

ثمّ يطرح البيان الثالث والرابع ويقول: «وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ».

«تواصل» من مادة «وصل»، ويشمل كلّ أشكال الإرتباط المعنوي والمادي والعقلاني والعاطفي، أمّا «تباذل» فهو من مادة «بذل» وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ إحدى طرق تمتين العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، البذل والمعونات المادية للمحتاجين والإنفاق على الآخرين بما يحقق لأفراد المجتمع التكاتف وتوثيق العلاقة فيما بينهم.

«تدابر» من مادة «دَبر» (على وزن عبد) يعني الإعراض عن الآخر إظهاراً للكراهية والعداوة، لأنّ المعرض عن الآخر يعطيه ظهره، و«تقاطع» يراد به كلّ أشكال قطع العلاقة مع الآخرين، وهاتان المفردتان تقعان على الضد من المفردتين الأوليتين وهما من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ التدابر يعني الإنفصال الكامل، والتقاطع يشمل كلّ نوع من قطع الرابطة.

إنّ مسألة توثيق علائق المودّة والمحبّة بين الأفراد تارة تكون باللسان وأخرى عن طريق اللقاءات والزيارات المتبادلة، وهي مسألة في غاية الأهميّة في التعاليم الإسلاميّة، كما أنّ الكراهية والتنافر وقطع العلاقات مذموم في نظر الإسلام، وقد

---

١. تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٢٣، ح ٨.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٨، ح ١١.

وردت أحاديث كثيرة في ذم الهجران والتنافر في المنابع الروائية المعتبرة، وأحياناً يشعر القارىء لها بقشعريرة لشدّة مضامينها.

وقد أورد المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً شريفاً عن الإمام الصادقعليه‌السلام عن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمَيْنِ تَهَاجَرَا فَمَكَثَا ثَلَاثاً لَا يَصْطَلِحَانِ إِلَّا كَانَا خَارِجَيْنِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَايَةٌ فَأَيُّهُمَا سَبَقَ إِلَى كَلَامِ أَخِيهِ كَانَ السَّابِقَ إِلَى الْجَنَّةِ يَوْمَ الْحِسَابِ»[1].

ونقرأ في هذا الكتاب أيضاً رواية عن الإمام الصادقعليه‌السلام أنّه قال: «لَا يَزَالُ إِبْلِيسُ فَرِحاً مَا اهْتَجَرَ الْمُسْلِمَانِ فَإِذَا الْتَقَيَا اصْطَكَّتْ رُكْبَتَاهُ وَتَخَلَّعَتْ أَوْصَالُهُ وَنَادَى يَا وَيْلَهُ مَا لَقِيَ مِنَ الثُّبُورُ»[2].

بل يمتد الأمر إلىٰ أبعد من ذلك، فالشخص الذي يرى نفسه مظلوماً وأنّ الطرف الآخر ظالم له يجب عليه أيضاً السعي لتطوير الرابطة معه والسعي للتصالح وإزالة غبار وافرازات الظلم، كما نقرأ هذا في حديث آخر في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادقعليه‌السلام أنّه قال: «لَا يَفْتَرِقُ رَجُلَانِ عَلَى الْهِجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبَرَاءَةَ وَاللَّعْنَةَ وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلَاهُمَا فَقَالَ لَهُ مُعَتِّبٌ جَعَلَنِيَ اللهُ فِدَاكَ هَذَا الظَّالِمُ فَمَا بَالُ الْمَظْلُومِ قَالَ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صِلَتِهِ»[3].

وهذه إشارة إلىٰ لزوم التحرك على مستوى حلّ المشكلة بصورة سلميّة ومنطقيّة فيما بينهما.

ثمّ إنّ الإمامعليه‌السلام يشير إلىٰ التوصية التاسعة والعاشرة في كلامه يقول: «لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، ح ٥.

٢. المصدر السابق، ص ٣٤٦، ح ٧.

٣. المصدر السابق، ص ٣٤٤، ح ١.

هنا ربّما يطرح هذا السؤال نفسه: هل هناك رابطة معنويّة وغيبيّة بين حكومة الأشرار وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم توجد رابطة ظاهريّة وملموسة بينهما؟

الظاهر أنّه من الممكن إثبات العلاقة بينهما بصورة منطقيّة، لأنّ أحد المصاديق المهمّة للأمر المعروف والنهي عن المنكر تتمثّل في التصدي لقوى السلطة والحكومة فيما لو إرتكبوا مخالفات شرعية ودستورية، فيجب على عامّة الناس تذكيرهم بواجباتهم ومطالبتهم للحكّام العمل وفق مقتضيات العدل والشرع، فلو أنّ الناس تركوا هذين الأمرين ووجد الحكّام أنفسهم أحراراً في ما يتصرفون وفيما يسلكون دون أي اعتراض من أحد عليهم، فذلك من شأنه أن يزيدهم جرأة وجسارة على التوغل في خط الانحراف والظلم، وبالتالي يتسلط الأشرار على المجتمع الإسلامي.

ولكن لماذا لا يستجاب الدعاء لرفع شرّ حكّام الجور والشرّ؟ فذلك لما ورد في الروايات الإسلاميّة أنّ المصيبة والبلاء إذا كان بسوء اختيار الإنسان نفسه وتقصيره، فالدعاء لرفعه لا يكون مستجاباً ويقال له: هذه نتيجة أعمالك، لماذا تصرفت مثل هذا التصرف وارتكبت العمل الفلاني الذي تسبب لك بهذه العاقبة السيئة؟

والملفت للنظر ما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ الأخيار أيضاً في مثل هذه الظروف إذا دعوا لا يستجاب لهم: «**فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ**»[1].

## تأمل

## أهمّية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وردت بحوث كثيرة وموسعة في النصوص القرآنيّة والروايات الشريفة بالنسبة لأهميّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونكتفي هنا بذكر روايتين في هذا الشأن: جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ**

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٦، ح ٣.

الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهَاجُ الصُّلَحَاءِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ وَتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ»[1].

وجاء في ذيل هذا الحديث أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلىٰ شعيب النّبي عليه السلام أنّي معذّب من قومك مائة ألف نفر، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال شعيب عليه السلام: ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي»[2].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللهِ فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللهُ وَمَنْ خَذَلَهُمَا خَذَلَهُ اللهُ»[3].

والتعبير بـ «خلقان» في الواقع نوع من التشبيه، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد منه الخلق (بضم الخاء) ويعني الخصلة في ذات الإنسان، ولكنّ هذا الاحتمال بعيد ظاهراً بقرينة ما ورد في ذيل الحديث.

وعلى أيّة حال فإنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي أكّدت عليها التعاليم السماوية وعمل بهذه الوظيفة الأنبياء والأولياء الإلهيين وقد أمروا جميع الناس بأداء هذه الوظيفة الشرعية.

وفي ختام هذا المقطع من هذه الوصيّة، لأبدّ من الإعتراف بصراحة أنّ هذه التوصيات العشر المذكورة أعلاه لو تجسدت في حياة المسلمين على مستوى التطبيق والممارسة فإنّها تضمن لهم العزّة والقدرة والرفعة في الدنيا، والسعادة الأبديّة في الآخرة ولا يتوقع من شخصيّة نموذجيّة كأميرالمؤمنين عليه السلام في وصيّته وهو على فراش الشهادة غير هذه التوصيات التي تتضمن سعادة الدنيا والآخرة للمسلمين.

❧

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٥، ح ١.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق، ص ٥٩، ح ١١.

## القسم الرابع

**ثُمَّ قَالَ:**

**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي. انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ».**

## الشرح والتفسير

### توصية الإمام عليه السلام المؤكدة حول قاتله!

في هذا المقطع الأخير من هذه الوصيّة يتوجّه الإمام عليه السلام بكلامه نحو أقربائه وأرحامه من أبناء عبدالمطلب ويوصيهم بثلاثة أمور مهمّة فيما يتصل بقاتله، وهذا يعكس عظمة الإمام عليه السلام وسعة صدره تجاه أعدائه ومناوئيه.

بداية يقول: «ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ[1] تَخُوضُونَ[2] دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي».

ومثل هذه المسألة تحدث كثيراً على إمتداد التاريخ، عندما يقتل زعيم كبير أو ملك من الملوك فإنّ جماعة من أتباعه يسلكون سبيل التعصب والانتقام ويقومون بمجزرة كبيرة، وجماعة أخرى تغتنم الفرصة لتسوية حسابتهم الشخصيّة من

---

١. «ألفينكم» من مادة «لفو» على وزن «لهو» في الأصل بمعنى فصل الشيء عن غيره، مثل فصل اللحم عن العظم، والفاء هنا بمعنى العثور على الشيء فجأة.

٢. «تخوضون» من مادة «خوض» في الأصل بمعنى الغمس في الماء، ثمّ أطلقت على الدخول العميق والتوغل في كلّ شيء حتى في البحوث العلمية.

مخالفيهم فيكثروا فيهم القتل وسفك الدماء بهذه الذريعة، كما ورد في التاريخ الإسلامي عندما قام أتباع الخليفة الثاني بعد مقتله على يد أبي لؤلؤة بالانتقام له من ذويه وأقربائه وقتلوا عدداً منهم، وكذلك عندما قتل مصعب بن الزبير أخا عبيدالله بن زياد، فنذر عبيدالله أن يقتل مائة نفر من قريش، فقتل منهم ثمانين نفر، ثمّ أخبروه بأنّ مصعب قد قتل ثمّ بعث برأسه إلىٰ عبدالملك، فهدأت نفسه حينذاك[1]، ولكن الإمام عليه السلام برؤيته الحكيمة وأُفقه الواسع وقف أمام هذا العمل، ولذلك لم تحدث بعد استشهاده تسوية حسابات شخصيّة باسمه ولم يتعرض المجتمع في ذلك الوقت لمثل هذه الحوادث الدامية والفوضى المدمرة.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مع أقربائه ويصدر الأمر الثاني لهم ويقول: «انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ».

والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يوصي بإقامة العدل بالنسبة لقاتله حتى في كيفية القصاص، لئلا يتحرك شيعته بدافع التأثر الشديد على مقتله ويعاملون قاتله بالقتل الفجيع والمثلة ولا يكتفوا بالقصاص العادل.

وقد سبق وأن قرأنا في الكتاب رقم ٢٣ أنّ الإمام عليه السلام يقول: «إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ فَاعْفُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ».

ونستوحي من هذه العبارات أنّ الإمام عليه السلام كان راغباً في العفو عن قاتله ولكن الظروف والمستجدات في ذلك المحيط الاجتماعي لا تسمح قطعاً بالعفو عن القاتل، ولذلك يوصي الإمام عليه السلام هنا بالحدّ الأدنى من القصاص.

والجدير بالذكر ما ورد في «تاريخ الطبري» وكذلك في «الكامل» لابن الأثير، أنّ قاتل الإمام علي عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم قال قبل استشهاد الإمام عليه السلام: شحذته ـ سيفي هذا ـ أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه، فقال الإمام عليه السلام له:

---

١. أنظر: شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ١١، ص ٨٧.

«أَنتَ أَشقَىٰ خَلقِ اللهِ وَقَدْ قَتَلْتَ نَفسَكَ بِسَيفِكَ»[١].

ثمّ يوصي الإمام عليه السلام بوصيّته الثالثة والأخيرة ويقول: «وَلَا تُمَثِّلُوا[٢] بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[٣]».

إنّ المثلة بوصفها حالة إنتقامية وغير إنسانيّة كانت متداولة في عصر الجاهليّة، ولذلك قام العرب المشركون في معركة أُحد بقتل حمزة سيّد الشهداء وعمّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث لم يكتف العدو بقتله بل شّق صدره بوحشيّة وقساوة فظيعة وأُخرج كبده أو قلبه وقطع أُذنه وأنفه، وعندما شاهد رسول الله صلى الله عليه وآله شهادة عمّه حمزة بن عبدالمطلب، تألم لذلك كثيراً وقال: «اللّهمّ لَكَ الحَمدُ وَإليكَ المُستَعانُ عَلى ما أرىٰ» ثمّ قال: «لَئِن ظَفَرتُ لأُمَثِلنّ وَلأمَثِلَنّ وَلأمَثِلَنّ» وعلى رواية أخرى أنه قال: «لأمَثِلَنّ بِسَبعِينَ مِنهُم» فنزلت الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[٤]. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أصبرُ أصبرُ»[٥] (يعني ولا أنتقم).

ونعلم جيداً أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد فتح مكّة كان يملك القدرة الكاملة على الانتقام من أعدائه والمجرمين بأشدّ أنواع الانتقام ولكنّه آثر العفو والصفح عنهم، أضف إلىٰ ذلك ما ورد في حديث عن أحد الصحابة أنّه قال: «مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله خُطبَةً أَبداً إِلَّا أَمَرَنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ وَنَهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ»[٦].

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١١١؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٣، ص ٣٩٠.

٢. «تمثّلوا» من مادة «مثل» على وزن «أصل» بمعنى قطع وفصل أعضاء البدن في العقوبة.

٣. «عقور» بمعنى المتوحش والهاري، وهي صيغة مبالغة من مادة «عقر» على وزن «عقد» بمعنى إصابته بجرح، وهذه المفردة تستخدم غالباً في الكلاب، ولكن أحياناً تطلق على حيوانات أخرى.

٤. سورة النحل، الآية ١٢٦.

٥. التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٢٦ من سورة النحل، نقلاً عن تفسير العياشي والدر المنثور والميزان.

٦. بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢١٦، ح ٤.

٤٨

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلى مُعاوِيَة[١]

### نظرة عامّة للرسالة

بداية لابدّ من الإشارة في شأن صدور هذه الرسالة كما ذكر ذلك صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة وأنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في أحد أيّام معركة صفين حيث اشتد فيه القتال، وضع عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله على رأسه وقال: أيّها الناس من أراد أن يتعامل مع الله في هذا اليوم فليستعد، فقام معه عشرة آلاف نفر أو أكثر فاستعدوا للقتال مع الإمام، ثمّ إنّ الإمام عليه السلام قرأ أبياتاً من الشعر الحماسي وهجم على جيش الشام، وكذلك حمل مَن معه حملة رجل واحد وشقّوا صفوف جيش الشام، فعندما رأى معاوية هذا الحال ركب جواده واستعد للفرار، ولكن عمرو بن العاص أوصاه بأن يرفع المصاحف على الرماح ويدعو جيش الإمام عليه السلام بالخضوع لحكم القرآن،

---

١. سند الرسالة:
ذكر هذه الرسالة نصر بن مزاحم في كتاب صفين، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم في كتابه عن ابن دَيزيل وكلاهما كان يعيشان قبل السيّد الرضي، وكذلك ذكر أحمد بن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح وكان أيضاً قبل السيّد الرضي وأوردها بشكل أكثر تفصيلاً ممّا أورده السيّد الرضي، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٣ و ٣٨٤).

وهذا الأمر أدى إلىٰ وقوع الاختلاف في صفوف جيش العراق، وفي ذلك الوقت كتب معاوية كتاباً للإمام علي عليه السلام وخلاصته: لقد طالت بنا الحرب وكل واحد منّا يرى الحقّ بجانبه، وقد قتل جماعة كثيرة من الناس وإنّي أخاف أن يكون المستقبل أسوء من ذلك وسنكون غداً مسؤولين أمام الله عن هذا الأمر، فإناّ أدعوك لما فيه صلاح الأُمّة وحفظ دمائها ودفع الفتنة والعداوة، وذلك أن نختار رجلين ممن نرضاهما لأمر التحكيم أحدهما من أنصاري والآخر من أنصارك ليحكموا طبقاً لحكم الله فاتق الله وارض بحكم القرآن والسلام.

فكتبَ إليه الامام عليه السلام في مقام الجواب هذه الرسالة، التي تشتمل على نصائح لمعاوية وتحذيره من عاقبة أعماله التي ستقوده للندم والخسران، وهذه هي عاقبة كلّ مَن سار في خط الشيطان وأذعن لدعوته وسلّم زمام أموره بيده.

وفي القسم الآخر من هذه الرسالة، يعلن الإمام عليه السلام قبوله بمسألة حكمية القرآن، لا من أجل دعوة معاوية، بل بسبب عظمة القرآن وحرمته.

٨٠٠٣

وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ. وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ.

## الشرح والتفسير

### نصيحة جامعة لمعاوية

يشير الإمامعليه السلام في هذه الرسالة الموجزة والعميقة المعنى إلىٰ عدّة نقاط مهمّة ذكّر بها معاوية بأنّه إذا استمع لنصيحة الإمامعليه السلام من كلّ قلبه وتحرك على مستوى العمل لتطبيقها فإنّه لم يكن ليحدث كلّ هذا الفساد في العالم الإسلامي وسوف لا يتسنى لشجرة بني أُميّة المشؤومة في النمو والرشد في البلاد الإسلاميّة المقدّسة.

بداية يتحدّث الإمامعليه السلام في نصيحته بشكل عام ويقول: «وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ[1] يُوتِغَانِ[2] الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ».

أجل، لا شيء أشنع وأسوء من الظلم والكلام الباطل، لأنّه يخدع الإنسان ويوقعه

---

١. «الزور» على وزن «كور» في الأصل من مادة «زور» على وزن «غور» وتعني القسم العلوي من الصدر، ثم أطلقت على كل شيء ينحرف عن الحد الوسط، وبما أنّ الكلام الباطل منحرف عن الحق يقال له «زور»، وشهادة الزور تعني شهادة الكذب والباطل.

٢. «يوتغان» من مادة «وتغ» على وزن «وجب» بمعنى هالك وفاسد، وعندما تأتي من باب الأفعال تعني إهلاك وإفساد.

في وداي الهلكة والمتاهة بحيث لا طريق له للعودة للإيمان والصلاح وبالتالي سيخسر دينه ودنياه، وسيفتضح لدى عامّة الناس ويعرفونه بالفساد والإفساد.

وفي النقطة الثانية يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ».

يعتقد الكثير من شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه الجملة إشارة إلىٰ مطالبة معاوية بدم عثمان، لأنّ الأشخاص الذين رجحوا السكوت وتركوا نصرة عثمان فهم شركاء في قتله، ولكنّهم ومن أجل التشويش على العوام وتحميقهم والتوصل إلىٰ مآربهم الدنيئة رفعوا لواء الثأر لدم عثمان وطلبوا من الإمام عليه السلام أن يسلّمهم قتلة عثمان ليقتصوا منهم، ولكن الإمام عليه السلام يقول: إنّك بهذا العمل لن تصل إلىٰ مقصودك وأنت وأعوانك شركاء في قتل عثمان ولا يمكنكم المطالبة بدمه والقصاص من قتلته.

ويحتمل أيضاً في معنى هذه العبارة أنّ المراد من جملة «مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ»، هو حكومة الشام التي يطالب بها معاوية من الإمام عليه السلام، فالإمام عليه السلام يقول: إنني لا أسمح لك أبداً بتولي حكومة الشام، والشاهد على هذا الاحتمال ما ورد سابقاً في الرسالة رقم ١٧.

وهناك احتمال آخر أيضاً طرحه بعض الشرّاح في هذا المورد، وهو أنّ الإمام عليه السلام يقول: أنت لن تصل إلىٰ مرادك من الدنيا وأنّ حكومتك مع ما فيها من الحوادث والمشكلات ستمر بسرعة وتقودك إلىٰ الهلكة، والشاهد على هذا المعنى ما أورد بعض المؤرخين في نقلهم لهذه الرسالة من جملة قبل هذه الجملة حيث يقول الإمام عليه السلام فيها: «فَاحْذَرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا فَرَحَ فِي شَيْءٍ وَصَلْتَ إِلَيْهِ مِنْهَا وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُه...»[1].

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في النقطة الثالثة من رسالته محذّراً معاوية لينتبه من غفلته ويقول: «وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا[2] عَلَى اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ».

---

١. أنظر: بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٥٣٧.

٢. «تألوا» من مادة «اليّة» على وزن «عطية» بمعنى القسم واليمين، وعندما تأتي من باب تفعّل (كما في مورد

ويرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه الجملة إشارة إلىٰ طلحة والزبير وأنصارهما الذين أشعلوا نار حرب الجمل للتوصل إلىٰ مقام الخلافة وسدة الحكم، فهؤلاء تعاهدوا فيما بينهم بأنّهم لا يتركوا هذا الأمر حتى يحصلوا على حكومة البصرة وإن استطاعوا أكثر من ذلك فإنّهم يوسعون سلطانهم على المناطق الأخرىٰ، ولكنّهم بأجمعهم أخفقوا في تحقيق مبتغاهم وقد قتل زعماؤهم وانهزم الباقون، أمّا عائشة التي كانت من قادة هذه الفتنة والحرب، فقد عفى عنها الإمام عليه السلام وعادت إلىٰ المدينة في حالة الخجل والندم، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «فَأَكْذَبَهُمْ»، تعني أنّ الله تعالى فضحهم وأكذب أحدوثتهم وأبرز خديعتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في النقطة الرابعة يحذّر معاوية ويذكّره بقيام الساعة وأنّه سيرى عاقبة أمره وأعماله في ذلك اليوم، يقول: «فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ[1] فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ[2] عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ[3] الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ[4] فَلَمْ يُجَاذِبْهُ».

أجل، في ذلك اليوم يفرح الصالحون ويغتبط المؤمنون، ولكنّهم في الوقت نفسه يتأسفون على ما فاتهم من أيّام وساعات لم يعملوا فيها عملاً صالحاً ولم يزدادوا من الصالحات والخيرات، أمّا الأشرار فإنّهم سيعيشون الندم الشديد بسبب إرتكابهم للسيئات ولما يرونه أمام أعينهم من عذاب أليم على ما إجترحوه في الدنيا.

ويطلق القرآن الكريم على يوم القيامة بأنّه «يوم الحسرة» ويقول: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ

---

البحث) تعني صدور القسم من الطرفين، وفي بعض نسخ نهج البلاغة ورد كلمة «تأولوا» بدلاً من هذه المفردة، وهنا تعني التفسير بالرأي، يعني أنّ جماعة ولغرض التوصل إلىٰ غاياتهم يأولون آيات القرآن وفقاً لميولهم وأهوائهم النفسانيّة.

١. «يغتبط» من مادة «غبطة» وتعني الفرح والسرور، وأحياناً تأتي بمعنى الحسد، (ولكن ليس الحسد بمعنى السلبي يعني تمني سلب النعمة من الآخر، بل بمعنى الحصول على النعم التي حصل عليها الآخرون).

٢. «أحمد» من مادة «حمد» بمعنى من يليق للمدح والثناء.

٣. «أمكن» من مادة «إمكان» وهنا جاءت بمعنى التسهل وتوفير وسائل العمل، وبالتالي السيطرة على الشيء أو الشخص.

٤. «قياد» تعني اللجام، من مادة «قيادة» أي الرئاسة والزعامة.

الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ويقول في الآية ٥٤ من سورة يونس: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدٰامَةَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ﴾.

وقد ورد في بعض نسخ نهج البلاغة كلمة «يغتبط» بصورة مبني للمجهول وتعني أنّ الصالحين سيقعون مورد غبطة الآخرين، وهذا التعبير أنسب مع مفهوم الغبطة.

ويواصل الإمامعليه السلام كلامه بعد النصائح المثيرة ويبيّن الهدف الأصلي من هذه الرسالة ويقول: «وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَىٰ حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ».

ومعلوم أنّ معاوية لم يكن من أهل القرآن، والشواهد التاريخيّة تدلّ علىٰ أنّه لم يكن يؤمن بالقرآن إيماناً سليماً، بل كان يتخذ القرآن وسيلة للخلاص من الهزيمة القطعية والتوصل إلىٰ أهدافه وغاياته المشؤومة.

جاء في كتاب «صفين»: عندما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح، قال أميرالمؤمنينعليه السلام: «عِبادَ اللهِ إِنّي أَحَقُّ مَنْ أَجابَ إِلىٰ كِتابِ اللهِ وَلٰكِنَّ مُعاوِيَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعاصِ وَابْنَ أَبي مُعيطٍ وَحَبيبَ بْنَ مُسْلِمَةٍ وَابْنَ أَبي سَرْحٍ لَيْسُوا بِأَصْحابِ دِينٍ وَلاٰ قُرآنٍ إِنّي أَعْرَفُ بِهِمْ مِنْكُمْ صَحِبْتَهُمْ أَطْفالاً وَصَحِبْتُهُمْ رِجالاً فَكانُوا شَرَّ أَطْفالٍ وَشَرَّ رِجالٍ»[2].

ويتبيّن من هذه العبارة أنّ الإمامعليه السلام لم يكن راضياً بمثل هذا التحكيم الكاذب للقرآن الكريم، ولكنّ جماعة من أنصاره وأتباعه الجهلة فرضوا على الإمامعليه السلام هذه القضية، وعندما شاهدوا العاقبة السيئة لهذا التحكيم ندموا على ذلك، والعجيب أنّهم اعترضوا على الإمام لقبوله أمر التحكيم!

***

١. سورة مريم، الآية ٣٩.

٢. صفين، ص ٤٨٩.

# ٤٩

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ مُعاوِيَة أيضاً[1]

### نظرة عامّة للرسالة

كما ورد في بحث سند هذه الرسالة فالمخاطب لها ـ كما يعتقد الكثير من المؤرخين والشارحين ـ هو عمرو بن العاص، وقد صرّح بهذا المعنى الدينوري في كتابه «الأخبار الطوال»، ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين»، أضف إلىٰ ذلك أنّ قسماً من هذه الرسالة قد حذفها السيّد الرضي عند انتقائه لبعض المواضيع منها ولكنّه يذكر بأنّ الإمامعليه السلام في ذلك المقطع المحذوف حذّر عمرو بن العاص بصراحة من اتّباعه لمعاوية.

وعلى أيّة حال، فالمخاطب لهذه الرسالة أيّاً كان، يتحدّث الإمامعليه السلام معه بكلامه البليغ ومواعظه المثيرة أن لا ينخدع بالدنيا، فالدنيا لا ترضي أصحابها أبداً فيما يطمعون للوصول إليه ويزداد حرصهم للتوصل إلىٰ مبتغاهم، وضمناً يوصيه الإمام بالاعتبار من تاريخ الأقوام السابقة.

---

١. سند الرسالة:

ذكر هذه الرسالة ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح، والدينوري (المتوفي ٢٨٢) في أخبار الطوال، ونصر بن مزاحم في كتاب صفين وكلّهم عاش قبل السيّد الرضي، وقال جماعة من المؤرخين وشرّاح نهج البلاغة بأنّ المخاطب لهذه الرسالة هو عمرو بن العاص (ولمزيد من التوضيح أنظر: مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٤).

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ! وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَىٰ حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ.**

## الشرح والتفسير

### الحرص على الدنيا لا يوصلك إلىٰ شيء!

في هذه الرسالة وبعد أن يحمد الإمام عليه السلام الباري تعالى ويثني عليه يلفت نظر المخاطب «سواءً كان معاوية أو عمرو بن العاص» إلىٰ أمور مهمّة.

بداية يقول: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا**».

لأنّ عمل الدنيا وسلوكها إلىٰ درجة من التعقيد والتنوع والمثير للتشويش بحيث إنّ الإنسان إذا اتّجه نحوها فإنّها ستشغله في جميع عمره ووقته حتى يغفل عن الاهتمام بسلامته وراحته والقيام بوظائفه تجاه زوجته وأبنائه وأصدقائه وأرحامه، وأكثر من ذلك تشغله عن أداء الفرائض الإلهيّة والتكاليف الشرعية، حتى يصل الأمر بأصحابها فيما لو كانوا من أهل الصلاة أن يؤدّوا صلاتهم في آخر وقتها ويفكرون في أثناء الصلاة في أمورهم الدنيويّة، ويستعجلون باتمامها بعيداً عن حالات التوجه القلبي إلىٰ الله تعالى في صلاتهم، وأحياناً يخرجون من بيوتهم في الصباح الباكر في طلب الدنيا وأبناؤهم يغطون في نوم عميق، وعندما يعودون في الليل يرون أطفالهم نيام كذلك. وهذه طبيعة أصحاب الدنيا وحياتهم.

وفي المقطع الثاني يتعرض الإمام عليه السلام لمسألة خطيرة وهي حالة الحرص لدى أصحاب الدنيا ويقول: «وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً[١] بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا».

وقد ورد في بعض الروايات تشبيه الدنيا بماء البحر المالح، الذي كلّما شرب منه العطشان إزداد عطشاً، وهذا ما ورد في حديث عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول: «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ ازْدَادَ عَطَشاً حَتَّى يَقْتُلَهُ»[٢].

ويتحدّث القرآن الكريم عن هذه الحالة ضمن قصّة بليغة تتلخص في أخوين متخاصمين جاءا إلى النّبي داود عليه السلام فقال أحدهما ﴿إِنَّ هٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ فَقٰالَ أَكْفِلْنِيهٰا وَعَزَّنِي فِي الْخِطٰابِ﴾[٣].

فحكم داود عليه السلام بينهما وقال: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ...﴾[٤].

هذه القصّة تشير إلى أنّ أصحاب الدنيا يعيشون الحرص والولع إلى درجة إلى أنّهم لا يرضون للآخرين أن يتملكوا أدنى شيء حتى لو كانوا إخوتهم. وكما يقول الشاعر:

زيادةُ المرءِ في دُنياهُ نُقصانُ ... وَربحهُ غير محض الخيرِ خُسرانُ
وَكُلُّ وجدانِ حظٍّ لاثبات لهَ ... فإنّ معناهُ في التّحقيقِ فُقدانُ
ياعامراً لِخرابِ الدّهرِ مُجتهداً ... باللهِ هلْ لِخرابِ العُمرِ عمرانُ
ياخادمَ الجسمِ كَمْ تَسعى لِخدمتِهِ ... فأنتَ بالنّفسِ لا بالجسمِ إنسانُ
وَذو القناعةِ راضٍ في معيشتِهِ ... وَصاحبَ الحرصِ إن أثرى فغضبانُ
هما رضيعا لبانٍ حكمةٍ وتُقى ... وَساكنا وطنٍ مالٍ وطغيانُ

---

١. «لهج» بمعنى العلاقة الشديدة والافتتان في مقابل شيء.
٢. الكافي، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٤.
٣. سورة ص، الآية ٢٣.
٤. سورة ص، الآية ٢٤.

وجاء في الحديث القدسي المعروف: «لَوْكَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَىٰ إِلَيْهِمَا ثَالِثاً وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنَ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ»[1].

وقال الشاعر:

| | |
|---|---|
| وَيـحَكِ يـا نَـفسُ دعـي | مَـا عِشتِ ذلّ الطّـمعِ |
| وَارضَـي بِـما جرىٰ بِـهِ | حُكـمُ القَـضاءِ واقـتَنعي |
| إيّـاكِ والمـيلَ إلى | شَـيطانكِ المُـبتَدعِ |
| واقـتَصدي واقـتَصري | كـي تَـرتَوي وَتَشبَعي |
| أيـنَ السّـلاطِينُ الأولى | مِـنْ حـميَرٍ وتّـبعِ |
| شَـادُوا الحُـصُونَ فَـو | قَ كُـلّ شَـاهِقٍ مُـرتفعِ |
| لَـم يَـبقَ مِـنْ دِيـارهِم | غـيرَ رِسُـومٍ خُشّـعِ |
| كَـفا بـذاك واعـظاً | وزاجـراً لِـمَن يـعي |
| حَسـبُكَ يـا نَـفسُ اقبلي | نُـصحي وِلا تُـضيّعي[2] |

وحالة الحرص في الحقيقة نوع من الجنون، لأنّ الكثير ممَن يعيشون هذه الحالة يملكون كلّ ما يمنحهم الرفاهية والراحة في الحياة بحيث إنّهم يستطيعون بما يملكونه من العيش إلىٰ آخر حياتهم بشكل جيد ومريح، ولكنّ جنود الحرص لا يدعهم يعيشون في راحة وتدعوهم باستمرار إلىٰ بذل مزيد من الجهد والتعب لتحصيل المزيد والمزيد بحيث إنّهم لو أُعطوا جميع ما في الدنيا لتمنّوا أن يكون لهم ما في السموات أيضاً.

ولذلك نقرأ في دعاء بعض الأئمّة المعصومين عليهم السلام: «أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»[3] وفي الحقيقة فالحرص يعتبر المنبع

١. روضة الواعظين، ج ٢، ص ٤٢٩.
٢. روضات الجنات، ج ٧، ص ٨٩ و ٩٠.
٣. الكافي، ج ٢، ص ٥٨٦، ح ٢٤.

الأصل لجميع المشكلات والمصاعب وما يترتب عليها من نتائج أليمة وعواقب سيئة.

ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «مَا فَتَحَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَهُ»[1].

وفي المقطع الأخير يقول الإمام عليه السلام: «وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ![2]».

أجل، فإنّه لا تمضي مدّة حتى يجد الإنسان نفسه وهو يودع ما تعب في تحصيله من الأموال النفيسة والمملوكات والأشياء الجميلة ويتركها جميعاً ويكتفي بحصّته من هذه الثروات وهي الكفن حيث يذهب معه إلىٰ قبره.

ويتحدّث القرآن الكريم عن قصور الفراعنة وما تركوه من بساتين ومزارع وعيون وقرى مزدهرة، ويقول: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[3].

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه في هذه الرسالة ويشير إلىٰ النقطة الرابعة: «وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ».

إنّ الاعتبار من مصير السابقين يعدّ من المسائل المهمّة التي ورد التأكيد عليها في القرآن الكريم وأحاديث نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وأئمّة الدين عليهم السلام.

يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[4].

وأساساً فإنّ قسماً مهمّاً من الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن تاريخ الأقوام السابقة ناظر إلىٰ هذه المسألة، لأنّه لا درس ولا عبرة أبلغ من دروس التاريخ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣١٩، ح ١٢.

٢. «أبرم» من مادة «إبرام» بمعنى لف الحبل وتقويته، ثمّ إمتد هذا المعنى ليشمل كلّ عمل محكم ومتقن، وضده النقض، ويعني فتح العقدة وإضعاف قوّة الشيء.

٣. سورة الدخان، الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

٤. سورة الحج، الآية ٤٦.

والحوادث الواقعة في طيات التاريخ البشري، ولكن الكثير من الناس، كما يقول القرآن الكريم يمرّون على هذه الآيات والآثار دون التدبر فيها وكسب العبرة منها، فيمرّون على آثار القدماء وأطلال الأقوام الغابرة لغرض النزهة والترويح عن النفس فقط، واليوم نرى أنّ صناعة السياحة تتسع وتزدهر وفي الغالب ينظر السيّاح إلى الآثار التاريخيّة بوصفها آثار فنية وتعكس حضارة أولئك القوم ومقدراتهم الفنية وإمكاناتهم العمرانيّة ويفتخرون بذلك دون أن يطالعوا مستقبلهم وما سيكون مصيرهم من خلال هذه الآثار والأطلال.

ﮩﮩﮩ

٥٠

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلى أمرائه على الجيش[1]

### نظرة عامّة للرسالة

تتشكل هذه الرسالة أساساً من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأوّل: يتحدّث الإمام عليه السلام عن حقّ الله تعالى على أولياء الأمور ومن بيدهم مقاليد الولاية والسلطة، فلا ينبغي أن تكون هذه القدرة والسلطة عاملاً لغفلتهم عن حاجات الناس وإبعادهم عنهم، بل ينبغي استثمار هذه القدرة للانفتاح على الناس والاقتراب منهم والسعي في قضاء حوائجهم.

وفي المقطع الثاني: يخاطب الإمام عليه السلام قادة جيشه ويقول: إنّني أحسبكم بطانتي وإخواني ولا أكتمكم سرّاً، (سوى الأسرار العسكرية والحربية) وأستشيركم في المسائل التي ليس فيها حكم إلهي مسلّم وأؤدي حقّكم كاملاً، وفي مقابل ذلك يجب

---

١. سند الرسالة:

ذكر هذه الرسالة قبل السيّد الرضي نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مع تفاوت يسير)، وبعد السيّد الرضي ذكرها الشيخ الطوسي في الأمالي مع اختلاف يسير أيضاً. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٧) ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرسالة قبل السيّد الرضي أبو جعفر الإسكافي (المتوفي ٢٢٠) في كتاب المعيار والموازنة، ص ١٠٣.

عليكم أن تتحركوا في خط الطاعة لأوامري التي تصبّ في خدمة الأُمّة الإسلاميّة ولا تتوانوا عن خدمة المسلمين ولا تمتنعوا عن أي تضحية وإيثار.

وفي المقطع الثالث: يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين سلكوا طريق المخالفة والعناد وتمردوا على طاعة إمامهم، ويهددهم بالعقوبة القاسية.

## القسم الأوّل

**مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ.**

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ.**

## الشرح والتفسير

### لا يبعدنّكم المقام عن الناس!

يتحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأوّل من هذه الرسالة إلىٰ زعماء جيشه بوصفهم «أصحاب المسالح» أي المحافظين للثغور ويقول: «مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ».

«المسالح» جمع «مسلحة» وتعني الحد والثغر، والحدود عادة هي المناطق التي تقع في أطراف البلاد، وربّما تتعرض لهجوم من قِبل العدو، ولهذا السبب فإنّ الحكومات تضع قسماً مهماً من قواتها المسلحة في هذه المناطق لتأمن من هجوم الأعداء المباغت على هذا البلد، وهذا التعبير يشير إلىٰ أنّ الاهتمام بالثغور وتحصين الحدود يعتبر من أهم وظائف القوات المسلحة والجيش في الإسلام.

ثمّ يشرع الإمام عليه السلام من نفسه ويبيّن حقوق الوالي بشكل عام، وفي المقطع الآخر يشير إلىٰ موارد خاصّة بالتحديد كشرح وبيان لهذا المجمل ويذكرها واحداً بعد الآخر.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يشير إلىٰ نقطتين مهمتين:

الأولى: قوله: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ[1] خُصَّ بِهِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الوالي أو القائد يجب أن يكون إلىٰ درجة من قوّة الشخصيّة وبناء الذات لا يغيّره المنصب ولا يضيع نفسه في حال وصوله إلىٰ القدرة ويحمله على العجب والغرور والأنانيّة، وبالتالي يعيش حالات الاستبداد والتفرعن كما هو الحال في غالبية زعماء الدنيا وقادتها الماديين، فإنّهم قبل وصولهم إلىٰ مسند القدرة والسلطة يتحدّثون للناس بكلمات لطيفة ويعيشون حالة البساطة والشعبية، ولكنّهم عندما يصلون إلىٰ مسند السلطة ينسون كلّ شيء وتبدأ حالات الاستبداد تتضخم لديهم، ولكنّ أولياءالله والأشخاص الذين يسيرون في خطهم مصونون من هذا الخطر.

في المقطع الثاني يضيف الإمام عليه السلام: «وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ».

وتشير هذه العبارة إلىٰ أنّ الإنسان الجالس في مسند الرئاسة والقدرة ليس فقط لا ينبغي له الاستبداد والابتعاد عن الناس بل بعكس ذلك يجب عليه كلّما إزدادت نعمة الله عليه أن يقترب من الناس أكثر فأكثر، ويتواصل معهم من مواقع المحبّة والشفقة وهم الذين يصفهم الإمام عليه السلام بأنّهم «إخوانه» لأنّ شكر هذه النعمة لا يتيسر إلّا من هذا الطريق.

وعلى هذا الأساس فالإمام عليه السلام يقرّ لمخاطبيه في البداية بحقّهم في مطالبة الإمام بأداء حقوقهم، ثمّ يبيّن الإمام في المقطع اللاحق من هذه الرسالة حقّه عليهم.

وقد ورد في كتاب «غررالحكم» عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَلَيْكُمْ فَاغْتَنِمُوهَا وَلَا تَمَلُّوهَا فَتَتَحَوَّلَ نِقَماً»[2].

---

١. «طَوْل» على وزن «قول» بمعنى النعمة ومن مادة «طُول» على وزن «نور» ويبيّن إمتداد الشيء، وبما أن النعم الإلهيّة تعتبر إمتداداً وجودياً لواهب النعم، فأطلقت هذه المفردة عليها.
وهذه الكلمة تطلق أحياناً على المقدرة الماليّة أو على كلّ مقدرة، و«أولو الطول» تعني الأثرياء من الناس.

٢. غرر الحكم، ص ٤٤٨، ح ١٠٣٠١.

## القسم الثاني

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ؛ وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ. وَالسَّلَامُ.

## الشرح والتفسير

### حقوق الإمام وحقوق القادة

في هذا المقطع من الرسالة يفصل الإمامعليه السلام ما أجمله وبيّنه بشكل عام ومغلق في المقطع السابق.

بداية يشير إلىٰ حقوق الرعيّة عليه ويؤكّد علىٰ خمسة حقوق، وأوّل هذه الحقوق يقولعليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ[1] دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ».

ومعلوم أنّ إخفاء الأسرار عن الأصحاب والأعوان يعدّ نوع من عدم الثقة والاعتماد عليهم، وفي الكثير من الموارد يتسبب في إساءة الظن أو خلق رؤى

---

١. «احتجز» من مادة «حجز» على وزن «عجز» ومعناه في الأصل المنع وإيجاد الفاصلة، ثمّ أطلقت على عملية الإخفاء والتستر الذي يمنع من مشاهدة الشيء أو الإطلاع عليه.

وتفاسير مختلفة لحادثة معينة، ولكن إذا كان الإمام عليه السلام أو القائد يتواصل مع أعوانه بشكل مستمر على مستوى إخبارهم بالحوادث الواقعة، فإنّ ذلك من شأنه توطيد عناصر الثقة وتقوية التعاطف فيما بينهم، فيتراجع سوء الظن والتشويش الذهني إلى الحد الأدنى، وطبعاً هناك موارد لابدّ للإمام والوالي من كتمان السر، وذلك في القضايا العسكرية وأمثالها، لأنّ العدو إذا علم بتفاصيل الخطط العسكرية للطرف المقابل فسيتدبر أموره ويستعد بشكل كامل للمقاومة وسيكون بإمكانه أن يحبط الخطة قبل الموعد المقرر، ومن هذه الجهة نرى أنّ القادة العسكرين على إمتداد التاريخ يخفون برنامجهم القتالي إلىٰ آخر لحظة ليتمكنوا من توجيه الضربات القاصمة إلىٰ العدو بالاستفادة من عنصر المباغتة.

وفي تاريخ حروب النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وغزواته نرى هذا الأصل بوضوح، وعلى حدّ قول المؤرخ المعروف الطبري: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله، قلّ ما يخرج في غزوة إلّا كنى وأخبر أنّه يريد غير الذي يسعىٰ له...[1]. يعني ما كان يخبر أصحابه وأنصار بمقصده وغايته النهائية.

وأحياناً كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد سفراً إلىٰ الحرب روّى بغيره، كما روى أنّه لمّا نوى غزوة بدر كتب للسرية كتاباً في المدينة، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلىٰ صوب مكّة يومين أو ثلاثة ثمّ ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه...[2]، ومعلوم أنّ النّبي لو كان يبيّن له في بداية الأمر مراده ومقصوده فإنّ هذا الخبر بدوره سينتشر ويشيع في كافّة أرجاء المدينة ويسارع الجواسيس في إيصال هذا الخبر إلىٰ العدو فيستعدون للقاء المسلمين وربّما تنقلب موازين المعركة ويتغير مصير الحرب.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في الحقّ الثاني للناس على الوالي ويقول: «وَلَا أَطْوِيَ[3]

---

١. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٦ وقائع سنة التاسعة للهجرة.

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ج ٥، ص ١٢٩.

٣. «أطوى» من مادة «طي» في الأصل تعني إخفاء الشيء، والمعنى الآخر لكلمة «طي» لفّ الشيء ومن هذه الجهة أطلقت على السير في الطريق «طي طريق» ولا يبعد أنّ كلا المعنيين يعودان لجذر واحد.

دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ».

وهذا هو أصل المشورة الوارد في القرآن الكريم والروايات الإسلاميّة بشكل واسع وهو ما يؤكّد عليه الخبراء وأصحاب الشأن السياسي في عالمنا المعاصر وإن كانوا يمارسون شيئاً آخر على مستوى العمل، فالمشورة مع الأصحاب والأنصار والأتباع يمنحهم قوّة في الشخصيّة واحساساً في المسؤوليّة وتحكيماً للروابط العاطفيّة، أضف إلىٰ ذلك أنّ المشورة تسبب (في غير المعصومين) إلىٰ التقليل من الأخطاء إلىٰ الحدّ الأدنى.

أمّا في مسألة القضاء وعند صدور الحكم، فيجب على القاضي أن يصدر حكمه بحزم وقوّة، وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ يَقُولُ لِمَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَلِمَنْ عَنْ يَسَارِهِ مَا تَرَى مَا تَقُولُ فَعَلَى ذَلِكَ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَلَّا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَتُجْلِسُهُمْ مَكَانَهُ»[1].

مضافاً إلىٰ ذلك إذا كان القاضي يفشي ما في ذهنه من الحكم الشرعي فربّما تتحرك عناصر مختلفة لتغيير رأيه أو توهينه وممارسة بعض الضغوطات عليه لإجباره على تغيير الحكم.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلىٰ الحقّ الثالث والرابع ويقول: «وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ».

والفرق بين هذين الحقّين يتبيّن من خلال مثال بسيط، فلو تقرر أن يؤذن لشخص بالسكن في دار لمدّة شهر واحد ومعين، فلا ينبغي تأخير إسكانه عن هذا الشهر، والآخر، أنّه لا ينبغي تقليص المدّة قبل انتهاء الشهر، ونتيجة كلا الأمرين أن تؤدّى الحقوق كاملة دون زيادة أو نقيصة.

وفي الحقّ الخامس والأخير يقول الإمام عليه السلام: «وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً».

---

١. الكافي، ج ٧، ص ٤١٤، ح ٦.

وطبعاً فمراد الإمام عليه السلام أنّ الوالي أو القائد يتعامل مع جميع الأفراد بشكل مساوٍ دون الأخذ بنظر الاعتبار مواقعهم الاجتماعيّة وامتيازاتهم المادية، وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الكلام لا يعني أنّه في حال اختلاف الظروف والمقامات فإنّ الأفراد يقفون على حدٍّ سواء أمام القائد، من قبيل أن يكون شخص أحد قواد الجيش، والآخر رجل عادي، وثالث والياً على منطقة، وآخر حارساً لبناية المحافظة، وآخر يتولى حراسة بناية حكوميّة، أو يكون أحدهم طبيباً والآخر مضمداً، أو يشتغل أحدهم بالأعمال الثقيلة ولأيّام متوالية ويتولى الآخر أعمالاً سهلة وفي مدّة قصيرة، فمن البديهي أنّ حقوقهم الماليّة لا تكون سواسية، ولكن إذا كان رجلان يعملان عملاً واحداً فيجب أن تكون أُجرتهم واحدة، رغم أنّ أحدهم من عائلة عريقة ومعروفة، والآخر رجلاً عادياً من عائلة غير معروفة.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الحقوق الخمسة للناس على القائد أو الإمام، تعرض لبيان حقوقه للناس وأشار إلىٰ أربعة حقوق.

الأوّل يقول: «فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ».

فعندما أُودي هذه التكاليف الحقوقيّة التي عليَّ تجاهكم فإنّ نعمة الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]، ستكون كاملة عليكم، ولي حقّ الطاعة عليكم، ويجب عليكم إطاعة أوامري التي تضمن لكم سعادة الدنيا والآخرة، وتحفظ مصالحكم الفرديّة والاجتماعيّة.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الحقّ الثاني ويقول: «وَأَلَّا تَنْكُصُوا[2] عَنْ دَعْوَةٍ».

إنّ هذا الأمر الثاني بالنسبة للأمر الأوّل من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ المخاطب في هذه الرسالة هم قادة الجيش، الذين ينبغي عليهم إطاعة أوامر الإمام وخاصّة فيما يتعلق بالدعوة إلىٰ الجهاد.

---

١. سورة المائدة، الآية ٣.

٢. «تنكصوا» من مادة «نكص» على وزن «مكث» تعني العودة من الشيء أو المكان، وبما أنّ التمرد وعدم الطاعة نوع من العودة عن طريق الطاعة، استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى.

ثمّ يشير الإمام‌عليه‌السلام إلىٰ الحقّ الثالث ويقول: «**وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ**».

الكثير من الأشخاص الذين يتحركون بحسب الظاهر في مسير الطاعة وتلبية دعوة الإمام والقائد، فإنّهم بسبب التكاسل والتواكل لا يحققون النتيجة المطلوبة، بل الإمام‌عليه‌السلام يعتبر هذا الأمر كحقّ مستقل من حقوق الوالي على الرعيّة ليعلم الجميع أن إطاعة الأمر شيء، واعتباره أمراً جديّاً شيء آخر.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ هذه الجملة إشارة إلىٰ مسألة الجهاد حيث أكّد الإمام‌عليه‌السلام على أنّ وظيفة قادة الجيش الاستفادة من كلّ فرصة لدفع الأعداء وترك حالة التكاسل والتقصير في هذا الشأن.

وأخيراً يبيّن الإمام‌عليه‌السلام الحقّ الرابع والأخير ويقول: «**وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ**[1] **إِلَى الْحَقِّ**».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ التضحية في مقام الدفاع عن البلد الإسلامي تعتبر وظيفة لازمة وتكليف واجب، أي التضحية إلى درجة بذل النفس في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ويعتبر هذا الأمر أحد الحقوق للوالي أو الإمام على قادة الجيش والمسؤولين الأمنيين فرداً فرداً.

تاريخ الإسلام زاخر بمظاهر الإيثار والتضحية وخوض الغمرات للوصول إلىٰ الحقّ، وكمثال على ذلك:

ما ورد في «تاريخ الطبري» في حوادث سنة ٣٧: أنّ عمّار بن ياسر خرج إلىٰ الناس فقال: اللّهم إنّك تعلم أنّي لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللّهم إنّك تعلم أنّي لو أعلم أن رضاك أن أضع ظُبّة سيفي في صدري ثمّ أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإنّي لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى

---

١. «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» في الأصل من غمر وبمعنى إزالة أثر الشيء، ثمّ استخدمت في الماء الكثير الذي يغطي جميع الوجه الشيء وظاهره، ويقال: غمرة وغامر، وفي العبارة أعلاه جاءت بمعنى أمواج الشدائد والمشكلات.

لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أنّ عملاً من الأعمال هو أرضىٰ لك منه لفعلته[1].

وجاء في «سيرة ابن هشام» أنّ النّبي الأكرم ﷺ أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم أن يمنعوا عيرهم ـ واتجهوا نحو «بدر» ـ فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش (وكان يروم من ذلك اختبار مدى استعداد أنصاره وأصحابه للقتال)... ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنواسرائيل لموسى: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[2]. ولكن إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلىٰ برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به، ثمّ قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيّها الناس، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم عدد الناس، وأنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يارسول الله إنّا برآء من ذمامك حتى تَصِل إلىٰ ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا، نمنعك ممّا نمنع أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلّا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلىٰ عدوٍّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله كأنّك تريدنا يارسول الله، قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عُهودنا ومَواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضته لخضناه معك ما تخلف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدوّنا غداً، فإنا لصُبّر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يُريك منّا ما تقرّ عينُك، فسِر بنا على بركة الله، فَسُر رسول الله بقول سعد ونشّطه ذلك...[3].

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٦.

٢. سورة المائدة، الآية ٢٤.

٣. سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦٦ و ٢٦٧؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٢، ص ١٢٠.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من كلامه يخاطب المتخلفين بلغة التهديد ليقرن البشارة مع الإنذار ويقول: «فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَىٰ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ[1] مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً».

وفي الواقع أنّ الإمام عليه السلام في هذا المورد يقرر عقوبتين للمتخلفين، عقوبة معنويّة وعقوبة ظاهرية، أمّا العقوبة المعنويّة فسقوط قدرهم ومقامهم عند الإمام عليه السلام إلىٰ درجة الحضيض، وأمّا العقوبة الظاهريّة فهي التعزير البدني الذي يقرره الإمام بحقهم، ومعلوم أنّ البشارة والإنذار لو لم يقترنا في أمر الإدارة والمسؤوليّة وخاصّة في إدارة الحرب والدفاع، فإنّها ستفقد مصداقيتها وفائدتها في ضبط الأمور.

وفي الختام يشير الإمام عليه السلام إشارة مختصرة ودقيقة فيما يتصل بما ذكر آنفاً ويقول: «فَخُذُوا هٰذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ. وَالسَّلَامُ».

وجملة «فَخُذُوا هٰذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ» إشارة إلىٰ الحقوق الخمسة التي بيّنها الإمام عليه السلام في مستهل كلامه أنّه يعطيهم الحقّ بأن يطالبوا هذه الحقوق من قادتهم وأُمرائهم، وجملة «أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..»، إشارة إلىٰ الحقوق الأربعة التي طالب بها الإمام عليه السلام منهم، وهي الحقوق التي تصب في صالحهم ومن أجل إصلاح أمورهم.

ونرى أنّ الإمام عليه السلام في هذا المورد يستخدم كلمة «أمراء» بصيغة الجمع، ويشير بذلك إلىٰ نفسه والقادة أو الأئمّة الذين سيأتون بعده بالحق، ويستلمون زمان الأمور بالحقّ، لا أنّ المراد قادة الجيش، لأنّهم هم المخاطبين بهذا الكلام.

---

[1]. «أعوجّ» من مادة «عَوج» على وزن «حرج» وتعني انحراف الشيء وميلانه و«عِوج» بكسر العين، اسم مصدر وتشمل كلّ أشكال الانحراف والاعوجاج، وتطلق أحياناً بمعنى الانحرافات المعنويّة والعمليّة وجاءت في العبارة أعلاه بهذا المعنى.

# ٥١

# ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ عُمّالِهِ عَلَى الْخِراجِ[1]

## نظرة عامّة للرسالة

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة إلىٰ عدّة نقاط مهمّة: ففي المقطع الأوّل يتحدّث الإمام عن الثواب المترتب على أتعاب وجهود الجامعين للخراج وما يتحملوه في هذا السبيل من مشقّة، ويتحدّث الإمام عليه السلام عن ذلك بوصفه ذخيرة يوم المعاد.

وفي المقطع الثاني من هذه الرسالة يوصي الإمام عليه السلام بشكل أكيد برعاية العدل والمحبّة للناس عند أخذ الخراج منهم وينهى عن أي شكل من الأشكال الإجحاف والتعدي والإضرار بهم، حتى بالنسبة لغير المسلمين الذين لا يعينون العدو على المسلمين يوصي الإمام أيضاً بهذه الوصية في حقّهم.

---

١. سند الرسالة:

ذكر هذه الرسالة قبل السيّد الرضي نصر بن مزاحم في كتاب صفين، بشكل رسالتين وقد وردتا في مكانين مختلفتين من هذا الكتاب مع تفاوت يسير عمّا أورده السيّد الرضي. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٨٩)، وكذلك ذكرها أبوجعفر الإسكافي الذي كان يعيش قبل السيّد الرضي في كتابه المعيار والموازنة، ص ١٢٢، ولكنّه ذكر مقاطع من هذه الرسالة تشبه الرسالة مورد البحث، ولكن يحتمل كونها رسالة أخرى، وفي كتاب تمام نهج البلاغة، ص ٧٧٦ توجد رسالة شبيهة لرسالة أبي جعفر الإسكافي.

وفي المقطع الأخير يدعوهم إلىٰ تقديم فروض الشكر على النعم الإلهيّة ولزوم نصرة الدين الإلهي بجميع ما لديهم من قوّة وقدرة.

ﷸﷷ

## القسم الأوّل

**مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:**

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ.**

## الشرح والتفسير

### حذارِ من ظلم الناس!

المراد بأصحاب الخراج هم المأمورون على جمع خراج الأراضي المفتوحة عنوة، وتوضيح ذلك: عندما ينتصر المسلمون على الأعداء فإنّ أراضيهم ستكون من الناحية العمليّة ملكاً للمسلمين، ولكن المسلمين في الغالب يدعون هذه الأراضي بأيد أصحابها الأصليين، وفي مقابل ذلك عليهم أن يدفعوا مبلغاً من المال أو مقداراً معيناً من محاصيل تلك الأراضي بوصفها ضريبة أو أُجرة تؤخذ منهم ولا يكون هذا المبلغ ثقيلاً وكثيراً عادة، وهذه المسألة بدأت منذ عصر النّبي الأكرمﷺ بفتح خيبر، ثمّ استمرت في الفتوحات الإسلاميّة الأخرى، ويشكل الخراج الجزء الأهم من بيت المال في ذلك الوقت، وهو مبلغ له شأن ويتعلق بجميع المسلمين، وطبعاً هناك عمّال ومسؤولون آخرون يتولون جمع الزكاة من المسلمين لتصرف على حاجات جيش الإسلام والقضاة والفقراء والمحتاجين.

والإمامعليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يؤكّد على عدّة أمور:

الأوّل: يحذّر الإمامعليه السلام أصحاب الخراج بأن لا يغفلوا عن العالم الآخر وما

سيسيرون إليه بعد الموت، فالغفلة عن هذا الأمر ستفقد الإنسان الاستعداد له، يقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا».

ونقرأ في الروايات الشريفة أنّ أعقل الناس هو الشخص الذي يفكر بما بعد الموت: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكْيَسَكُمْ أَكْثَرُكُمْ ذِكْراً لِلْمَوْتِ»[1]، وهذا يعني أنّ الإنسان ما لم يفكر في سفر الآخرة فإنّه لا يهيىء لنفسه وسائل هذا السفر الخطير وسيخرج من الدنيا خالي اليدين.

وفي الإمر الثاني يخاطب الإمام عمّاله على الخراج ويقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ».

هل أنّ مقصود الإمام عليه السلام من هذه العبارة سعي هؤلاء في جمع الخراج فقط، أم يشمل جميع التكاليف الواجبة على الإنسان؟ يحتمل كلا الأمرين، ومع الالتفات إلى أنّ الجملة السابقة عامّة وتشمل جميع الأعمال فإنّ الاحتمال الثاني أنسب حسب الظاهر، وهذا في الواقع إشارة إلى مضمون الآيات الشريفة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]، و ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[3].

أجل، فإنّ الله تعالى جواد وكريم وفي مقابل أعمالنا الصغيرة يعطينا الثواب العظيم.

وفي الأمر الثالث يشير الإمام عليه السلام إلى موضوع يتعلق بترك الظلم، ويقول: «وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ للظلم والجور عقوبة شديدة قطعاً، وفي تركه ثواب جزيل أيضاً، وعلى هذا الأساس ينبغي على الإنسان ترك مثل هذه السلوكيات الظالمة

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٨.

٢. سورة الحج، الآية ٧٨.

٣. سورة البقرة، الآية ١٨٥.

ليس فقط بسبب خوفه من عقوبتها، بل من أجل تحصيل الثواب على تركها أيضاً.

ونقرأ في الكلمات القصار للإمامعليه‌السلام في نهج البلاغة ما يشبه هذا المعنى والمضمون بتعبير أوسع وأبلغ حيث يقول: «لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ»[1].

## تأمّل

### ماذا يعني الخراج؟

كلمة «خراج» و«خرج» مأخوذة في الأصل من «خروج»، وتعني ما يتحصل من مال شخص أو من أرضه الزراعية، وذهب بعضهم إلىٰ أنّ كلمة «الخراج» تعني مال الإجارة للأراضي، يقول الراغب في كتاب «المفردات»: الخراج يطلق غالباً على الضرائب التي توضع على الأراضي الزراعية والبساتين، وعلي أيّة حال فإنّ هذه الكلمة في اصطلاح الفقهاء تعني الضرائب الموضوعة على الأراضي الخراجيّة، أي الأراضي التي أُخذت من الكفّار بالحرب والقتال، وأحياناً تطلق على ما يتحصل من الأراضي المزروعة التي تعتبر قسماً من الأنفال، والقسم الأوّل يتعلق بجميع المسلمين، والقسم الثاني يختص بالحاكم الإسلامي.

وجاء في بعض كتب أهل السنّة أنّ الخراج في اصطلاح الفقهاء له معنيان عام وخاص، فالخراج ـ بالمعنى العام ـ هو الأموال التي تتولى الدولة أمر جبايتها وصرفها في مصاريفها، وأمّا الخراج ـ بالمعنى الخاص ـ فهو الوظيفة أو (الضريبة) التي يفرضها الإمام على الأرض الخراجيّة النامية[2]، وأحياناً تطلق هذه الكلمة على الجزية من غير المسلمين أيضاً.

وبالنسبة لمصرف الخراج فقد ذهب فقهاء الشيعة إلىٰ أنّ الخراج يجب صرفه

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٩٠.

٢. الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ١٩، ص ٥٢.

لمصالح المسلمين العامّة، من قبيل بناء الجسور وحفظ الأمن والطرق ومساعدة الفقراء والمساكين ومركبات الجنود والمقاتلين والقضاة وقادة الجيش وسائر ما تحتاج الحكومة في إدارتها والعمل بمسؤولياتها[١].

وطبعاً يحدث كثيراً أنّ قسماً مهماً من الخراج يقسم بين المسلمين الحاضرين بشكل مساوي في الحكومات العادلة (مثل حكومة أميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام) وبصورة غير مساوية (مثل خكومة الخلفاء).

أمّا دليل التساوي في القسمة، فهو أنّ الأراضي الخراجيّة التي يجمع منها الخراج، ملك لعامّة المسلمين وجميعهم يشتركون في ملكيتها بشكل متساوٍ، والمراد من التساوي، عدم الفرق بين الأفراد بحسب مكانتهم الاجتماعيّة، بأنّ فلاناً شيخ قبيلة والآخر شخصيّة معروفة، وثالث عامل بسيط وما إلىٰ ذلك، بل يتمّ التقسيم حسب المسؤوليّات الملقاة على عاتق الأشخاص، من قبيل القضاء وقيادة الجيش وولاية المدن والمناطق وأمثال ذلك، فهذا ممّا يدعو للتفاوت قطعاً في أمر القسمة.

١. أنظر: جواهر الكلام، ج ٢٢، ص ٢٠٠.

## القسم الثاني

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ وَلَا تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلَا تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلَا عَبْداً، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

## الشرح والتفسير

### رعاية إنصاف في أخذ الخراج

يبيّن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة بعض جزئيات المسائل والأوامر والنواهي الخاصّة بالعاملين على جمع الخراج بعد أن ذكر سلسلة من الكليات في كلامه السابق.

بداية يقول الإمام عليه السلام: «فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ».

والمراد من «فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» كما ورد الروايات الشريفة، أن يرضا

الإنسان للآخرين ما يرضاه لنفسه ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، وبعبارة أخرى كما أنّه يحبّ أن يأخذ حقّه منهم فيجب عليه أن يعطيهم حقوقهم عليه أيضاً.

ونقرأ في رواية جاء رجل أعرابي النّبيﷺ وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز راحلته فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلاً أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»، فقال: «مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ»، قال ذلك وأضاف: «خَلِّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ» (أي أنّك حصلت على جميع ما تريد في هاتين الجملتين)[1].

ويشير الإمامعليه السلام في كلامه هذا إلىٰ ثلاثة مناصب لعمّال الخراج ويترتب عليها ثلاث مسؤوليّات مهمّة تقع على عاتقهم:

الأوّل: أنّهم «خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ» يعني الحافظون على أموال المسلمين لإنفاقها في مصاريفها، والآخر: أنّهم «وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ» وهذا يعني أنّ مسؤوليّتهم أخذ حقوق الناس من الأشخاص الذين وجب الحقّ عليهم في ذمّتهم بشكل كامل، والثالث:أنّهم «سُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ» إذ ينبغي لهم أن يتخلّقوا بأخلاق أئمّتهم ويسلكوا مع الناس مسلك أئمّتهم في التواصل الإنساني والتعامل الأخلاقي مع الناس، ومن هذا المنطلق فأخذ المال وكذلك حفظها والالتزام بالأخلاق الحسنة مع الناس تعتبر من مسؤوليّات العاملين على الخراج.

ثمّ ينهى الإمامعليه السلام هؤلاء العاملين عن ستة أمور، الأمر الأوّل، يقولعليه السلام: «وَلَا تُحْشِمُوا[2] أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ».

وهذا يعني أنّ الواجب عليكم أن تتعاملوا مع الناس بحيث لا يخجلون من

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٤٦، ح ١٠.

٢. «تحشموا» من مادة «احشام» وفي الأصل «حشم» على وزن «كرم» بمعنى إخجال الطرف الآخر، وعندما تأتي من باب الإفعال، تشير إلىٰ هذا المعنى أيضاً، وأحياناً تأتي بمعنى الاغضاب أيضاً، وفي الجملة أعلاه المعنى الأوّل أنسب، و «حشمت» على وزن «حكمت» تعني الحياء والخجل، وأحياناً بمعنى اللياقة أيضاً.

عرض حاجتهم عليكم، مثلاً إذا كانت بعض الشياه محببة لديهم، أو أنّ بعض المحاصيل الزراعية مورد اهتمامهم، فعليكم أن تسلكوا معهم بحيث يمكنهم إظهار مقاصدهم أمامكم وعليكم بأخذ الخراج والزكاة من مورد آخر.

أمّا النهي الثاني فيقول عليه السلام: «وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّهم لو كانت لديهم مطالب مشروعة في كيفية تقسيم الأموال وتقسيم الخراج، فينبغي مراعاتها والاستجابة لهم.

وفي النهي الثالث، يمنعهم الإمام عليه السلام من أخذ وسائل الحياة الضرورية (وهي مستثنيات الدين) ويقول: «وَلَا تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلَا عَبْداً».

ويعتبر هذا الحكم من الأحكام الإنسانيّة والأخلاقيّة في التعاليم الإسلاميّة، وذلك أنّ الإسلام لا يسمح حتى للمدينين أن يتخلوا عن ضروريات الحياة والمعيشة لهم لأداء الدَّين، بل لو كان له مال آخر لزم تسديد الدَّين من ذلك المال، وإن لم يكن لديه مال آخر وجب إمهاله إلىٰ زمان السعة والقدرة على أداء الدين.

ويقول الإمام عليه السلام في النهي الرابع: «وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ».

وبعبارة أخرى أنّ أي نوع من أنواع العنف والإكراه ممنوع في مجال أخذ حقّ بيت المال، والتجربة تشير إلىٰ أنّ أساليب العنف في أداء الديون تأتي بنتيجة عكسية، وبعكس ذلك فأسلوب المحبّة واللين يزيد من أموال بيت المال.

والتعبير بـ «درهم» يمكن أن يكون إشارة إلىٰ الأموال الصغيرة، يعني في المال الصغير وفي جزئيات الأمور لا ينبغي التعامل مع الناس بمنطق الخشونة والقوّة، وذهب بعض الشرّاح إلىٰ احتمال أن يكون المراد من «درهم» في هذه الجملة، جنس المال، يعني لا يحقّ لكم أن تضيقوا على الناس من أجل أخذ الأموال منهم.

ويقول الإمام عليه السلام في النهي الخامس: «وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلَا

مُعَاهَدٍ[١]، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ».

وهذه الجملة إشارة إلىٰ المنافقين والانتهازيين الذين يملكون السلاح والمركب ويجعلونها في خدمة أعداء الإسلام، ففي مثل هذه الموارد يحقّ لهؤلاء العاملين أخذ هذه الوسائل منهم دون دفع ثمنها وقيمتها إليهم، لأنّ دفع ثمنها يمنحهم أيضاً القوّة والقدرة لتنفيذ مخططاهم وبرامجهم المعادية، وفي الحقيقة إنّ مثل هذا العمل هو نوع من المصادرة المشروعة للأموال، الذي أذن فيه الإمام عليه السلام بالنسبة لبعض الأشخاص المستثنون عن القاعدة، ولكن أموال سائر المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمّة محفوظة ويجب احترام مالكيتهم لها.

صحيح أنّ هذا الموضوع لا يرتبط بمسألة الخراج، ولكن في الواقع وظيفة أخرى ربّما يواجهها العاملون بالخراج وبالتالي ينبغي عليهم العمل بها.

وثمة بحث في الفقه الإسلامي في باب المكاسب المحرمة حول حرمة إعانة الظالمين، وكذلك يوجد بحث في عدم جواز بيع الأسلحة لأعداء الإسلام، حيث ورد النهي عن هذا الأمر واستدل عليه بالأدلة العامّة والخاصّة، ومفهوم هذه الآيات والروايات أنّه لو رأينا سلاحاً أو مركباً بيد أحد الأشخاص ونعلم أنّه سيعطيه في المستقبل القريب لأعداء الإسلام ويستخدمونه ضد المسلمين، فيجب منعه من ذلك، وهذا هو الأمر الذي أصدره الإمام عليه السلام في هذه التوصية، وبعبارة أخرى أنّ هذا العمل نوع من النهي عن المنكر بشكله العملي.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام في النهي السادس: «وَلَا تَدَّخِرُوا[٢] أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا

---

١. «معاهد» تستعمل في معنيين، أحدهما أهل الذمّة والأقلّيات الدينيّة في داخل البلدان الإسلاميّة الذين يعيشون بسلام مع المسلمين، والآخر: الكفّار الذين يعيشون خارج البلدان الإسلاميّة وتربطهم مع المسلمين رابطة العهد والميثاق، وفيما نحن فيه فالمراد المعنى الأوّل.

٢. «تدّخروا» من مادة «ذخيرة» وعندما تأتي من باب إفتعال تتبدل الدال إلى ذال، والتاء في باب افتعال تتبدل أيضاً إلى دال، وعليه فإنّ «لا تدخروا» تعني لا تذخروا ولا تبقوا في أنفسكم نصيحة.

الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللهِ قُوَّةً»[١].

وفي هذه العبارة الواردة بصورة النهي يصدر الإمام عليه السلام أربعة أوامر: النصيحة لبعضهم البعض، وحسن الخلق والسلوك مع جند الإسلام، والسعي في طريق مدّ يد العون للرعية، والعمل على مستوى تقوية دعائم الدين الإسلامي، ومع الالتفات إلى أنّ المخاطب في هذه الجملة هم عمّال الخراج، يتبيّن أنّ الواجب عليهم في مسير أداء مسؤوليّتهم، الاهتمام بالتكاليف الأخرى الواجبة عليهم أيضاً.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الجملة: «وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً» أنّ الأنفس هنا تعني ذات الشخص، وذهب آخرون إلى أنّها تعني نفوس الآخرين، والظاهر أنّ المعنى الثاني أنسب.

ومعلوم أنّ عمّال الخراج لو عملوا بهذه الوظائف الأربع، أي أنّهم تحركوا في علاقتهم فيما بينهم من موقع التواصي والتناصح وكذلك تعاملوا مع الرعيّة وجنود الإسلام بآلية اللطف وحسن الخلق، وعزموا في نيّاتهم على تقوية الدين الإسلامي وتوطيد الرسالة الإلهيّة، فإنّ المجتمع الإسلامي سيشهد إزدهاراً كبيراً وتطوراً مهمّاً.

وفي ختام هذه الرسالة يبيّن الإمام عليه السلام آخر توصية لعمّاله على الخراج ويقول: «وَأَبْلُوا[٢] فِي سَبِيلِ اللهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ[٣] عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الاعتماد على الله ضروري لتحقيق النجاح وكسب الموفقيّة

---

١. وردت في بعض الروايات هذه الجملة وما بعدها في رسالة الإمام عليه السلام إلى قادة جيشه.(من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، ص ١٢٥)، والتعبير بالجند يتناسب مع هذا النقل.

٢. «ابلوا» (من باب إفعال) بمعنى السعي وبذل الجهد لأداء الشيء، وأحياناً تأتي بمعنى الامتحان والاختبار أو التحلل والانحلال، وفي هذا المورد جاء بالمعنى الأوّل.

٣. «اصطنع» من مادة «اصطناع» بمعنى طلب الشيء، وأحياناً تأتي بمعنى صناعة الشيء وتربيته، وهنا جاءت بالمعنى الأوّل.

في تجسيد هذه التوصيات على أرض الواقع ولزوم الاستعانة بالله تعالى في سلوك خط الإيمان والعمل الصالح والالتزام الواعي بهذه القيم الأخلاقيّة والمثل الإنسانيّة.

وعبارة «فَإِنَّ اللهَ» (والفاء للتفريع) إشارة إلىٰ أنّ إتيان هذه الأمور وترجمتها على مستوى التطبيق يمثّل نوعاً من شكر الله تعالى على نعمه، ونحن مدينون في هـذا الحال لألطاف الباري تعالى الذي وفقنا لإنجاز هذه التكاليف والوظائف.

٨٠٠٣

# ٥٢

## ومن كتاب له عليه السلام

## إلىٰ أمَرَاءِ البِلاَد في مَعْنَى الصَّلاةِ[1]

### نظرة عامّة للرسالة

كما هو بيّن من عنوان الرسالة، فإنّ المخاطب لها أُمراء البلاد، لأنّهم من جهة يتولّون الأمور الدينيّة للناس، وكذلك أمورهم الدنيويّة، مضافاً إلىٰ إمامة الجمعة والجماعة أيضاً، ومحتوى هذه الرسالة يبيّن في الحقيقة أمرين: أحدهما، أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق ومتى يأتي المسلم بكل واحدة منها، والآخر أنّ إمام الجماعة يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار أضعف المأمومين ويصلّي طبقاً لهذا المعيار.

---

١. سند الرسالة:
جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الرسالة ذكرها أبومنصور الثعالبي من المعاصرين للسيّد الرضي في الباب الثالث من كتاب «الإعجاز والإيجاز» مع تفاوت ملفت، وقد ذكر صاحب المصادر هذا التفاوت، وفي المجموع يستنتج أنّ الثعالبي (قطعاً) لم يأخذ هذه الرسالة من نهج البلاغة للسيّد الرضي. (مصادر نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٩٠).

**أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مِنًى، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ.**

## الشرح والتفسير

### آداب الصلاة وأوقاتها!

تقدّم آنفاً أنّ الإمام عليه السلام في هذه الرسالة يخاطب أُمراء البلاد، وهؤلاء الأُمراء هم أئمّة الجمعة والجماعة أيضاً، ويبيّن لهم أوقات الصلوات اليوميّة.

بداية يشرع الإمام عليه السلام من صلاة الظهر ويقول: «**أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ[1] الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ[2] الْعَنْزِ[3]**».

كلمة «حتّى» إشارة إلىٰ نهاية وقت فضيلة الظهر، كما هو ظاهر التعبير بهذه الكلمة، ومفهومها أنّ الإمام عليه السلام بيّن في هذه العبارة نهاية وقت فضيلة الظهر فقط،

---

١. «تفيء» من مادة «فيء» يعني العودة والرجوع.

٢. «مربض» من مادة «ربض» على وزن «نبض» بمعنى جلوس الحيوان على صدره على الأرض، وبما أنّ الحيوانات تجلس بهذه الصورة في الحضيرة غالباً فإنّ المربض يأتي بمعنى الحضيرة محل استراحة الأغنام والماعز.

٣. «عنز» الأنثى من الماعز، والماعز يطلق على كلّ أشكال هذا الحيوان، وأحياناً يأتي بمعنى الحيوان الذي يملك الشعر من الأنعام لا الصوف، وقصير الذنب.

وقد ورد في بعض الروايات أنّه بمقدار ذراع، ومقدار الذراع لا يختلف كثيراً عن مربض العنز عندما تتمدد الشاة على الأرض، فيقترب مقدار المربض من مقدار الذراع، ولو كانت كلمة «حتّى» تعني «حين»[١] ويقصد بها تعيين المدّة والزمان، فالظاهر أنّ المعنى يكون بداية وقت الفضيلة، ومفهومها أنّ وقت صلاة الظهر من أوّل الزوال إلى أن يكون ظلّ الشاخص (أي الظل الذي يظهر من لحظة زوال الشمس عند الظهر) بمقدار ذراع، فيمكن تأخير صلاة الظهر إلىٰ ذلك الوقت، إمّا لغرض إتيان صلاة النافلة أو لغرض اجتماع الناس لصلاة الجماعة.

وطبعاً فإنّ ابتداء وقت صلاة الظهر لا يكون قبل هذه الأمور وهو ما ذكره القرآن الكريم بصراحة وقال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[٢].

ثمّ يبيّن الإمامعليه السلام آخر وقت فضيلة صلاة العصر ويقول: «وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ».

وهناك خلاف كبير في وقت صلاة العصر بين فقهاء أهل السنّة والوارد في كتبهم الفقهية، ولكن المعروف بين علماء الشيعة أنّ وقت صلاة الظهر من ابتداء زوال الشمس من دائرة نصف النهار، (وطبعاً بعد مضي مقدار من الوقت اللازم للإتيان بنافلة الظهر)، وانتهاء وقتها إلىٰ زمان يكون ظل الشاخص (الظلّ الذي يظهر بعد زوال) بمقدار الشاخص نفسه، ثمّ يبدأ وقت فضيلة صلاة العصر ويمتد إلىٰ زمان يكون فيه ظلّ الشاخص ضعفي الشاخص (وطبعاً طول وقصر الشاخص في هذه المسألة لا يتفاوت).

وما ذكره الإمامعليه السلام في الجملة أعلاه يشير إلىٰ نهاية وقت فضيلة صلاة العصر، ولا يختلف هذا المقدار مع ما هو معروف بين فقهائنا.

---

١. ورد في بعض نسخ نهج البلاغة بدل كلمة «حتى» حين. مثل كتاب اختيار مصباح السالكين، ص ٥٣٩ وكتاب حدائق الحقائق، ج ٢، ص ٥١٧.

٢. سورة الاسراء، الآية ٧٨.

في المرحلة الثالثة أشار الإمام عليه السلام إلىٰ وقت صلاة المغرب وقال: «وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مِنًىٰ».

وبما أنّ وقت إفطار الصائم وحركة الحجاج من عرفات معلوم في نظر عامّة الناس حيث تبدأ الحركة مع غروب الشمس، فالإمام عليه السلام يجعل هذا الأمر مقياساً للوقت.

وتأخير صلاة المغرب والإفطار إلىٰ زمان زوال الحمرة المشرقيّة من وسط السماء يمثّل في الواقع نوعاً من الاحتياط، والوقت هو غروب الشمس (وذلك طبعاً في نظرنا ونظر جماعة من فقهاء أهل البيت عليهم السلام).

وهنا يكتفي الإمام عليه السلام في الواقع بما هو معروف ومشهور بين عامّة المسلمين في الوقت الذي يفطر فيه الصائم ويتحرك الحجاج من عرفات.

وفي المرحلة الرابعة يشير الإمام عليه السلام إلىٰ وقت صلاة العشاء ويقول: «وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ».

ولابدّ من معرفة المراد من الشفق، وهل هو الحمرة المغربية (أي الشعاع الأحمر الذي يظهر من جهة المغرب بعد اختفاء قرص الشمس)، أو البياض الشفاف الذي يظهر بعد إختفاء ذلك الشعاع الأحمر ويبقى لمدّة من الوقت؟ كلا الاحتمالين واردان في تفسير كلام الإمام عليه السلام، لأنّ الشفق يطلق على كلا هذين الأمرين، ولكن المشهور بين علماء الشيعة هو المعنى الأوّل، وفي هذا العصر فأهل السنّة يجعلون المعنى الثاني ملاكاً للعمل غالباً، رغم أنّ الفقهاء الأربعة مختلفون فيما بينهم في هذه المسألة.

وفي المرحلة الأخيرة والخامسة يشير الإمام عليه السلام إلىٰ بداية وقت صلاة الصبح ويقول: «وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ».

ومعلوم أنّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والمشهور بين الفقهاء هو أنّ ابتداء صلاة الصبح من زمان طلوع الصبح الصادق، أي البياض الواسع الذي يظهر إلىٰ جانب الأُفق، ويتفق العلماء في هذه المسألة، ولكن بما أنّ النهوض من داخل المدن والتوجه إلىٰ خارجها أو الصعود على سطوح المنازل والنظر إلىٰ الخارج لمعرفة

طلوع الفجر الصادق لا يعدّ أمراً ميسوراً، فقد بيّن الإمامعليه السلام معياراً أيسر من ذلك، وهو أن تخف حدّ الظلام قليلاً ويخالط الجو بعض إشراقات الفجر بحيث يرى الشخص صاحبه الواقف إلىٰ جانبه ويعرفه، أضف إلىٰ ذلك فإنّ حضور الناس لصلاة الجماعة يتطلب مقدار اً أكثر من الوقت، ولذلك يتطابق هذا المعنى مع ما ذكره الإمامعليه السلام.

وفي الختام يصدر الإمامعليه السلام لهم هذا الأمر في كيفية صلاة الجماعة ويقول: «وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاَةَ أَضْعَفِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ».

إنّ أهميّة هذا الموضوع إلىٰ درجة أنّ أميرالمؤمنين عليعليه السلام يروي حديثاً عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله ويقول: آخر ما فارقت عليه حبيب قلبيصلى الله عليه وآله أن قال: «يا عَلِيُّ إِذا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاةَ أَضْعَفِ مَنْ خَلْفَكَ»[1].

وعندما أرسلني رسول اللهصلى الله عليه وآله (لنشر الإسلام) إلىٰ اليمن، سألته: كيف أصلّي بالناس فقال: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيما»[2].

وقد ورد هذا المعنى في عهد الإمامعليه السلام لمالك الأشتر حيث أوصاه الإمام بهذه الوصيّة.

«فتّان» من مادة «فتنه» وفي الأصل تعني وضع الذهب في النار ليخلص من الشوائب، وبهذه المناسبة استخدمت هذه الكلمة في معانٍ مختلف، منها الابتلاء والامتحان، الخداع، البلاء والعذاب، والأذى والألم، والكلمة في عبارة الإمامعليه السلام تتناسب مع المعنى الأخير، ولا يبعد أن يكون المراد هو الخداع أيضاً، ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعني أن تصلّي صلاتك بشكل سريع بحيث تضرّ بأركان الصلاة وواجباتها، أو لا يتمكن الضعفاء بسبب هذه السرعة أن يلتحقوا بك في ركوعهم وسجودهم وقيامهم وقعودهم، وهذا ما أشارت إليه الروايات الشريفة،

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٨٣، ح ٨٧٠.
٢. بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٠٧.

منها ما ورد في عهد الإمامعليه السلام لمالك الأشتر حيث أمره بهذه التوصية: «فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً». أجل، لابدّ من رعاية الاعتدال والتوازن في جميع الأمور.

وينبغي الالتفات إلىٰ هذه النقطة، وهي أنّ التوصية بالرغم من كونها واردة في خصوص الصلاة، ولكن يمكن سراية هذا المفهوم إلىٰ سائر العبادات بل إلىٰ جميع البرامج الاجتماعيّة، فيجب أن تكون البرامج الإسلاميّة في الأبعاد العباديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والأخلاقيّة، من حيث التطبيق بحيث لا تثقل على كاهل الناس ولا تتسبب في خروجهم عن الدين، ولا أن تؤدي السرعة والعجلة فيها إلىٰ تفريغها من محتواها ومضمونها.

وكذلك من الجدير بخطباء أئمّة الجمعة المحترمين، وكذلك المسؤولين عن مجالس الدعاء والابتهال ومجالس العزاء مراعاة هذا الأصل، فلا يسرعوا في خطبهم وأدعيتهم ومراسيم العزاء بحيث تسلب روحها ومضمونها، ولا يؤتى بها بشكل متأخر ومطول بحيث تؤدي إلىٰ تعب الحاضرين ومللهم.

## تأمّل

### أداء الصلوات الخمس في ثلاثة أوقات

نعلم أنّ الصلوات اليومية في عصر رسول اللهصلى الله عليه وآله وكذلك في عصر الأئمّة المعصومينعليهم السلام كان تقام بشكل منفصل وفي الأوقات الخمسة وفي وقت الفضيلة، واليوم لو صلّينا الصلوات اليومية في خمسة أوقات لكان أفضل، ولكن مع ذلك فإنّ النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله جمع بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك بين المغرب والعشاء في أسفاره بدون أن يكون هناك عذر خاص (من قبيل الحر الشديد والبرد الشديد والمطر)، مضافاً إلىٰ ذلك فقد اتفق مراراً في حياة النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله أنّهصلى الله عليه وآله جمع بين الصلاتين بدون أي عذر وقال: أُحبّ الرخصة على أُمّتي حتى أنّهم إذا رغبوا في الجمع بين الصلاتين أمكنهم ذلك.

ولكن مع الأسف فإنّ جمع غفير من علماء أهل السنّة أصرّوا على الفصل بين الصلوات الخمس والإتيان بها بشكل منفصل، وهذه المسألة أدت إلىٰ حدوث مشاكل كثيرة وخاصّة في وقت العصر، لأنّ حياة الناس قد تغيّرت في العصر الحاضر، فالكثير من العمّال الذين يعملون في المعامل والمصانع، وكذلك الموظفين الذين يشتغلون في الإدارات الرسمية والشركات وبخاصّة طلاب الجامعات وحضورهم في قاعات الدرس صار بشكل لا يستطيع المسلم الإتيان بالصلوات اليومية في الأوقات الخمسة بسهولة، وهذا الأمر تسبب في ترك الكثير منهم للصلاة.

ونعلم قطعاً أنّ الإسلام دين الرحمة وبمتقضى النبوي المعروف: «بُعِثْتُ بالشَّريعَةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ» فإنّه قد فتح طريقاً للحل أمام هؤلاء الأشخاص حتى لا يتورطوا في ترك الصلاة من جهة، ولا يبتلوا بالصعوبة والمشقّة البالغة.

والعجيب أنّ في مصادر أهل السنّة المعروفة: كـ«صحيح مسلم، صحيح البخاري، سنن الترمذي، موطأ مالك، مسند أحمد، سنن النسائي، مصنّف عبدالرزاق» وكتب أخرى وهي كلّها من المصادر والمنابع المعروفة والمشهور لديهم، هناك ثلاثون رواية في باب الجمع بين صلاة الظهر والعصر أو صلاة المغرب والعشاء بدون السفر والمطر وخوف الضرر، ولكنّ هؤلاء الإخوة قد تغافلوا عنها جميعاً وشددوا أمر الصلاة على الناس وبخاصّة الشباب منهم.

وهذه الروايات واردة من طريق خمسة رواة معروفين:

١. ابن عباس.

٢. جابر بن عبدالله الأنصاري.

٣. أبو أيوب الأنصاري.

٤. عبدالله بن عمر.

٥. أبو هريرة.

وسنشير فيما يلي إلىٰ جملة منها:

١. نقل سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّه قال: «صَلّىٰ رَسُولُ اللهِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَميعاً بِالْمَدينَةِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلاٰ سَفَرٍ» يقول أبو زبير: سألت سعيد بن جبير، لِـمَ فعل ذلك رسول اللهﷺ؟ فقال سعيد: سألت (يعني هذا السؤال) ابـن عـباس كـما سألتني فقال: «أرَادَ أنْ لا يُحرِجَ أحَداً مِنْ أُمَتِهِ»[١].

٢. يقول جابر بن زيد: قال ابن عباس: «صَلّىٰ النَّـبِيُّ سَـبعَاً جَـمِيعَاً وَثَـمـانِيَاً جَمِيعَاً»[٢]، وهي إشارة إلىٰ أنّ النّبي الأكرمﷺ جمع في صلاته بين الظهر والعـصر والمغرب والعشاء.

٣. جاء في «مصنّف» عبد الرزاق أنّ عبد الله بن عمر قال: «جَمَعَ رَسُولُ اللهِ مُقيماً غَيرَ مُسافِرٍ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ وَالْمَغرِبِ فَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: لِمَ تَرَى النبيُ فِـعْلَ ذٰلِكَ؟ قَالَ: لأنْ لا يَحرِجَ أُمَّتَهُ إنْ جَمَعَ رَجُلٌ»[٣].

٤. ويروي عبدالله بن مسعود: «جَمَعَ رَسُولُ اللهِ بَينَ الأولىٰ وَالْعَصْرِ وَالْـمَغْرِبِ وَالْعِشاءِ فَقِيلَ لَهُﷺ فَقَالَ: صَنَعْتُهُ لِأنْ لا تَكُونَ أُمَّتي فِي حَرَجٍ»[٤].

٥. وروى أبو هريرة أيضاً: «جَمَعَ رَسُولُ اللهِ بَيْنَ الصَّلاتَيْنِ فِي الْمَدينَةِ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ»[٥].

وكما قلنا آنفاً أنّ الروايات الواردة في هذا الباب أكثر من هذا المقدار، وخلاصة ما ورد فيها أنّ النّبي الأكرمﷺ قد جمع في بعض المواضع بين صلاة الظهر والعصر أو بين صلاة المغرب والعشاء في حين لم تكن هناك مشكلة خاصّة كالمطر أو السفر أو الخوف من العدو، ولم يكن الهدف من ذلك سوى التوسعة على الأُمّة ورفع العسر والحرج، فهل يصح مع هذا الحال أن يستشكل البعض في مسألة الجمع ويقول بأنّ

١. صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٥١، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، ح ٤٥ و ٥٠.
٢. صحيح البخاري، ج ١، ص ١٤٠، باب وقت المغرب.
٣. مصنّف عبدالرزاق، ج ٢، ص ٥٥٦.
٤. المعجم الكبير الطبراني، ج ١٠، ص ٢١٩، ح ١٠٥٢٥.
٥. مسند البزاز، ج ١، ص ٢٨٣.

الجمع متعلق بموارد الاضطرار؟ لماذا نغض النظر عن رؤية الحقائق الشرعية ونرجح أفهامنا ومسبوقاتنا الفكرية على قول رسول الله ﷺ الصريح في هذا الأمر وبالتالي نثقل هذه العبادة على كاهل الأُمّة؟ وعندما يأذن الله ورسوله بالرخصة في شيء فلماذا لا يأذن المتعصبون في هذه الأُمّة؟ لماذا لا يريدون من الشباب المسلمين أن يؤدّوا صلواتهم اليوميّة وهي أهم وظيفة الإسلاميّة في كلّ الأحوال في جميع الأماكن في داخل البلاد الإسلاميّة وخارجها في الجامعات والإدارات والمعامل والأسواق؟

نحن نعتقد أنّ الإسلام يمتد لكلّ زمان ومكان إلىٰ نهاية الدنيا، ومعلوم أنّ النّبي الأكرم ﷺ كان يرى بنظره الواسع حال جميع مسلمين في العالم وفي جميع الأعصار والحقب الزمنية، وأنّهم إذا كانوا مقيدين بالصلوات في خمسة أوقات فإنّ ذلك من شأنه أن يشقّ على أُمّته ويدعو جماعة منهم لترك الصلاة، ولذلك صدر الامر الالهي إليه أن يخفف عن أُمّته ويوسع دائرة الرخصة في هذا الشأن.

والجدير بالذكر أنّ الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[1] يقول بصراحة: واعلم أنّه يتفرع على هذين القولين بحث يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات: وقت الزوال، ووقت أوّل المغرب، ووقت الفجر، وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر، فيكون هذا الوقت مشتركاً بين هاتين الصلاتين، وأن يكون أوّل المغرب وقتاً للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركاً أيضاً بين هاتين الصلاتين، فهذا يقتضي جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً.

وقد بيّن أنّه دلّ الدليل على أنّ الجمع في الحضر من غير عذر لا يجوز، توجب أن يكون الجمع جائزاً بعذر السفر وعذر المطر وغيره[2]، وهذا ما يقال من الاجتهاد

---

١. سورة الاسراء، الآية ٧٨.

٢. التفسير الكبير، للفخر الرازي، ج ٢١، ص ٢٧.

في مقابل النص.

وكما قلنا في بداية هذا البحث أنّ رعاية وقت الفضيلة والإتيان بكل صلاة في هذه الأوقات الخمسة مسنون وأولى، رغم أنّ الجمع بين الصلاتين يعتبر رخصة، ومن هذه الجهة فالإمام عليه السلام بيّن أوقات الصلاة الخمس بشكل منفصل.

ﮊﮋ

# ٥٣

## ومن كتاب له عليه السلام

## كَتَبَهُ لِلأشْتَرِ النَّخَعي لَمّا وَلاّهُ عَلىٰ مِصْرَ وَأعمالِها حينَ اضْطَرَبَ أمْرُ أميرِها مُحَمَّدُ بنُ أبي بَكْرٍ وَهُوَ أطْوَلُ عَهْدٍ كَتَبَهُ وأجْمَعُهُ لِلْمَحاسِنِ[1]

### نظرة عامّة للرسالة (المهمّة جدّاً لمالك الأشتر)

### خمسون نكتة مهمّة في عهد واحد

من أجل إدراك أهميّة هذا العهد الشريف، وقبل أن نتوغل في دراسة محتواياته ومضامينه، ينبغي الالتفات إلىٰ عدّة أمور:

---

١. سند الرسالة العهدية:

هذه الرسالة المعروفة بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر من أشهر كتب ورسائل أمير المؤمنين عليه السلام والغنية عن التعريف ولا تحتاج لذكر السند، وهذه الرسالة وردت في كتب كثيرة قبل السيّد الرضي وكذلك بعده، وفي الحقيقة أنّ شهرة هذه الرسالة أسمى وأعلى من أن تحتاج إلىٰ شرح مداركها.

ولكنّ صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة يصرّح أنّ جماعة من الأكابر قبل السيّد الرضي، مثل الحسن بن علي بن شعبة (المتوفي ٣٣٢) ذكرها في كتاب تحف العقول، وذكرها القاضي النعمان المصري (المتوفي ٣٦٧) في كتاب دعائم الإسلام، وذكرها بعد السيّد الرضي، الرجالي المعروف النجاشي في كتابه «الفهرست» في شرح حال الأصبغ بن نباتة، وكذلك الشيخ الطوسي في كتابه الفهرست، والنويري في نهاية العرب مع اختلاف

إنّ هذه الرسالة المطولة والعميقة المضامين تعدّ من أهم ما ورد من كتب ورسائل في نهج البلاغة وناظرة لجميع أبعاد وجهات الإدارة والتدبير لأمور الحكومة وتحتوي على أصول ثابتة وقواعد متماسكة لا يطرأ عليها القِدم ولا تبلى أبداً وترسم في مضامينها كافّة تفاصيل الحياة السياسيّة والإدارية في الحكومة الإسلاميّة.

١. ممّا يجدر ذكره أنّ ابن أبي الحديد في ذيل الخطبة القصيرة رقم ٦٨ (وقد ورد شرح هذه الخطبة سابقاً وفي شرح بن أبي الحديد الخطبة تحت رقم ٦٧) ينقل عن إبراهيم الثقفي صاحب كتاب «الغارات» رسالة مفصلة وطويلة نسبياً أنّ الإمام عليعليه‌السلام قد كتب إلىٰ محمّد بن أبي بكر برنامجاً أخلاقياً لتهذيب النفوس وتطهير القلوب وتقوية عنصر التقوى في الإنسان، وفي ذيل هذه الرسالة ينقل هذا المؤرخ (صاحب كتاب الغارات) كان محمّد بن أبي بكر ينظر فيه ويتأدّب بآدابه ـ كان يحمل معه هذه الرسالة في مصر ويطالعها بين الحين والآخر ويتمسك بآدابها ويلتزم بما ورد فيها من التعاليم ـ فلما ظهر عليه عمرو بن العاص، أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلىٰ معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجب منه.

ثمّ قال: إنّ الوليد بن عقبة (أخا عثمان من أُمّه وهو الذي نزلت في حقّه آية «إن

---

☜ يسير، وابن عساكر (المتوفي ٥٧١) في تاريخ مدينة دمشق حيث ذكر مقاطع منها.

والجدير بالذكر أنّ العلماء والكتّاب كتبوا شروحاً كثيرة جداً على هذه الرسالة، منهم: ١. آداب الملوك نظام العلماء. ٢. أساس السياسة للواعظ المعروف الشيخ محمّد الكجوري الملقب بسلطان المتكلّمين. ٣. التحفة السليمانية للسيّد ماجد البحراني (المتوفي بعد ١٠٩٧). ٤. الراعي والرعيّة للكاتب الأستاذ توفيق الفكيكي. ٥. السياسة العلوية تأليف عبدالواحد آل مظفر. ٦. شرح عهد أميرالمؤمنين لمحمّد باقر بن صالح القزويني. ٧. شرح عهد أميرالمؤمنين للعلّامة المجلسي (المتوفي ١١١١). ٨. شرح عهد أميرالمؤمنين للميرزا حسن بن السيّد علي القزويني (المتوفي ١٣٥٨). ٩. شرح عهد أميرالمؤمنين للميرزا محمّد بن سليمان التنكابني. ١٠. شرح عهد أميرالمؤمنين الشيخ هادي بن محمّد حسين القائيني. ١١. شرح الفاضل. ١٢. الفرمان المبارك لجواد. ١٣. نصايح الملوك للمولى أبي الحسن العاملي. ١٤. مقتبس السياسة وسياج الرئاسة. ١٥. القانون الأكبر في شرح عهد الإمام للأشتر للسيّد مهدي السويج. ١٦. مع الإمام علي في عهده لمالك الأشتر للعلّامة الشيخ محمّد باقر الناصري (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٢٦) وهناك شروح كثيرة أخرى كتبت في عصرنا الحاضر، وقد سمعنا في الأخبار أنّ هذه الرسالة ترجمت إلىٰ لغات مختلفة ووضعت في مبنى الأمم المتحدة بعنوان سند تاريخي ووزعت على نوّاب دول العالم في الأمم المتحدة.

جاءكم فاسق..» حيث أطلق عليه القرآن وصف الفاسق) وكان حاضراً عند معاوية وقد رأى اعجابه به، فقال لمعاوية: مر بهذه الأحاديث أن تحرق. فقال معاوية: مه، لا رأي لك! فقال الوليد: أفمن الرأي أن يعلم الناس إنّ أحاديث أبي تراب عـندك تتعلم منها! فقال معاوية: ويحك أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من عمله وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه. ثمّ سكت هينهة، ثمّ نظر إلىٰ جلسائه وقال: إنّا لا نقول: إنّ هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمّد، فنحن نظر فيها، ونأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أُميّة حتى ولي عمر بن عبدالعزيز، فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد بعد أن نقل هذا الكلام عن صاحب «الغارات» يقول: «الأليق أن يكون الذي كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه، ويفتي به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد الإمام علي عليه السلام إلىٰ الأشتر، فإنّه نسيج وحده، ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة (والحال أن كتاب الإمام عليه السلام لمحمّد بن أبي بكر يتضمّن مجموعة من المسائل الأخلاقية) وهذا العهد صار إلىٰ معاوية لما سمّ الأشتر ومات قبل وصوله إلىٰ مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق مثله (يعني الكتاب العهدي) أن يقتنى في خزائن الملوك»[1].

وعلى ضوء ذلك فإنّ ابن أبي الحديد يعتقد بأنّ هذه الرسالة التاريخيّة الفريدة، التي كان معاوية يستفيد منها ولم يظهر ذلك لأحد وبعده انكشف الستار عنها بواسطة عمر بن عبدالعزيز، هي ما نحن بصدده من عهد أميرالمؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر.

ونحن بدورنا نؤيد نظر ابن أبي الحديد بصورة كاملة، لأنّ القرائـن والشـواهـد المختلفة تشهد على هذا المعنى.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٧٢ و ٧٣.

٢. يقول الكاتب المسيحي المعروف «جورج جرداق» في كتابه «الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة»: «إلّا أنّه من الصعب على المرء أن يجد الإنسان اختلافاً بين هذا العهد العلوية والوثيقة الدوليّة لحقوق الإنسان، فليس من أساس بوثيقة حقوق الإنسان إلّا وتجد له مثيلاً في دستور ابن أبي طالب، وهذا إلىٰ إطار من الحنان الإنساني العميق يحيط به الإمام دستوره في المجتمع، ولا يحيط الأمم المتحدة وثيقتها بمثله»[1].

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ لائحة حقوق الإنسان العالمية قد تمّ تدوينها بعد ألف وثلاثمائة عام من تدوين عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر، أضف إلىٰ ذلك أنّ اللائحة العالمية قام بتدوينها جماعة من المفسّرين من شتى بلدان العالم ومع ذلك فإنّها تحتوى على بعض النقائص ونقاط الضعف والقصور، وأهمّها أنّها فارغة من المسائل المعنويّة والقيم الإنسانيّة السامية.

٣. ومن أجل الإحاطة بأهميّة هذه الرسالة والعهد مورد البحث ينبغي الإشارة إلىٰ مكان مسؤوليّة مالك الأشتر، أي أرض مصر.

يتفق المؤرخون تقريباً أنّ منطلق الحضارات البشريّة تمتد بجذورها إلىٰ منطقة الشرق، ومنها أرض مصر التي وجدت فيها الحضارة قبل غيرها من البلدان بآلاف السنين، فقد وطد المصريون دعائم التمدن البشري إلىٰ درجة أنّ «ويل دورانت» يسمى هذه المنطقة بأنّها مهد الحضارة البشرية، ومن هذه الجهة نرى أنّ الأنبياء الإلهيين الذين أرسوا دعائم التمدن المادي والمعنوي في الأُمم البشرية جميعهم قد بعثوا من هذه المنطقة، ثمّ إمتدت دعوتهم إلىٰ نقاط أخرى من العالم.

ويقول المؤرخ المذكور في الجزء الأوّل من تاريخه المعروف بـ«قصّة الحضارة» بعد أن خصص عشرات الصفحات حول الحضارة المصرية القديمة: إنّ الآثار المهمة الباقية منذ ذلك الوقت ولمدّة آلاف السنين وبرغم المتغيرات في هذه العصور

---

١. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٢٥.

والحقب الزمنية لا زالت باقية، وهذه علامة أخرى عن عظمة هذه الحضارة القديمة.

لقد كانت مصر تمثّل إحدى المراكز العلمية والحضارية المهمّة في العالم، وخاصّة مدينة الاسكندرية التي تعد ـ وفقاً للمدارك والاسناد التاريخيّة ـ أحد أهم هذه المراكز العلميّة، ولم يقتبس أهالي مصر علوم اليونان فحسب، بل أضافوا إليها علوماً كثيرة أخرى، ففي الحقيقة أنّ مصر لم تكن بمثابة محافظة أو منطقة من الحكومة الإسلاميّة، بل دولة كبيرة وواسعة يقطن فيها شعب متمدن.

وقد دخلت مصر في عام ١٩ للهجرة في زمان الخليفة الثاني تحت لواء الإسلام بواسطة الجيش الإسلامي الذي أرسله الخليفة الثاني لفتحها، ومنذ ذلك الزمان والمصريون يعيشون في ظلّ الإسلام وقد تقبلوا، كالايرانيين، هذا الدين الجديد الذي يملك ثقافة قوية وتظهر على تعاليمه معالم الحقانيّة، ولكن للأسف فإنّ بعض الحكّام الظلمة أمسكوا بمقاليد السلطة في مصر من قِبل الخلفاء ومنهم: عبدالله بن أبي سرح[1] الذي تولى ولاية مصر في زمان عثمان وتسبب ظلمه وجوره على أهالي مصر في انتفاضتهم على الوضع السائد، وكما نعلم أنّ هذه الانتفاضة إمتدت إلىٰ المدينة، وقد زادت أخطاء الخليفة الثالث في الطين بلة، وعملت على تعميق الخلل والشعور بالاستياء لدى عامّة الناس، ومن ذلك ما أصدره عثمان من عزل عبدالله وكتب فيها كتاباً وسلّمه إلىٰ الثوار ليعودوا إلىٰ مصر، ولكنّه أرسل رسالة أخرى إلىٰ عبدالله بن أبي سرح يأمره فيها بقتل هؤلاء الثوار في حال عودتهم إلىٰ مصر، وقد وقعت هذه الرسالة بيدهم في وسط الطريق، فعادوا من فورهم ووقعت حادثة قتل عثمان.

أمّا الإمام علي عليه السلام فإنّه من أجل جبران الأخطاء المذكورة، أرسل في بداية الأمر محمّد بن أبي بكر لحكومة مصر، ولما ثبت عملياً أنّه لا يستطيع تحمل هذه

---

١. كتبنا في شرح حال عبد الله أبي سرح ـ الأخ الرضاعي لعثمان ـ في الإسلام، في ذيل الرسالة ٣٨ من الجزء التاسع من هذا الكتاب.

المسؤوليّة الثقيلة، أمر الإمام عليه السلام شخصاً آخر يملك القدرة والحكنة والحزم في الأمور، وهو مالك الأشتر، لهذه المهمّة وأرسل معه هذه الرسالة والعهد مورد البحث لترتيب وإدارة أوضاع هذا البلد الكبير وأرسله إلىٰ مصر، ولكن للأسف فإنّ جريمة معاوية منعت من تحقق هذا البرنامج الإنساني العظيم على أرض الواقع وأن يتنفس أهالي مصر السعداء ممّا لاقوه من الولاة السابقين.

مهما يكن من أمر فهذا الكتاب الذي كتبه الإمام عليه السلام لمالك الأشتر يتشكل في نظرة إجماليّة من عدّة أقسام ومقاطع، وربّما أمكن تقسيمه من زاوية معينة إلىٰ خمسين قسماً.

١. القسم الأوّل، يلخص الإمام عليه السلام الهدف الأساس من إرساله مالك الأشتر إلىٰ مصر في أربعة أمور: الاهتمام الكامل بجمع الخراج، والتصدي لأعداء مصر، وإصلاح أهلها، وإعمار هذا البلد.

٢. التأكيد على لزوم رعاية التقوى قبل كلّ شيء، وبيان أهميّتها ودورها في حياة الإنسان.

٣. مجاهدة النفس وتهذيبها.

٤. الفات نظر مالك الأشتر إلىٰ منطقة عمله ومحل مسؤوليّته.

٥. النصيحة له بالتحرك في خط العمل الصالح واجتناب البخل.

٦. السعي وبذل لجهد لكسب رضا الرعيّة وعامّة الناس.

٧. النهي عن التمرد على الأوامر الإلهيّة.

٨. بيان طريقة مواجهة حالات الكبر والغرور الناشئة من تولي المقام والمنصب.

٩. رعاية العدل والإنصاف في كلّ الأحوال، واجتناب كلّ شكل من أشكال الظلم والجور التي تسبب في تغيير النعم والمواهب الإلهيّة وتبديلها.

١٠. ينبغي أن يكون أحبّ الأشياء إليه جلب رضا عامّة الناس لا الخواص منهم.

١١. الحذر من وساوس الانتهازيين والنمامين والسعي في إسدال الستار على عيوب الناس.

١٢. لزوم المشورة في الأعمال والنشاطات فيما يتصل بتدبير الأمور، والحذر من مشورة الأشخاص البخلاء والجبناء وأهل الدنيا.

١٣. عزل المتولين السابقين والمسؤولين الظالمين وتوثيق الرابطة مع أصحاب الورع والصدق والإيمان.

١٤. تشويق المحسنين والصالحين وتوبيخ المسيئين وعقابهم.

١٥. كسب حسن ظنّ الناس من خلال الإحسان إليهم، والتخفيف من ثقل الضرائب عليهم.

١٦. احترام الآداب والتقاليد الحسنة للقدماء.

١٧. استمرار مجالسة العلماء وأهل الخبرة والتشاور معهم.

١٨. تقسيم الرعيّة إلىٰ طوائف متعددة وخدمة كلّ طبقة منهم وفق حاجاتهم ومواقعهم الذاتيّة والاجتماعيّة.

١٩. التأكيد بشدّة على رعاية الطبقة المحرومة والمعدمة.

٢٠. بيان خصائص القادة العسكريين والمسؤولين في الجيش الإسلامي.

٢١. الاهتمام الخاص بسوابق الأشخاص والعوائل الصالحة وذات السمعة الحسنة.

٢٢. خصوصيات القادة الكبار.

٢٣. التأكيد على أصل العدالة، الذي يتواصل مع روحية القادة والزعماء وهو قرة عين لهم.

٢٤. الثناء على الأعمال الحسنة للصالحين والمحسنين لتقوية عناصر الخير في المجتمع الإسلامي ولتشويق الجميع على عمل الخير والإحسان.

٢٥. قياس قيمة عمل كلّ شخص بدون الالتفات إلىٰ مكانته الاجتماعيّة.

٢٦. الرجوع إلىٰ الكتاب والسنّة في حل المشكلات واستنباط الأحكام.
٢٧. ذكر شروط القضاة والصفات اللازمة التي يجب توفرها فيهم.
٢٨. الإشراف على الأحكام القضائيّة التي يصدرها القضاة في حقّ المحكومين وتأمين نفقاتهم ومعيشتهم في الحياة بشكل كامل لمنع التورط في عمليّة الرشوة.
٢٩. بيان المعيار في انتخاب الولاة والقادة في البلاد ودفع حقوقهم الماليّة بشكل كاف ووضع العيون (الجواسيس) لضبط أعمالهم.
٣٠. وضع خطة لعمليّة الخراج والضرائب والاهتمام بعمران المنطقة وإحيائها قبل الاهتمام بجمع الخراج.
٣١. بيان الخصوصيات المتعلقة بالمدراء والمسؤولين عن الاسناد والوثائق وموظفيهم وتقسيم العمل بينهم بشكل دقيق.
٣٢. الاهتمام التام بوضع التجّار وأصحاب الصناعات والأشخاص الذين يتحركون في خدمة الناس على مستوى نقل أو إنتاج ما يحتاجونه، والإشراف الدقيق على المعاملات والأسعار والتصدي لظاهرة الاحتكار.
٣٣. التأكيد أكثر على الاهتمام بالطبقة المحرومة والضعيفة ولزوم التواصل معهم والاطلاع على وضعهم.
٣٤. لزوم الاهتمام بوضع الأيتام والعجزة.
٣٥. تعيين وقت خاص للقاء العامّة من الناس والإذن لهم بمقابلة المسؤولين بشكل مباشر.
٣٦. تعيين وقت خاصّ آخر للموظفين والمسؤولين من أجل حلّ مشكلاتهم الخاصّة.
٣٧. تنظيم برنامج دقيق للأعمال اليومية المختلفة.
٣٨. الاهتمام بإقامة الفرائض الدينيّة وخاصّة صلاة الجماعة وكيفية إقامتها وتعيين وقت خاص للارتباط مع الباري تعالى.

٣٩. عدم الابتعاد عن الناس والاحتجاب عنهم مدّة طويلة.

٤٠. كيفية التعامل مع الأصحاب الخاصين والمطلعين على أسرار الدولة.

٤١. الرعاية الدقيقة لحقوق جميع الأفراد، سواءً كانوا من منطقة قريبة أو بعيدة.

٤٢. تقديم عذر موجّه وتبرير معقول في مقابل ما يعيشه الناس من شحة في الموارد وظهور المشكلات ممّا يودّي إلىٰ سوء الظن بالولاة.

٤٣. قبول دعوة الأعداء للصلح وفي ذات الوقت رعاية حالة الحذر في مقابلهم مع إحترام العهود والمواثيق التي تعقد معهم.

٤٤. الاجتناب بشدّة عن سفك دماء البرياء.

٤٥. اجتناب كلّ أشكال العجب والأنانيّة والغرور.

٤٦. الحذر من إظهار المن على الرعيّة.

٤٧. اجتناب التسرع والعجلة في الأعمال.

٤٨. اجتناب الرشوة وأخذ حقّ الخاص في المشتركات.

٤٩. الاهتمام بمطالعة سيرة النّبي الأكرمﷺ والأنبياء الإلهيين في جميع الأمور المتعلقة بالحكومة.

٥٠. وأخيراً الدعاء لنفسه ولمالك الأشتر وطلب الرحمة والتوفيق له من الله تعالى.

ويمكن من زاوية معنية وضع جميع هذه الأمور في عشرة محاور:

١. بيان أهميّة المسؤوليّة الملقاة على عاتق مالك الأشتر.

٢. التنبيهات الأخلاقيّة العامّة في مجال الحكومة وتدبير الأمور.

٣. تقسيم الرعيّة وشرائح المجتمع المختلفة إلىٰ عدّة فئات وطوائف، من القوى العسكرية إلىٰ عمّال جباية الضرائب والموظفين لدى الحكومة والقضاة والتجّار وأصحاب الصنائع وتعيين الوظائف والخصوصيات المتعلقة بكل فئة منهم.

٤. الاهتمام الكبير فيما يتصل بالطبقات المحرومة.

٥. لزوم تعيين وقت لمواجهة ولقاء عامّة الناس، أي الانفتاح على العامّة وفتح الباب لهم ولارباب الحاجات.

٦. اختيار مشاورين أقوياء ومن أهل الخبرة.

٧. التصدي لكلّ أشكال الرشوة والامتيازات الذاتية.

٨. الاهتمام بأمر الصلح مع العدو وفي ذات الوقت أخذ جانب الحذر منه واجتناب كلّ أشكال سفك الدماء بدون دليل.

٩. الاهتمام بأمر إقامة الفرائض الدينيّة لعموم الناس.

١٠. الدعاء لتحقيق النجاح والتوفيق في أداء المسؤوليات واستمداد من الله تعالى في هذا الشأن.

## القسم الأوّل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا. أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، وَإِيْثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ.

## الشرح والتفسير

### التوصية الأولى: التقوى وجهاد النفس

ينطلق الإمام عليه السلام في القسم الأوّل من هذه الرسالة بذكر اسم الله الرحمن الرحيم والاستمداد منه، ويقول: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ. جِبَايَةَ[1] خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا».

يبتدىء الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بالاعتراف بالعبوديّة لله تعالى، ثمّ كونه أميرالمؤمنين، ليتبيّن أنّ قيادة المؤمنين ودعامتهم إنّما تتجسد في أرض الواقع في

١. «جباية» مثل جمع الزكاة وأموال بيت المال وأمثال ذلك، وفي الأصل من مادة «جباوة» على وزن «عداوة» وتعني الجمع أو التجميع.

ظلّ العبودية لله تعالى لا في ظلّ الحالات والدوافع الذاتيّة والشخصيّة، ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الأهداف الأربعة لهذه المسؤوليّة والمهمّة التي ندب إليها مالك الأشتر:

الهدف الأوّل: يشير الإمام عليه السلام إلى الأمور الماليّة والاقتصاديّة وهو ما ورد التعبير عنه بالخراج، فصحيح أنّ الخراج يعني الضرائب الموضوعة على الأراضي المفتوحة عنوة بيد المسلمين، ولكنّها في هذا المورد تمتد لدائرة واسعة وتشمل جميع الأمور الماليّة المتعلقة بالحكومة الإسلاميّة، أعم من الخراج والزكاة والجزية والخمس وأمثال ذلك.

الهدف الثاني: يتحدّث الإمام عن مسألة القوّة العسكرية والدفاعية وقوى الأمن في البلد الإسلامي ويؤكّد على حفظ استعدادهم لدفع هجمات الأعداء، لأنّه ما لم يتمّ ترتيب أمور هؤلاء فإنّ الأمن لا يتحقق في فضاء المجتمع ولا يعيش الناس راحة البال في معيشتهم وأعمالهم.

الهدف الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى إصلاح الأمور الاجتماعيّة والثقافيّة، ومنها إيجاد الباعث على أعمال الخير وإزالة منابع الفساد الأخلاقي وتثبيت الأمن في مجال الكسب والعمل وتأمين حقوق الأفراد ونظم ما يتصل بالأمور القضائيّة، رغم أنّ البعض تصور أنّ الجملة: «اسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا» تختص بإصلاح الأمور المادية للناس، ولكن من البعيد يكون نظر الإمام عليه السلام مقتصراً على هذا المورد، بل ناظر إلى إصلاح جميع الأمور الماديّة والمعنويّة.

وبعض العبارات الواردة في كلام الإمام عليه السلام في هذه الرسالة تشير إلى أنّ الإمام ناظر في هذا المورد بشكل عام وواسع بحيث يشمل جميع المسائل الأخلاقيّة والاجتماعيّة من قبيل قوله: «**ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ**».

الهدف الرابع: يتحدّث الإمام عليه السلام عن إعمار البلاد ويشمل ذلك إصلاح جميع ما يتعلق بأمور الزراعة والصناعة والتجارة، رغم أنّ الوارد في هذه الرسالة يختص بمسألة الصناعة والتجارة والكسب والعمل، ولم يرد كلام عن الزراعة، ولكن مع

الأخذ بنظر الحسبان أنّ مصر بلد زارعي وأنّ أهالي مصر يولون اهتماماً كبيراً بمسألة الزراعة، فكأنّ الإمام عليه السلام لم يجد حاجة لذكرها واقتصر على الإشارة إلى المشاكل الصناعية والتجارية، ولكن عندما يتحدّث عن أخذ الخراج يأمر مالك الأشتر بأن يقوم، في ذات الوقت الذي يأخذ الخراج، بمراقبة عمليّة الأعمار واستصلاح الأراضي واجتناب التشدد مع الزرّاع بما يتسبب في قلّة المحاصيل الزراعية.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل استعراضه لهذه الأصول الأخلاقيّة الأربعة مخاطباً مالك الأشتر، والتي تشكل في الحقيقة الأركان الأصليّة المعنويّة للحكومة.

بداية يقول: «أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ».

إنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله وكلماته القصار في نهج البلاغة زاخرة بأمر التوصية بالتقوى، التي تمثل رأس مال سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فالتقوى تعني الاحساس بالمسؤوليّة الباطنيّة واجتناب كلّ أشكال الإثم والذنب والتعدي والإجحاف، وبعبارة أخرى أنّ التقوى تمثّل حالة معنويّة كابحة، تتولى حفظ مسيرة الإنسان في طريق الحقّ وتضمن عدم انحرافه عن الصراط المستقيم، ومعلوم أنّ مسؤوليّة الإنسان كلّما إزدادت وثقلت فإنّها تستدعي حالة أعمق وأقوى من التقوى.

وفي التوصية الثانية يقول الإمام عليه السلام: «وَإِيْثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا».

«الفرائض» و«السنن» تعني عادة الواجبات والمستحبات، وقيل: إنّ «الفرائض» هي الواجبات الواردة في كتاب الله، و«السنن» هي الأحكام والواجبات الورادة في السنّة الشريفة وكلام النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وفي هذه الصورة تكون جملة: «مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ..» شاملة للأمر بإطاعة النّبي في بيان الأحكام الإلهيّة أيضاً، فيحتمل في معنى هاتين المفردتين أنّ «الفرائض» إشارة إلى الواجبات المهمّة، و«السنن» إشارة إلى الواجبات التي تأتي بالدرجة الثانية بعدها.

ويتبيّن من عبارة «وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا..» أنّ طريق سعادة الدنيا والآخرة منحصر في هذا المسلك وأنّ الطرق الأخرىٰ تقود الإنسان في خط الضلالة والمتاهة، وطبعاً فهذا لا يعني نفي الإدراكات العقليّة والحاق الهداية الباطنيّة بها، لأنّ من جملة الأمور التي ورد التأكيد عليها في كتاب الله اتّباع العقل، وهو ما ورد في عشرات الآيات الكريمة.

وفي التوصية الثالثة يقول الإمام عليه السلام: «وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».

التعبير بنصرة الله تعالى بالقلب واليد واللسان، كما ذكر بعض الشرّاح، إشارة إلىٰ ما يتصل بالقلب من الاعتقادات، واليد إشارة إلىٰ جهاد الأعداء، واللسان إشارة إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن البعض يعتقد أنّ القلب لا يشير فقط إلى العقائد، بل إلىٰ حالات النفور الباطني من القبائح والرذائل والعشق لأعمال الخير أيضاً، وكذلك بالنسبة لليد فليست إشارة لجهاد الأعداء فقط، بل إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مورد الحاجة لمقدمات عمليّة والتي تدخل عادة في وظائف الحكومة الإسلاميّة، وأمّا اللسان فيشمل جميع أشكال التعليم والتربية الصحيحة مضافاً إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

.عبارة «قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ..» إشارة إلىٰ ما ورد في الآيات القرآنيّة الشريفة الناظرة إلىٰ هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في الآية ٧ من سورة محمّد: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا[1] عِنْدَ الْجَمَحَاتِ[2]، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ».

والحقيقة أنّ هذه التوصيات والدساتير الأخلاقيّة الأربع تمثّل برنامجاً كاملاً

---

١. «يزع» من مادة «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع النفس وحفظها من الجنوح والجموح، وأحياناً تأتي بمعنى جمع الأفراد حول بعضهم، لأنّ ذلك يمنعهم من التفرق والانتشار.

٢. «الجمحات» جمع «جمحة» على وزن «صدقه» بمعنى الحوادث أو عوامل التمرد والعناد.

لضمان سعادة جميع الناس، فلو أنّ روح التقوى وحالة الورع تعمقت وتجذرت في النفس، وتحرك الإنسان بعدها في خط إطاعة الأوامر الإلهيّة واتّباع التعاليم الواردة في الكتاب والسنّة وتصدى لمواجهة المفاسد الاجتماعيّة والقبائح الأخلاقيّة ومؤامرات الأعداء بالقلب واليد واللسان وكسر صنم الأهواء النفسانيّة، فمثل هذا الإنسان هو الإنسان الكامل وهو المخاطب بقول تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1].

وجملة «فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ..» اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[2]. (سواءً كانت هذه الجملة واردة على لسان يوسف عليه السلام أم على لسان زوجة عزيز مصر، وعلى أية حال فإنّ القرآن قد أمضى هذه المقولة).

ورغم أنّ الكثير من المتقين يخشون من وساوس الشيطان، ولكن هوى النفس والوساوس الشهوانيّة والنوازع النفسانيّة أخطر من ذلك بكثير، ولعل هذا هو السبب في أنّ الإمام عليه السلام يلفت نظر مالك الأشتر إلى هذه المسألة أكثر.

وصحيح أنّ المؤمنين المخلصين والأولياء الإلهيين قد تجاوزوا مرحلة النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ومنها إلى النفس المطمئنة، ولكنّ هذا لا يعني أنّ نفوسهم الأمارة قد ماتت ولا حاجة إلى الحذر من أخطارها ودسائسها.

## تأمّل

### أخطار النفس الأمارة

من المعلوم أنّ كبار العلماء والمفسّرين، وبالاستلهام من آيات القرآن الكريم، قالوا بوجود مراحل ثلاث للنفس الإنسانيّة في حركتها المعنويّة في خط التكامل: النفس الأمارة، النفس اللوامة، النفس المطمئنة.

---

١. سورة الفجر، الآية ٢٧.

٢. سورة يوسف، الآية ٥٣.

أمّا النفس الأمارة فإشارة إلىٰ الأهواء والشهوات المتمردة التي تأمر الإنسان دوماً بسلوك طريق الرذيلة وإرتكاب المنكرات، والنفس اللوامة إشارة إلىٰ حالة الندم الحاصل بسبب إرتكاب الإثم والمعصية، وتنمو وتشتد هذه النفس من خلال تقوية روح التقوى في الإنسان، أمّا النفس المطمئنة فهي المرحلة العالية من تكامل الروح الإنسانيّة بحيث تصل إلىٰ مرتبة تخضع لها جميع الأهواء والنوازع النفسانيّة بشكل كامل من خلال آليات الضبط العقلي والإيماني.

ويرسم الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر المعروفة، النفس الأمارة بكل وضوح ويشكو إلىٰ الله تعالى منها بهذه الكلمات (بوصفه قدوة لعموم الناس) ويقول: **«إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْساً بِالسُّوءِ أَمَّارَةً وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً وَبِمَعَاصِيكَ مُولَعَةً وَبِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ كَثِيرَةَ الْعِلَلِ طَوِيلَةَ الْأَمَلِ إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجْزَعُ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ مَيَّالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ مَمْلُوَّةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَة»**.

أجل فهذه معالم وخصائص النفس الأمارة على نحو الدقّة، ويستفاد من الروايات الشريفة أنّ النفس الأمارة تزيّن للإنسان الذنوب وتقبح له الخيرات والطاعات، وعندما يرتكب الإنسان تلك القبائح والذنوب وتتجلى أمامه عواقب تلك الذنوب، تنكشف عن عينه ستائر الغفلة، وأحياناً يوصد من خلفه باب العودة والإنابة فلا سبيل له للتوبة من الرذائل والمنكرات.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام (كما ورد في غرر الحكم) في كلام موجز أنّ: **«النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ الْمُسَوِّلَةُ تَتَمَلَّقُ تَمَلُّقَ الْمُنَافِقِ وَتَتَصَنَّعُ بِشِيمَةِ الصَّدِيقِ الْمُوَافِقِ حَتَّى إِذَا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسَلَّطَتْ تَسَلُّطَ الْعَدوِّ وَتَحَكَّمَتْ تَحَكُّمَ الْعُتُوِّ فَأَوْرَدَتْ مَوَارِدَ السَّوْءِ»**[1].

---

١. غرر الحكم، ح ٤٦٨٣.

ومن هنا أوصى الأولياء وعلماء الأخلاق أن يراقب الإنسان هذه النفس مراقبة دقيقة لئلا يتورط في شراكها وينخدع بخداعها، ويقول الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام في كلام آخر (طبقاً لما ورد في غرر الحكم): «إِنَّ هٰذِهِ النَّفْسِ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ فَمَنْ أَهْمَلَهَا جَمَحَتْ بِهِ إِلَى الْمَآثِمِ»[1].

فالنفس الأمارة تعتبر في الحقيقة أهم وسائل الشيطان وأدواته في إغواء الإنسان، فلو أنّ الإنسان تخلص من شراكها ومصائدها فإنّه يتخلص كذلك من شرّ الشيطان وتسويلاته.

## أهميّة بلاد مصر

تعتبر مصر أحد أقدم مراكز الحضارة البشرية وأقدم مهد للتمدن في التاريخ البشري، وهناك آثار تاريخيّة مهمّة في بلاد مصر احتار العلماء في كيفية تشييدها وبنائها حتى مع الأخذ بنظر الاعتبار الوسائل والأجهزة الحديثية، وكأنّ مقولة أنّ هذه الأرض كانت من قديم الأيّام من أكثر البلدان تطوراً وإزدهاراً في العالم حقيقة لا غبار عليها.

والمدارك والأسناد التاريخيّة تشير إلىٰ أنّ مصر كانت ذات حضارة مزدهرة منذ عشرة قرون قبل ميلاد المسيح، فكانت تحتوي على مدارس كبيرة ومكتبات ومراكز للتحقيق العلمي، وقد إقترنت الحضارة المصرية باليونانيّة من قديم الأزمان وكانت العلوم والمعارف متبادلة بينهما.

ومن النعم الإلهيّة الكبيرة على هذا البلد التاريخي، نهر النيل العظيم الذي يسقي أراضي مصر الواسعة، ولولا هذا النهر العظيم فإنّ قسماً عظيماً من أراضي هذا البلد ستتعرض للجفاف والتصحر، وتغدوا صحراء قاحلة لا زرع فيها.

وفي السنة العشرين من الهجرة وفي زمن الخليفة الثاني استولى المسلمون على

---

١. غررالحكم، ح ٤٧٧٩.

هذا البلد، ومن عجائب التاريخ أن عمر بن الخطاب منع من دخول جيش الإسلام إلى مصر، ولكن عمرو بن العاص جهز جيشاً وتحرك بنفسه إلىٰ مصر فوصل الخبر إلىٰ عمر بن الخطاب، وقد كان يخشى أنّ جيش الإسلام إذا دخل مصر فسوف يتحد الرومان والمصريون ويهزموا الجيش الإسلامي، ولذلك كتب كتاباً إلى عمرو بن العاص وأرسله بيد عقبة بن عامر، وعندما وصل عقبة بن عامر إلىٰ عمرو بن العاص وهو على مقربة من مصر، لم يسمح عمرو بن العاص لعقبة باللقاء به ولم يستلم الكتاب منه إلىٰ أن دخل إحدى المدن الساحلية في مصر، ثمّ التفت إلىٰ عقبة وقال: هات الكتاب، فدفع إليه الكتاب، وكان عمر بن الخطاب قد كتب فيه أنّك إذا لم تدخل مصر فعليك بالعودة فوراً، فقال عمرو بن العاص لجنوده: هل أنّ هذا المكان هو مصر أو خارج مصر فقالوا: لقد دخلنا مصر، فقال: إنّ الخليفة قد أمر أننا إذا لم ندخل مصر فعلينا بالعودة، ولكننا الآن في مصر ويجب علينا المضي والتقدم، ولكن عمرو بن العاص واجه مشكلة في فتح مصر وخاف من الهزيمة، فكتب إلىٰ عمر بن الخطاب وطلب منه إرسال التعزيزات والمعونات، فجهّز الخليفة الثاني جيشاً من اثني عشر ألف نفر وأمّر عليهم عدد من رجال الإسلام الشجعان وأرسله لنصرته، وأخيراً فتحت مصر واعتنق المصريون الإسلام بشوق بالغ، وأنتجت مصر الكثير من علماء الإسلام في فنون العلم المختلفة وفتتحت المدارس الإسلاميّة فيها واحدة بعد الأخرىٰ وازدهر العلم في هذا البلد.

ومن امتيازات مصر أنّ محبّي أهل البيت عليهم السلام وعشّاق المذهب العلوي كثيرون فيها، وحتى أنّ أهل السنّة في مصر يعشقون أهل البيت عليهم السلام ويزورون «رأس الحسين» و«المرقد المنسوب للحوراء زينب» فيها حيث أضحى مزاراً عاماً لسكنة تلك الديار.

ولولا تدخل السياسة، لأمكن القول إنّ مصر بإمكانها أن تكون وسيلة جيدة لإيجاد الوحدة والاتحاد بين المذاهب الإسلاميّة، والشاهد على هذا المدعى الفتوى

المعروفة التي أصدرها «الشيخ شلتوت» عن اتّباع فقه الإماميّة وأنّ هذا الفقه يقع في عرض مذاهب أهل السنّة الأربعة ويجوز العمل به.

وعلى أيّة حال فبسبب أهميّة هذا البلد الإسلامي، اختار الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أقوى شخصيّة من أنصاره وأصحابه وأعرفهم وأشجعهم، وهو مالك الأشتر، لإدارة أمور هذا البلد وكتب إليه العهد المعروف وهو مورد البحث الذي يشمل أدقّ التعاليم والتوصيات في مسألة إدارة الحكومة والولاية وسلّمه إليه.

ജ☙

## القسم الثاني

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ. وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ.

## الشرح والتفسير

### احترام حقوق جميع المواطنين!

يتابع الإمام عليه السلام توصياته العميقة والشاملة التي ورد بعضها في القسم الأوّل من العهد، ويخاطب الإمام عليه السلام مالك الأشتر مشيراً إلىٰ عدّة نقاط خاصّة، بداية يقول: «ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ

قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ».

ثمّ يضيف عليه السلام: «وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ».

في هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام يشير الإمام من باب المقدّمة إلىٰ وضع مصر (وقطعاً لا ينحصر بمصر) وأنّه قد كانت قبلك حكومات عادلة وجائرة، الحكومة العادلة من قبيل حكومة مصر في عصر النّبي يوسف عليه السلام، وأمّا حكومة الجور فتتمثّل في الكثير من الفراعنة منهم فرعون المعاصر للنّبي موسى بن عمران عليه السلام.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلىٰ هذا الموضوع المهم، وهو أنّ معيار تقييم الحكومات من حيث العدل والجور يرتبط بأفكار عامّة الناس وتصوّرهم عن حكومتهم، وهذا هو المتداول في هذا العصر من أنّ رأي الشعب هو الميزان، رغم أنّ الغالب في مقام العمل لا يؤخذ به تماماً، ولكن في ذلك العصر وعندما تحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام، قلّما كان شخص يعتقد بهذه العقيدة وكان الناس يتصورون أنّ الحكومة لا يمكن أن تتحقق وتدوم إلّا بآليات الاستبداد، والاستبداد بدوره مقترن بالظلم والجور.

وقد جاء في كلمات العلماء: «أَلْسِنَةُ الْخَلْقِ أَقْلامُ الْحَقِّ» أو «أَلْسِنَةُ الرَّعِيَّةِ أَقْلامُ الْحَقِّ إِلَى الْمُلُوكِ» وهما بمعنى واحد، وهو أنّ كلام جمهور الناس يعتبر قلم الحقّ تعالى الذي يكتب توصياته ورسائله إلىٰ الملوك والقادة، أو أنّ الله تعالى بهذه الوسيلة يخاطبهم ويكاتبهم، وعلى أيّة حال فالغاية من ذلك أنّ الحكم الصادر من عامة الناس ومن الوعي الجمعي للأُمّة هو المعيار الجيد لمعرفة قيمة الحكومات وصلاحيتها ومصداقيتها.

وطبعاً أحياناً تقوم الحكومات من خلال التبليغ الكاذب والتظاهر والرياء بتحريف وتشويش أفكار الناس، أو تقوم بعمليّة غسيل الأدمغة، ففي مثل هذه الموارد يكون الرأي العام مريض ويفقد أثره المطلوب في القضاوة.

ومهما يكن من أمر فمن الجدير بقادة المسلمين الحاليين أن يكتبوا بعبارة:

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ»، بماء الذهب ويضعونها نصب أعينهم ويقرأونها كلّ يوم ويحفظونها في قلوبهم، ومن أجل تحقيق هذا المضمون يجب عليهم إبعاد المتملقين والانتهازيين من حولهم ولا يكتفون بشهادة أنصارهم وأصحابهم فقط، بل يعرفون صلاحيتهم ومصداقيتهم من خلال الإتصال المباشر مع الناس عامّة.

وجاء في كتب التاريخ أنّ بعض القادة القدماء كان راغباً في إقامة العدالة في حكمه فأحياناً كان يلبس ملابس أخرى ويخرج متنكراً ويطوف في المناطق المختلفة في المدينة وخاصّة في المناطق المحرومة، ويدرس الأمور والأوضاع عن كثب بدون استخدام الوسطاء.

ثمّ يصدر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من عهده ست توصيات مهمّة لمالك الأشتر ويقول: «فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ».

ويقول القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾[1].

وفي آية أخرى يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2].

وفي تفسير آخر أنّ العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ويعمل على ترسيخ العقائد السليمة في واقع الإنسان وقلبه.

ونقرأ في سورة العصر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3].

وفي التوصية الثانية والثالثة يقول الإمام عليه السلام «فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ[4] بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا

---

١. سورة الكهف، الآية ١١٠.

٢. سورة فاطر، الآية ١٠.

٣. سورة العصر، الآيتان ٣ و ٤.

٤. «شحّ» في الأصل بمعنى البخل المقترن بالحرص، بحيث يصير عادة للإنسان، وهاتان الصفتان من الرذائل الأخلاقيّة المهمّة، وذكر بعض مفسّري القرآن أنّ «شحّ» أشد من البخل، والاستفادة من هذه المفردة من كلام

يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ».

إنّ ضبط الأهواء النفسانيّة وكبح جماحها، والذي يؤكّد عليه الإمام عليه السلام، هو أن يستطيع الإنسان عند فوران الشهوة وثورة الغريزة أن يضبطها ويجعلها تحت إرادته، وبعكس ذلك إذا سيطر هوى النفس على فكر الإنسان وعقله وقواه وملكاته الأخرىٰ فإنّه سيقود صاحبه إلىٰ وادي الهلكة والخسران.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «احْذَرُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَحْذَرُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدَى لِلرِّجَالِ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَحَصَائِدِ أَلْسِنَتِهِمْ»[١].

وجاء في حديث آخر في «غرر الحكم» عن الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام: «أَمْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ بِدَوَامِ جِهَادِهَا»[٢].

فالشح بالنفس في مقابل المحرمات لا يعني سوى أن يتصرف الإنسان كالبخيل الذي لا يجد في نفسه رغبة في إنفاق الدرهم والدينار من أمواله على الآخرين، فمثل هذا الإنسان يقف في مقابل المحرمات كالبخيل فلا يعطي من نفسه شيئاً يؤدّي به إلىٰ خسرانه دينه وإيمانه ويبعده عن طريق الإنصاف والصلاح، سواءً في الأمور ألتي يجد في نفسه ميلاً إليها أم في الأمور التي لا يشتهيها.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة إلىٰ مسألة مهمّة جدّاً تعكس عظمة القوانين الإسلاميّة ويطرح أمراً لم يكن له وجود في ذلك العصر في المجتمعات البشرية، ويقول: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ».

ومعلوم أنّ «أشعر» من مادة «شعار» وشعار في الأصل يطلق على الملابس التحتانيّة للإنسان والتي تلتصق مباشرة ببدنه، واختيار الإمام عليه السلام لهذا التعبير يشير إلى أنّ قلبك يجب أن يلتصق بالرحمة والمحبّة واللطف بالنسبة للرعية.

---

الإمام عليه السلام إشارة إلى الالتزام بشدّة على اجتنابك للحرام وحفظ نفسك من هذه الرذيلة كما يمنع البخيل أمواله وثروته من بذلها للناس.

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ١.

٢. غرر الحكم، ح ٤٨٩٨.

ولعلّ الفرق بين الرحمة والمحبّة واللطف، أنّ الرحمة تمثّل المرتبة الأُولى من الصداقة وحسن الخلق، والمحبّة في مرتبة أعلى منها، واللطف يمثّل آخر مرتبة من التعاطف مع الآخرين، وربّما يكون التفاوت في هذه المراتب بالنسبة لمواقع أفراد المجتمع والرعيّة، فبعضهم يستحق الرحمة، والبعض الآخر فمن هو أنفع للناس فإنّه جدير بالمحبّة، والأشخاص الذين يخدمون الناس ويسعون في إيصال الخير أكثر فإنّهم جديرون باللطف.

وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا لِرَجُلٍ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ وَحُسْنُ الْوِلَايَةِ عَلَى مَنْ يَلِي حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ»[1].

ويتحدّث الإمام عليه السلام في التوصية السادسة من موقع التأكيد على ما مرّ في التوصية الرابعة ويقول: «وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً[2] تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ».

ولا شك ولا ريب في أنّ أركان الحكومة الصحيحة والمقتدرة والعادلة هي التي تمتد سيطرتها على قلوب الناس وعواطفهم لا على أساس القوّة والسيف، فالولاة الذين يحكمون على قلوب الناس ويملكون عواطفهم فإنّ المجتمع يعيش الأمن والأمان، أمّا من كان يحكم بآليات القوّة والقهر فإنّهم يعيشون هاجس الخطر دائماً.

ومن أجل تشويق مالك الأشتر على أمر الحكومة على القلوب والعواطف يأمر الإمام عليه السلام بالتعامل مع الرعيّة بلغة الرحمة والمحبّة واللطف، ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام النقطة المقابلة لذلك، وهي الحكومة التي تقوم على أساس البطش والقوّة ويكون الحاكم فيها كالحيوان المفترس يأكل حقوق الرعيّة ويحسبها غنيمة له، ثمّ يختار الإمام

١. الكافي، ج ١، ص ٤٠٧، ح ٨.

٢. «ضارياً» تعني المتوحش، من مادة «ضرو» على وزن «ضرب» وفي الأصل بمعنى الهجوم الشديد على شخص أو شيء، ومن هذه الجهة أُطلقت هذه الكلمة على هجوم الأغنام على الزرع أيضاً.

أفضل دليل على هذه التوصيات، وهو أنّ الرعيّة في الحكومة الإسلاميّة ليس خارجة عن اثنين: فالغالبية مسلمون، ونعلم أنّ الإسلام يقرر أنّ المسلم أخو المسلم، أو أقلّية من غير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين حياة سلمية، وهم بشر ويتصفون بالإنسانيّة، والإنسان يجب أن يتعامل مع الإنسان الآخر بآلية المحبّة والمودّة.

وهذا الكلام في الحقيقة يشطب بخط البطلان على التبليغات المسمومة للأعداء الذين يقولون: إنّ المسلمين لا يعترفون بحق الحياة لغير المسلمين ويعتقدون أنّ جميع الأفراد من غير المسلمين يجب أن يقتلوا أو يسلموا كرهاً، أجل فإنّ كلام الإمام عليه السلام المذكور أعلاه يقرر أنّ جميع أفراد البشر وأتباع الأديان والمذاهب الأخرىٰ بإمكانهم أن يعيشوا مع المسلمين حياة سلمية وطيبة ويتمتعون في داخل البلاد الإسلاميّة في ظلّ قوانين الإسلام بكافة حقوقهم وتكون نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وحيثياتهم محفوظة، خلافاً لما نراه في عالمنا المعاصر، فحتى الاختلاف في لون الجلد في بعض الدول التي تدعي التقدم والحضارة كأمريكا يكون سبباً للتمييز العنصري، وخلافاً لما يتبجحون به في إعلاناتهم السياسيّة فإنّ البيض هناك يكرهون السود غالباً، والمراكز الاجتماعيّة للبيض منفصلة عن مراكز السود وهم غير مستعدين للتعاون في الكثير من المسائل الاجتماعيّة.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام حقيقة تعتبر من أهم تعاليم وتوصيات الإدارة الناجحة ويقول: **«يَفْرُطُ[1] مِنْهُمُ الزَّلَلُ[2]، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ».**

وبديهي أنّ كلّ إنسان غير معصوم من الخطأ والزلل (سوى المعصومين عليهم السلام) وأنّ

---

١. «يفرط» من مادة «فرط» على وزن «شرط» بمعنى العجلة والتسرع في أداء العمل. وهذه المفردة تستخدم في مورد أن يتحرك الشخص للتسابق في عمل معين.

٢. «زلل» و «زلة» على وزن «غلة» بمعنى الخطأ والزيغ.

الكبير والصغير، والعالم والجاهل كلّ واحد منهم يبتلي بما يتناسب مع حاله بالأخطاء، ولا أحد بإمكانه أن يدعي أنّه بريء من الخطأ والزيغ، بل ورد في حالات بعض الأنبياء الإلهيين أنّهم كانوا يرتكبوا أحياناً ترك الأولى، ورغم أنّه ليس بذنب ومعصية، ولكنّه غير لائق بمقامهم.

وهكذا أحياناً يفقد الإنسان حالته العادية بسبب بعض الآلام والمتاعب الجسميّة والروحيّة، وفقدان الأعزّة، الفشل في العمل وأمثال ذلك، ففي مثل هذه الحالة يسلك عادة في دروب الزيغ والخطأ.

وبما أنّ الإمام عليه السلام يريد لمالك الأشتر الولاية والحكومة على جمهور كبير من الناس، يعني أهالي مصر، فإنّه يأمره بالعفو عن الزلل والخطأ (في الموارد الميسورة والممكنة)، ومن أجل إثارة الباعث في نفسه على هذا العمل وتقويته في نفسه يذكره الإمام بأخطائه وزلاته في مقابل الباري تعالى، ويقول: ألا ترغب في أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ويتجاوز عن أخطائك وسيئاتك؟ إذن فعليك بالعفو والصفح عن خطايا الرعيّة ولا تشدد عليهم، وطبعاً هذا في الموارد التي لا يكون فيها العفو والصفح موجباً للاخلال في النظم وتضيع حقوق المظلومين.

ونقرأ في تاريخ صدر الإسلام عندما شاعت قضية الإفك بين المسلمين بواسطة المنافقين واتّهم جماعة منهم زوجة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالانحراف عن جادة الشرف والعفّة، فإنّ جماعة من المؤمنين، سلكوا، عمداً أو سهواً، في مسير إشاعة هذه التهمة، فنزلت الآيات القرآنيّة ونهت بشدّة عن هذا السلوك الشائن، بحيث إنّ بعض المسلمين عزموا على قطع رابطتهم مع هؤلاء الأشخاص من مثيري الفتنة ومروجي الإشاعة، ويحرمونهم من معوناتهم المادية، فنزلت الآية الشريفة: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

---

١. سورة النور، الآية ٢٢.

والفرق بين العفو الصفح، أنّ العفو يعني صرف النظر عن العقاب على الخطأ والزلل، وأمّا الصفح في مثل هذه الموارد فهو إزالة العقوبة على الخطأ من ذهنه ووضعها في زاوية النسيان.

وجملة: «يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ..» لا تعني أنّه يجب على الوالي أن يأخذ بيد المخطئين ويهديهم سواء السبيل كما ذكر ذلك بعض الشرّاح، بل بمعنى أنّ الأعمال الخاطئة تجري على أيديهم.

ثمّ يتحرك الإمام على مستوى التوضيح والتأكيد أكثر ويقول: «فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارة يؤكّد على هذه الحقيقة، وهي أنّ كلّ شخص يحكم على جماعة فهو بدوره يقع تحت حكومة شخص آخر، فإذا كنت حاكماً على مصر، فعليك بالانتباه بأنني حاكم عليك ومراقب لأعمالك، فإذا كنت حاكماً عليك فينبغي أن أنتبه إلىٰ أنّ الله تعالى حاكم علينا، ومعلوم أنّ الالتفات إلىٰ هذا الأمر يؤدّي بالإنسان أن يتعامل مع الناس بآليات العفو والصفح والمحبّة ما أمكنه ذلك لكي يتوقع بالتالي عفو الحاكم عنه وأعلى من ذلك يتوقع العفو الإلهي عنه.

೫೦೮

## القسم الثالث

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ. وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ! إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

## الشرح والتفسير

### لا تكن مغروراً أبداً!

يواصل الإمامعليه السلام في هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر ويوصيه بسبع توصيات مهمّة أخرى.

بداية يقول:: «وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ».

المراد من الحرب مع الله، كما ذكر الكثير من شرّاح نهج البلاغة، هو الظلم والجور على عباد الله وتضييع حقوقهم ولا يشمل كلّ معصية وإثم، وصحيح أنّ جميع الذنوب قبيحة وذميمة، ولكن التعبير بالحرب مع الله يعني أكبر من ذلك.

والشاهد لهذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادقعليه السلام عن

رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ أَسْرَى رَبِّي بِي فَأَوْحَى إِلَيَّ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ مَا أَوْحَى وَشَافَهَنِي إِلَى أَنْ قَالَ**[١] **لِي يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيّاً فَقَدْ أَرْصَدَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَنْ حَارَبَنِي حَارَبْتُهُ**»[٢].

ويستدل الإمام عليه السلام لعدم الحرب مع الله بأمرين: أحدهما، الحاجة إلىٰ عفوه ورحمته، والآخر، اجتناب عقوبته وعذابه.

وفي التوصية الثانية والثالثة يقول عليه السلام: «**وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ**[٣] **بِعُقُوبَةٍ**».

وهذا الكلام إشارة إلىٰ أنّك يجب أن تلتزم جانب العفو ما أمكنك ذلك وقلل من موارد العقوبة، لأنّ أثر العقوبة إذا كان نافعاً لمدّة قصيرة فإنّ أثر العفو يمتد لمدّة طويلة.

وطبعاً فإنّ هذا الحكم يصدق على غالبية الناس، ولكن لدى بعض الناس ـ وهم أقليّة تكون نتيجة العفو والصفح عكسية ويتحمل الجناة ذلك على محمل الضعف والخوف من قِبل الوالي، فلابدّ من استخدام الشدّة والقوّة مع هؤلاء.

وفي التوصية الرابعة يقول عليه السلام: «**وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ**[٤] **وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً**[٥]».

ومعلوم أنّ الإنسان عندما يملكه الغضب فإنّه يفقد إعتداله الفكري، وقد جرّبنا مراراً بأنّ كلّ قرار نتخذه في ذلك الوقت سيثبت خطأه بعد ذلك، وحتى أعقل الناس

---

١. هذا التعبير يساوق ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ (سورة الشورى، الآية ٥١).

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٣، ح ١٠.

٣. «تبجحنّ» من مادة «بجح» على وزن «وجب» بمعنى الفرخ والافتخار.

٤. «بادرة» الأفعال والحركات المتسرعة التي تصدر من الإنسان في حالات الغضب والحدّة، من مادة «بدور» على وزن «صدور» وتعني السرعة في العمل.

٥. «مندوحة» بمعنى الوسع وطريق الحل من مادة «ندح» على وزن «مدح» وهذه المفردة ربّما تأتي اسم مفعول وتعني المكان الذي تمّت توسعته، أو المكان الواسع.

ربّما يتحول في صورة الغضب والحدّة إلىٰ أجهل الناس، والمعروف بين العامّة من الناس أنّهم يقولون: عندما أغضب فإنّ الدم يغطي على عيني ويحول بيني وبين رؤية الأشياء فأرتكب العمل الفلاني، وهذا في الحقيقة إشارة إلىٰ هذه الحالة.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن أميرالمؤمنينعليه السلام أنّه قال: «الْغَضَبُ يُرْدِي صَاحِبَهُ وَيُبْدِي مَعَايِبَهُ»[1].

وجاء في حديث آخر عنهعليه السلام أيضاً: «بِئْسَ الْقَرِينُ الْغَضَبُ يُبْدِي الْمَعَائِبَ وَيُدْنِي الشَّرَّ وَيُبَاعِدُ الْخَيْرَ»[2].

وهذه الحقيقة تتضح أكثر عندما يأتي بعض الأشخاص من طرف واحد ويتحدّثون للوالي بكلام معين، فلو عزم على أمر في هذا الحال فسوف يندم، فيجب التريث قليلاً وسماع حجّة الطرف المقابل، فربّما يختلف الحال بعد هذا التحقيق.

ومن هذا المنطلق ينبغي العمل وفقاً للمثل المعروف: «عند الغضب لا عقوبة ولا أمر ولا تصميم».

في التوصية الخامسة ينهاه الإمامعليه السلام بشدّة عن حالة الغرور والفخر ويقول: «وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ[3] فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ[4] لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ[5]».

ولا شك أنّ أحد الآفات الخطيرة لمسألة الحكومة والولاية، الغرور والكبر والاستبداد، وكما قال الإمامعليه السلام أنّ ذلك ترتب عليه ثلاثة أمور خطيرة، الأوّل: أن

---

١. غرر الحكم، ح ٦٨٩٢.

٢. المصدر السابق، ح ٦٨٩٣.

٣. «إدغال» من مادة «دغل» على وزن «عقل» بمعنى الدخول في مكان بشكل خفي، وبما أنّ الفاسدين والمفسدين يدخلون بهذه الصورة عادة، فإنّ هذه الكلمة تستبطن غالباً معنى الفساد، و«دغل» على وزن «قمر» بمعنى الفساد، وأحياناً تأتي بمعنى الشخص المفسد، وفي العبارة أعلاه جاءت بمعنى الفساد.

٤. «منهكة» من مادة «نهك» على وزن «مدح» بمعنى المتعب والمضعف، وتطلق كلمة منهكة على الضعف والعجز أو على أسباب الضعف والعجز.

٥. «غِيَر» بمعنى الحوادث المغيرة للحال جمع «غِيرة» على وزن «غيبة».

يفسد فكر الإنسان وتنقلب لديه الحقائق ويتخذ قرارات عجولة وغير عادلة ومجانبة للصواب، والآخر، أنّ الإنسان يتورط بأنواع المعاصي والذنوب والظلم ممّا يوهن إيمانه ودينه، والثالث، أنّ هذه الحالة تتسبب في إيجاد متغيرات كثيرة فيما يتصل بعلاقة الحكومة مع الناس والكثير من الإنتفاضات والثورات على إمتداد التاريخ البشري تنبع من هذه القضية.

وبخلاف ذلك إذا كان الوالي متواضعاً وأخرج من ذهنه ريح الغرور والتكبر، فسوف يعتدل فكره ويتصرف بحكمة وكذلك لا يلوث نفسه بالذنوب ولا يضعف إيمانه، ومن جهة أخرى يحفظ علاقته الحميمة مع الناس، وهذه العلاقة هي الأصل والأساس للحكومة الصالحة حيث تمنح الحكومة القدرة والهيمنة.

ويقول الإمامعليه السلام في كلماته القصار في «غررالحكم» عبارة مثيرة في مصير المغرورين وعاقبتهم الوخيمة: «طُوبىٰ لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلاتُ الْغُرورِ»[١].

وفي مورد آخر يقول: «سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أَبْعَدُ إفاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ»[٢].

أجل، فإنّ سكر الشراب ربّما يزول بعد يوم أو ليلة، ولكن سكر الغرور ربّما يستمر إلىٰ خمسين عاماً.

ويشير الإمامعليه السلام في آخر الخطبة التالية من نهج البلاغة إلىٰ جماعة من المنافقين والانتهازيين الذين تمردوا عليه ويقول: «زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ».

وبما أنّ عمل الأطباء الواعين لا يقتصر على تشخيص وعلاج الألم والمرض، بل يمتد إلىٰ إراءة طرق العلاج أيضاً، ويعدّ ذلك من الأركان الأصليّة لبرنامجهم الطبي، والإمامعليه السلام وهو الطبيب الإلهي، في هذه الرسالة بعد أن يذكر آفات الغرور، يشير إلىٰ طريق علاجها ويقول: «وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً[٣] أَوْ

---

١. غرر الحكم، ح ٧١٧٥.

٢. المصدر السابق، ح ٥٧٥٠.

٣. «ابهة» بمعنى العظمة، وأحياناً تأتي بمعنى الكبر والغرور، وفي الجملة أعلاه وردت بهذا المعنى.

مَخِيلَةً[١]، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ[٢] إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ[٣] وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ[٤] وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ[٥] عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغة والعميقة المعنى، يقرر أنّ النظر إلىٰ عظمة ملك الله تعالى وقدرته الواسعة من شأنه أن يخلف ثلاثة آثار إيجابية للمغترين بقدرتهم:

الأوّل: أنّه ينزلهم عن مركب الغرور.

والآخر: يخفف من شدّة عملهم.

والثالث: يعيد إليهم عقلهم الذي أسدل عليه الغرور ستار الغفلة.

أجل، فإنّ أقوى الأفراد يجد نفسه في مقابل الحوادث والمظاهر الطبيعية التي تحدث بأمر الله كالريشة في مهب الريح، وقد سمعنا كثيراً أنّ السلاطين المستبدين قد أخذهم الأجل بين عشية وضحاها بسكتة قلبية مختصرة، ونعلم أنّ هذه العارضة تنشأ من إنسداد بعض الشعيرات في القلب ويترتب عليه جلطة دموية، أو يموت بسبب السرطان، وهو ليس سوى طغيان خلية من خلايا البدن الضعيفة أو بواسطة المكروب أو فيروس الذي لا يرى بالعين المجردة، وأحياناً تحدث زلزلة وتهدم جميع قصورهم، أو يهب اعصار ليحطم جميع ما لديهم، أو يأتي سيل عظيم ويأخذ معه كلّ ما لديهم، وهكذا، هذه كلّها إشارات صغيرة على قدرة الله المطلقة، فلو أنّ الإنسان تفكر في هذه الأمور، فإنّه سيكون متواضعاً وبعيداً عن حالات الغرور في أي مقام ومنصب كان.

إنّ التاريخ لا يذكر حكومة وسلطة أعلى من سلطة النّبي سليمان عليه السلام، فالقرآن

---

١. «مخيلة» بمعنى العُجب والأنانية.

٢. «يطامن» من مادة «طمأنة» ويعني إمتصاص الغيظ وتهدئت النفس وانزال الشيء إلىٰ الأسفل.

٣. «طماح» بمعنى التمرد.

٤. «غرب» بمعنى الشدّة والحدّة.

٥. «عزب» بمعنى الغائب.

يتحدّث عن سليمان عندما حان أجله فلم يمهله الموت حتى يجلس على الأرض بل أخذ روحه وهو واقف متكيء على عصاه وودع جميع ما لديه من إمكانات عظيمة في لحظة واحدة ولم يعلم بموته أحد من الناس إلّا بعد أن أكلت الإرضة عصاه فاختلّ تعادله وسقط على الأرض.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام، وفي التوصية السابعة، يتحدّث من موقع التأكيد على الأمور المذكورة آنفاً لغرض إزاحة حالة الغرور والتكبر عن الولاة والأُمراء من خلال التهديد بالعقوبة الإلهيّة ويقول: «إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ[1] اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ[2]».

وفي الحقيقة فإنّ الأشخاص الذين ملكهم الغرور والتكبر يدّعون عملاً أنّهم في سياق واحد مع الله تعالى، في حين أنّهم لا يمثّلون سوى ذرات تافهة في مقابل بحر العظمة الإلهيّة، والعقوبة المترتبة على مثل هذا الغرور والشموخ العبثي هو أنّ الله تعالى سيذلهم ويهينهم، وإذا التفت المتكبرون والمغرورون إلىٰ نهاية عملهم فسوف ينزلون من مركب الغرور والكبر.

وقد وردت أحاديث شريفة في هذا المجال عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

فنقرأ في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عندما سئل عن: «أَدْنَى الإِلْحَادِ». فقال عليه السلام: «إِنَّ الْكِبْرَ أَدْنَاهُ»[3].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «الْكِبْرُ رِدَاءُ اللهِ فَمَنْ نَازَعَ اللهَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَكَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»[4].

---

١. «مساماة» بمعنى طلب العلو والمقابلة في المثل.

٢. «مختال» يعني المتكبر والمغرور من مادة «خُيَلاء» على وزن «جهلاء» وتعني التخيلات التي تدعو الإنسان لكي يتصور نفسه كبيراً وعظيماً.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١.

٤. المصدر السابق، ح ٥.

ومعلوم أنّ جميع هذه الأمور بسبب الآثار والتداعيات السلبيّة الفرديّة والاجتماعيّة التي تستولي على الشخص المغرور والمتكبر، وقد ورد روايات متعددة أنّ الكبر يتسبب في تجاهل الإنسان للحق ويواجه أهل الحقّ من موقع التوبيخ والذم ويسحق حقوق الناس[1].

ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الْكِبْرَ أَنْ تَتْرُكَ الْحَقَّ وَتَتَجَاوَزَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَتَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ وَلَا تَرَى أَنَّ أَحَداً عِرْضُهُ كَعِرْضِكَ وَلَا دَمُهُ كَدَمِكَ»[2].

---

١. أنظر: الكافي، ج ٢، باب الكبر.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٠، ح ٣.

## القسم الرابع

**أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.**

## الشرح والتفسير

### إحذر من لعنة المظلومين!

في هذا المقطع من رسالة الإمام عليه السلام لمالك الأشتر يوصيه الإمام عليه السلام بعبارات بليغة ومحكمة بإقامة العدالة ورفع كلّ أشكال التمييز: «أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى[1] مِنْ رَعِيَّتِكَ».

ومعلوم أنّ المراد من الانصاف بالنسبة لله تعالى، إطاعة أوامره ونواهيه، والإنصاف بالنسبة للناس ترك كلّ أشكال التمييز والميل لبعض الأفراد دون البعض، كما هو الحال في سيرة غالبية المسؤولين والقادة في الماضي والحاضر، فعندما يصلون إلى مسند القدرة والسلطة يمنحون أقاربهم وأصدقاءهم امتيازات خاصّة دون سائر الناس، وهذا التمييز يتسبب في أنواع من الخلل والإرباك في الحكومات.

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ «الانصاف» من مادة «نصف» الذي يطلق على نصف كلّ شيء، وبما أنّ العدالة تؤدي إلىٰ قيام الإنسان بتقسيم حقوقه الاجتماعيّة بينه وبين

---

١. «هوى» بمعنى الميل والعلاقة.

الآخرين بالعدالة، فمن هذه الجهة يطلق عليه «انصاف» وبعبارة أخرى أنّ الانصاف هو أن يحبّ الإنسان للآخرين ما يحبّ لنفسه وأقربائه وأصدقائه، ويكره للآخرين ما يكره لنفسه والأشخاص المتعلقين به.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «سَيِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى لَا تَرْضَى بِشَيْءٍ إِلَّا رَضِيتَ لَهُمْ مِثْلَهُ»[1].

وأمّا الانصاف بالنسبة لله تعالى فهو أن يقسم الإنسان المواهب الإلهيّة بشكل عادل، فنصفها ينفقها في سبيل الله ويبقي النصف الآخر لنفسه، وهكذا يقسم وقته وفكره وإمكاناته الأخرىٰ بهذا المنوال حتى يراعي على الأقل الانصاف وإن لم يصل إلىٰ حدّ الإيثار.

ومن الطبيعي أنّ هذا العمل ليس بالهين واليسير، لأنّ الإنسان يميل دوماً نحو ترجيح كفّة نفسه وأقربائه على كفّة الآخرين، ومن هنا ورد في الخبر عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أُخبُرُكَ بِأشَدِّ مَا فَرَضَ اللهُ عَلىٰ خَلْقِهِ»، قلت: بلى. قال: «إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَمُوَاسَاتُكَ أَخَاكَ وَذِكْرُ اللهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ...»[2].

والفرق بين الانصاف والمواساة، هو أنّ الانصاف يكون في مورد الحقوق، والمواساة تقع في جميع مواهب الحياة ونعم الله تعالى على الإنسان.

ويتابع الإمامعليه السلام كلامه ويذكر دليلاً على قوله، وهذا الدليل مركب، في الحقيقة، من صغرى وكبرى ونتيجة ويقول: «فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ[3] حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ[4] أَوْ يَتُوبَ».

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٤٤، ح ٣.

٢. المصدر السابق، ص ١٤٥، ح ٨.

٣. «ادحض» من مادة «دحض» على وزن «محض» وتعني بطلان الشيء، وعندما تأتي من باب إفعال تعني إظهار البطلان، وإبطال الحجّة في مورد بمعنى عدم قبول العذر.

٤. «ينزع» من مادة «نزع» على وزن «نظم» يعني قلع وفصل الشيء وتركه، وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ التناسب في الجملة أعلاه يقتضي أن تكون «أو» بمعنى الواو، وجاء في بعض نسخ نهج البلاغة واو بدل «أو».

ومن الواضح أنّ ترك الانصاف وممارسة أي شكل من أشكال التمييز يعتبر من الظلم الفاحش والجلي، ونعلم أنّ الله تعالى عادل وحكيم وعدوّ للظالمين ونصير للمظلومين، والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على هذا المعنى، وهو أنّ الله تعالى إذا خاصم أي شخص فإنّه لا يقبل منه أي عذر وحجّة، والتعبير «أَدْحَضَ حُجَّتَهُ» إشارة إلىٰ هذا المعنى، وربّما يملك الشخص المذنب بعض الأعذار غير الموجّهة في ذنوب أخرى ويشمله لطف الله تعالى وتكون أعذاره مقبولة بغفارية الباري تعالى، ولكن بالنسبة للظلم والجور لا يقبل منه أي عذر وذريعة، والطريق الوحيد للنجاة من خصومة الله تعالى وعقوبته أن يرفع الإنسان يده من الظلم ويتوب من أعماله هذه ويعيد حقوق الناس إليهم ويجبر ما فات من أعماله.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في سياق كلامه هذا يبيّن العقوبة الشديد للظالمين وأنّها لا تشبهها أية عقوبة أخرى: «وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ[1]، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ».

وهذا الكلام يعدّ تحذيراً شديداً للظالمين ليعلموا أنّ عقوبتهم لا تنحصر بيوم القيامة، بل سيواجهون جزاء أعمالهم في هذا العالم أيضاً، وليس فقط في مدّة طويلة بل في مدّة قصيرة، أجل فإنّ ما يسرع في تغيير النعم الإلهيّة وينزل العقوبة والعذاب الإلهي هو الإقامة والاستمرار على الظلم والإصرار على العدوان وسحق الحقوق.

ونقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلّا أَخَذَهُ اللهُ بِها فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ...»[2].

وجاء في الكلمات القصار للإمام عليه السلام في غرر الحكم: «مَنْ عَمِلَ بِالجَورِ عَجَّلَ اللهُ هُلْكَهُ»[3].

---

١. «المضطهدين» جمع «مضطهد» بمعنى المظلوم، من مادة «ضهد» على وزن «مهد» وتعني الظلم.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ١٢.

٣. غرر الحكم، ح ٨٠٤٧.

وكذلك ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنّ اللهَ عَزّ وَجلّ أَوحىٰ إلى نَبِيٍّ مِنْ أنبيائِهِ فِي مَمْلَكَةِ جَبّارٍ مِنَ الجَبّارينَ أنْ ائت هَذا الجَبّار فَقُل لَهُ: إِنَّني لَمْ أَسْتَعمِلْكَ عَلى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَاتِّخاذِ الأَمْوَالِ وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُكَ لِتَكُفَّ عَنِّي أَصْوَاتَ المَظْلُومِينَ، فَإِنّي لَمْ أَدَعْ ظُلامَتَهُمْ وَإِنْ كانُوا كُفّاراً»[1].

يقول ابن عباس، الذي اقتبس الكثير من علومه من النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام: «علمت من القرآن الكريم أنّ الظلم والجور يخرب البيوت، ثمّ أشار إلىٰ هذه الآية: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا...﴾[2]»[3].

وجاء في حديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أسرَعُ الخَير ثَواباً البِرُّ وَصِلَةُ الرَّحمِ وَأَسرَعُ الشّر عُقوبَةً البَغي وَقَطيعَةُ الرَّحمِ»[4].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤.

٢. سورة النمل، الآية ٥٢.

٣. التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٢ من سورة الكهف.

٤. سنن ابن ماجة، ج ٢، باب البغي، ح ٤٢١٢، ص ١٤٠٨.

## القسم الخامس

**وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.**

## الشرح والتفسير

### كن مع جمهور الناس!

يلفت الإمام عليه السلام النظر في هذا المقطع من الرسالة إلى نقطة مهمّة ومؤثرة في حياة الإنسان وبخاصّة المجتمعات البشرية المعاصرة وكيفية عمل الحكومات، ويقول: **«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا[1] فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ»**.

وبديهي أنّ القوانين والمقررات التي تملك هذه الخصوصيات الثلاث تكون أشمل من حيث الحقوق، وكذلك أشمل من حيث رعاية العدل، وأفضل في كسب رضا عامّة الناس، فإنّها ستقع مورد رضا الله تعالى والخلق، وعندما يكون الله تعالى

---

١. «أوسط» من مادة «وسط» بمعنى في هذا المورد الأفضل من الأشياء، لأنّ الشيء الذي يقع في الحد الوسط والاعتدال هو الأفضل والأكمل، يقول القرآن الكريم في سورة القلم الآية ٢٨: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ﴾، أي أعقلهم، وجاء في لسان العرب: «أوسط الشيء أفضل الشيء وخياره».

راضياً عن حكومة معينة وخلق الله راضون كذلك، فإنّ ذلك يضمن بقائها ودوامها.

وهذا الكلام يعني أنّ المهم هو تحقيق رضا الغالبية الساحقة من الناس لا الأقليّة من أصحاب الثروة من الانتهازيين الذين يعيشون في بلاط الحاكم أو السلطان.

ويقول الإمام عليه السلام في سياق كلامه: «فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ[١] بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ».

ما ورد من الجمل القصيرة أعلاه يمثّل في الواقع البنية التحتانيّة للحكومات الثابتة والمستقرة، فأفراد المجتمع ينقسمون عادة إلىٰ قسمين: فئة هي الأقليّة من الأثرياء الذين يتمسكون بأطراف القادة والزعماء ويبرزون لهم مظاهر الإخلاص والتضحية بدافع التملق ويهتمون دائماً بمنافعهم الذاتية ومصالحهم الشخصيّة، وفي مقابل هناك الغالبية من الناس الذين تقع على أيديهم تحريك عجلة الحياة في المجتمع، هؤلاء يعملون ويتعبون أنفسهم أكثر من الآخرين ويحبّون بلدهم ويتفانون في خدمته أكثر من الطائفة الأولى، فلو أنّ الطائفة الأُولى لم تكن راضية عن الوالي والحاكم وكانت الطائفة الثانية راضية ومسرورة، فلا تحدث مشكلة أو إرباك في فضاء المجتمع، لأنّ مشاكل المجتمع تحلّ عادة بيد جمهور الناس ولا تؤثر صرخات الأقليّة في تغيير مسار المجتمع، ولكن إذا رجّح الوالي رضا الطائفة الأُولى وهم الأقليّة على حساب غضب عامّة الناس وسخطهم، فحينذاك تتعرض أركان الحكومة للاهتزاز والضعف.

وفيما لو استمر سخط العامّة فسوف ينتهي بهم الأمر إلىٰ الثورة والانتفاضة ضد الحكومة.

إنّ سيرة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام تعدّ أفضل نموذجاً حياً لهذه المسألة، فقد تحركا دوماً في خط مواساة المحرومين ومساعدة ودعم الطبقة المتوسطة من

---

١. «يُجحِف» من «اجحاف» ومن مادة «جحف» على وزن «جهل» في الأصل بمعنى نزل جلد الشيء، ثمّ استخدمت هذه الكلمة بمعنى الايقاع في المشقّة وتخريب الشيء واعطابه.

أفراد المجتمع ولم يهتما بمخالفة الخواص الذين يرون منافعهم في خطر.

وهذا هو الأمر الذي يطلق عليه في هذا العصر بالديمقراطية الشعبية، أو الديمقراطية الدينيّة، ولكن ربّما يكتفي السياسيون أحياناً بالألفاظ والظاهر لا بالحقيقة والواقع، فالديمقراطية في الحقيقة تعتبر مفهوماً قديماً ولكنّهم أظهروه للناس بقوالب جديدة من الألفاظ والكلمات.

ونرى في هذه الأيّام نوعاً من الأساليب الشيطانيّة المشبوهة من قِبل هذه الطائفة من الخواص الذين يتحركون، وبواسطة استخدام وسائل الاتصالات الجمعية، لخداع الرأي العام وكما يقال: يقومون بغسل الأدمغة بحيث يتصور الناس أنّ مطالب الخواص هي ما يريده عامّة الناس، ولكن مع قليل من الدقّة يمكن كشف هذا الزيف والخداع في مقولاتهم.

وأحياناً يستخدمون اسلوباً آخر، وهو أن يفتحوا الباب على مصراعيه للملذات والأهواء والغرائز البدنيّة ويعملون على إلهاء الناس بهذه الأمور لكي لا يعرف الناس حقيقة ما يجري في المجتمع والحكومة، فلو أنّ الأشخاص العارفين بهذه الأمور والمخلصين للشعب يتحركون على مستوى تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم لئلا يسقطوا في هذه المصيدة، فسوف تنفتح عيون الناس على الحقيقة ويتحركون على مستوى الثورة ضد النظام الحاكم ويلقوا بهؤلاء الانتهازيين في مزبلة التاريخ.

وبما أنّ هذه المسألة تتمتع بأهميّة كبيرة في الإسلام، فالإمام عليه السلام في سياق كلامه يتعرض لشرح أكثر لهذا الموضوع ويبحث في تفاصيل هذه المسألة ويذكر صفات تلك الطائفة من الخواص، وكذلك يذكر خصوصيات الطائفة الأخرى من عامّة الناس والعاملين في المجتمع، وبداية يتحدّث الإمام عن الصفات الذميمة للخواص المغرورين ويذكر لهم سبع صفات:

يقول عليه السلام في الصفة الأولى والثانية: «وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ».

فهؤلاء يتوقعون الكثير من الوالي ومطالباتهم لا تعدّ ولا تحصىٰ ولا تمتليء جيوبهم بسهولة، وعند بروز المشكلات والأزمات يسحبون أنفسهم ويتراجعون إلى الوراء ويقولون بأنّ حفظ البلد والتضحية في سبيله تقع على عهدة العامّة من الناس، ويتصورون أنّهم طبقة ممتازة من الصفوة والنخبة الذين يتكفّلون مهمّة الإشراف وإبداء الرأي فقط.

وفي الصفة الثالثة يقول عليه السلام: «وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ».

لأنّهم يعتقدون بأنّهم شريحة ممتازة ونخبة مفضلة لا ينبغي أن يجعلوا في عرض الآخرين في أي برنامج ومشروع.

ويقول الإمام عليه السلام في بيان الصفة الرابعة: «وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ[1]».

لأنّهم يرون أنفسهم دائمين ومتفضلين، أضف إلىٰ ذلك أنّهم من المقربين للولاة والحكّام وبإمكانهم أن يطرحوا مطالبهم مرات ومرات، بخلاف الجمهور من عامّة الناس الذين يطرحون مطالبهم باصرار أقل بكثير، وأساساً لا مجال لهم عادة للوصول إلىٰ الحكّام والمسؤولين.

وفي الصفة الخامسة والسادسة يقول عليه السلام: «وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ».

لأنّهم لا يرون العطاء والبذل خدمة من قِبل الحاكم تستحق الشكر بل إنّه أداء للدَّين، وفي مقابل الدَّين لا يستحق المدين شكراً ولا ثناءً، فهم يتصورون غالباً أنّه لولا نصرتهم للنظام وإشرافهم على أمر الحكومة، فإنّ هذه الحكومة لا يمكنها أن تستمر في حياتها وتمارس دورها في السيادة والهيمنة، ومن هذا المنطلق يرون لأنفسهم حقّ الحياة على الحكومة، فمهما أُعطوا من المال والحقوق فهو قليل بحقّهم.

---

١. «الحاف» من مادة «لحف» على وزن «حرف» في الأصل تعني تغطية الشيء ووضع الستار عليه، ثمّ استخدمت للاصرار علي شيء، وكأنّه يصرّ عليه إلىٰ درجة أنّه يغطي جميع وجود الطرف الآخر.

ومن هذا المنطلق أيضاً لو لم تتمّ الاستجابة لمطاليبهم فإنّهم قلّما يقبلون العذر في هذا المنع، ويرون أنّ جميع الأعذار في هذا المجال غير مقبولة وغير مبررة وأحياناً يكون العذر أقبح من الذنب.

وفي الصفة السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام: «وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ[1] الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ».

لأنّهم عاشوا حياة الرفاهية والنعمة وقلّما واجهوا المشكلات والتحديات، فلم يشتد لهم عود الصبر والاستقامة، على عكس الجماهير الكادحة في المجتمع الذين تربوا في أجواء المشكلات والأزمات وبنوا ذواتهم في بوتقة المحن والابتلاءات فصاروا كالفولاد في القوّة والمتانة.

والحقيقة أنّه لا يوجد وصف أفضل وأبلغ وأكثر شفافية لهؤلاء القلّة من الخواص المغرورين بامتيازاتهم والذين يعاملون الناس من موقع الاستعلاء والفوقيّة، ونعلم جيداً أنّ جميع هذه الخصائص والصفات ناشئة من تصوراتهم الموهومة عن امتيازاتهم الذاتية وحاجة الحكومة لهم وأفضليتهم على سائر طبقات المجتمع، وهذه الأوهام والخيالات الطوباوية، قادتهم إلىٰ هذه المنزلقات والمتاهات.

أمّا خصائص الجماهير الكادحة في المجتمع الإسلامي، وحسب تعبير الإمام عليه السلام عامة الناس، فتتلخص في ثلاثة أمور: يقول عليه السلام: «وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ[2] الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ[3] لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ما أبلغ هذه العبارات وما أعمق مدلولها، فلولا دفاع العامّة من الناس فإنّ أصول الدين وفروعه ستطوى في عالم النسيان ويصيب الخلل والإرباك مفاصل المجتمع

---

١. «ملمات» من مادة «لمّ» على وزن «غم» تعني تجميع الشيء، ثمّ استخدمت للحوادث الشديد والمؤلمة، وكأن مثل هذه الحوادث تجمع فكر الإنسان وتلفت نظره إليها.

٢. «جماع» في الأصل مصدر وفي مثل هذه الموارد تأتي بمعنى الوصف يعني الجامع والمجمع.

٣. «صغو» تعني الميل إلى الشيء. «صغو» بفتح الصاد وكسرها تأتي بمعنى واحد كما ذهب إليه جماعة من المحققين.

الإسلامي، فلا توجد قوّة للدفاع أمام هجوم الأعداء، ومن هذا المنطلق فإنّ الحكومة يجب أن لا تهتم بادعاءات الأقليّة المترفة وتحصر اهتمامها ورعايتها بالطبقة التي يتوقف عليها بقاء الدين والدنيا وهي الأساس والأصل في حركة المجتمع نحو الإزدهار والتطور.

ويستفاد من مجموع عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة أنّ الجماهير الكادحة من الناس تتمتع بعشر خصائص، وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة منها في المقطع مورد البحث وسبعة منها ذكرها الإمام عليه السلام عند بيان الصفات الذميمة للخواص المغرورين، وهي كالتالي:

١. أنّهم خفيفو المؤنة في حالات الاستقرار الاجتماعي.

٢. أنّهم يشمرون عن سواعدهم ويمدون يد العون في الحكومة في وقت الأزمات والمشكلات.

٣. أنّهم يفرحون من سلوك الوالي في خط الانصاف ورعاية الحقوق للجميع.

٤. عندما يطلبون شيئاً ممّا يحتاجونه في واقع الحياة لا يصرّون كثيراً على مطالبهم.

٥. إنّهم يواجهون الهداية والنعمة بالشكر والثناء.

٦. يقبلون العذر فيما لو وجدت موانع أمام تحقيق مطالبهم.

٧. يتمتعون بالصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحديات.

وعبارة «وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ» إشارة إلىٰ أنّ هذه الشريحة من الجماهير الكادحة هي الركن الأساس للمجتمع الإسلامي، وهذا ما ورد في روايات أخرى بوصفهم «السواد الأعظم»، وبعبارة أخرى لو أخذنا بنظر الاعتبار انفكاك أفراد المجتمع فإنّه لا يبقى هناك مفهوم للمجتمع والأُمّة، ولكن إذا توفرت عناصر التلاحم بين الأفراد، كما هو حال البناء الذي تشتد أواصره بقليل من الجص أو الاسمنت، فإنّ مفهوم المجتمع سيتحقق في الواقع الخارجي، وهذا الأمر لا يتسنى إلّا من خلال هذه

الجماهير الكادحة في جو المجتمع والأُمّة.

وجملة «فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ» مقتبسة في الواقع من القرآن الكريم، وذلك في خطابه للنّبي الأكرم ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[1].

وليس النّبي الأكرم ﷺ فقط مأموراً بالاعتماد على هذه الطبقة الفاعلة والتواصل معهم، بل إنّ جميع الأنبياء السابقين كانوا كذلك، فالقرآن الكريم يتحدّث عن النّبي نوح عليه السلام، عندما تجمع حوله بعض الشبّان المؤمنين واعترض عليه جماعة من الأثرياء وأصحاب المواقع الاجتماعيّة أنّك إذا أردت أن ندخل في دينك فيجب أن تطرد هؤلاء الفتية من حولك، فأمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

## تأمّل

### أنواع الحكومات

قسّم بعض العلماء الحكومات والنظم السياسيّة على إمتداد التاريخ البشري إلى أربعة أقسام:

١. **الحكومة المستبدة:** وهي الحكومة التي تحكم فيها شخص واحد على المجتمع ويديره بوحي من أفكاره الخاصّة دون الخضوع لقانون، فيفرض إرادته على جميع الأفراد (مثل حكومة رؤوساء القبائل في العصور القديمة).

٢. **الحكومة الملكية:** وفيها يكون الحاكم شخص واحد، ولكنّها تملك قانوناً

---

١. سورة الكهف، الآية ٢٨.

٢. سورة هود، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

ونظاماً لتيسير الأمور وتدبير الحكومة.

٣. **حكومة الأشراف** (الأُريستوقراطية) وهي الحكومة التي يتولى أمرها طبقة الأشراف والنبلاء في المجتمع.

٤. **الحكومة الديمقراطية:** وفيها يكون الشعب هو الحاكم الحقيقي لنفسه، ومن هنا يختار الشعب نوّابه وحكّامه من خلال صناديق الاقتراع، ويتولى هؤلاء الوكلاء والنوّاب ترتيب المسائل القانونيّة والقضائيّة والإجرائيّة، وأحياناً تكون الانتخابات بواسطة، وأخرى دون واسطة.

وطبعاً فالحكومة الإلهيّة، أي حكومة الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام، تتمتع بمكانة خاصّة، وذلك أنّهم منصوبون من قِبل الله تعالى لهذه الحكومة ويهدفون لما فيه خير المجتمع وصلاح الناس، ومعلوم أنّ هؤلاء الأولياء، ومن أجل تيسير عملهم وكسب تأييد الجمهور، يستخدمون في الكثير من المواقع عنصر البيعة، ومع بيعة الناس للحاكم الإلهي تزداد مشروعية هذه الحكومة، وهذا الأمر تحقق بشكل كبير في حكومة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين عليه السلام.

٭٭٭

## القسم السادس

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأُهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ. فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ. أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

## الشرح والتفسير

### عليك بستر العيوب!

في هذا المقطع من الرسالة يتحدّث الإمامعليه السلام عن أهميّة الستر على الناس من قِبل الوالي والتأكيد بأنّ وظيفة الوالي لا تنحصر بمكافحة العيوب الظاهرة، بل ينبغي اجتناب التجسس على الناس والتوغل في أمورهم الشخصيّة لمعرفة عيوبهم الباطنية وكذلك الابتعاد عن الأشخاص الذين يتحركون على مستوى كشف عيوب الناس وفضحهم، يقولعليه السلام: «وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأُهُمْ[1] عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ».

وعادة تجتمع حول الوالي أو الحاكم جماعة من هؤلاء الانتهازيين، الذين يبحثون عن عيوب الناس ونقاط الضعف والقصور فيهم من أجل التقرب إلى الوالي والقائد، فيهتكوا أستار الآخرين ممّا يبعث على تشويش ذهن الوالي بالنسبة لهم

---

١. «اشنأهم» من مادة «شنأ» على وزن «شمع» وتعني الحقد والعداوة.

ويعيش سوء الظن بالنسبة لكلّ فرد من الأفراد، فالإمام عليه السلام يقول: يجب أن تبعد هذه الجماعة عن نفسك لأنّهم يتسببون في إرباك الحكومة، فمن جهة يخلقون جو الفرقة والاختلاف بين الناس، ومن جهة أخرى يقومون بتوهين العلاقة بين الوالي والرعيّة، ومن جهة ثالثة يغرسون سوء الظن في فضاء المجتمع الإسلامي.

أجل، ينبغي على الوالي أن يسلك معهم بهذه الطريقة حتى لا يتصور أحد أنّه، ومن خلال النميمة وافشاء عيوب الناس، يتقرب إلى الوالي ويكون من بطانته.

ولتأكيد هذا المعنى يبيّن الإمام عليه السلام دليلاً في هذا الشأن ويقول: «فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا».

ويضيف عليه السلام: «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ».

وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[1].

إنّ ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كلامه يبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ غالبية الناس لهم نقاط ضعف تخفى على الآخرين، فلو أنّ نقاط الضعف هذه ظهرت للملأ فإنّ هذا من شأنه إشاعة حالة سوء الظن بين الناس، والوالي بدوره سيعيش سوء الظن بالنسبة للرعية، وهذه الحالة من سوء الظن، والتي أشار إليها النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً في حديثه، من شأنها تقطيع أوصال المجتمع وتخريب الوحدة بين أفراده وإضعاف عنصر الثقة فيما بينهم، فلايعيش مثل هذا المجتمع التكاتف والتواصل بين الأفراد، وبينهم وبين الوالي، وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم من النهي بصراحة عن التجسس والبحث عن عيوب الناس الخفية تقول الآية: ﴿وَلا تَجَسَّسوا﴾[2]

إنّ الواجب على الوالي أن يتصدى لمن يمزق ستار الحياء ويتجاهر بالفسق والفجوز ولا يأبى من إظهار عيوبه للناس، ويتعامل معه بآليات الاصلاح السلمي

---

١. بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٠.

٢. سورة الحجرات، الآية ١٢.

ومن خلال الموعظة والنصيحة، ولو لم يوفّق من هذا الطريق فإنّه يستخدم القوّة والشدّة ويقيم الحدود الإلهيّة فيما يتعلق بهذا الشخص، فذلك بمثابة العمليّة الجراحية الضرورية لإدامة حياة المجتمع.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام وفي سياق كلامه يتحدّث عن هذا الموضوع من جهة أخرى ويقول: «فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ».

وهو إشارة إلىٰ أنّ الإنسان ينبغي عليه ستر عيوب الناس ليستر الله عيوبه، وهذا بمثابة الثواب الإلهي في الدنيا، وهناك ثواب أعظم ينتظره في الآخرة.

وقد ورد في حديث شريف عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ سَتَرَ أخاهُ فِي فَاحِشَةٍ رَآها عَلَيهِ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنيا وَالآخرَةِ»[1].

وفي حديث آخر عنهصلى الله عليه وآله: «كَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامٌ لَهُمْ عُيُوبٌ فَسَكَتُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فَأَسْكَتَ اللهُ عَنْ عُيُوبِهِمُ النَّاسَ فَمَاتُوا وَلاَ عُيُوبَ لَهُمْ عِنْدَ النَّاس»[2].

ويتابع الإمامعليه السلام كلامه وخطابه لمالك الأشتر ويأمره بأربعة أمور أخرى، بداية يقول: «أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ[3]».

ومن المعلوم أنّ هناك عوامل مختلفة ربّما تثير العداوة بين الناس والوالي، فيجب على الوالي الأخذ بمقتضيات الحذر والانتباه إلىٰ جذور هذه المسألة ونزع فتيل هذا الحقد والعداوة من صدورهم وذلك من خلال سلوكه الحسن معهم والتواصل معهم بشكل يمتص هذه العقد والأحقاد من نفوسهم.

ويحتمل أيضاً في معنى هذه الجملة أنّ الوالي عليه أن يترك حالات الحقد على الناس، ولو أنّ أحداً إرتكب مخالفة فلا يضمرها في قلبه بحيث تتحوّل إلىٰ عقدة، بل عليه أن يتناساها، وقديماً قيل: لا تنسى الخير الذي جاءك من الناس وعليك جبرانه في الوقت المناسب ولا تتذكر إساءتهم لك وتعيش حالات الانتقام تجاههم،

---

١. كنز العمّال، ح ٦٣٩٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٣، ح ٤.

٣. «حقد» العداوة المخبوءة في قلب الشخص وينتظر الفرصة لإظهارها وإبرازها.

ولكن المعنى الأوّل أنسب للعبارة.

ويقول الإمامعليه السلام في التوصية الثانية: «وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ[1]».

لأنّنا نعلم أنّ العداوات لا تحدث بدون سبب، إمّا أن تكون بسبب سوء المعاملة أو تضييع الحقوق أو التكبر والفخر على الآخرين وأمثال ذلك، فعندما يتمّ قلع هذه العوامل والأسباب فإنّ العداوات في جو المجتمع تتبدل إلىٰ محبّة ومودة.

ويقول الإمامعليه السلام في التوصية الثالثة: «وَتَغَابَ[2] عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ[3] لَكَ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّه لا ينبغي لك الاصرار على التدخل في تفاصيل حياة الناس وأعمالهم، وعليك بالتغافل مهما أمكنك ذلك، فإنّ التدخل في جزئيات حياة الأفراد يعيقك عن الاهتمام بالمسائل الكلّية والهامة ويعمق الخلافات والعداوات في فضاء المجتمع.

وفي التوصية الرابعة والخامسة يقول الإمامعليه السلام: «وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ[4] فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ[5]، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ».

ونعلم أنّ النمام هو الشخص الذي ينقل الأخبار الصحيحة والسقيمة بين الأفراد ليوقع بينهم الشقاق ويزرع بذور العداوة في صدورهم، وقديماً قالوا:

وَقَد قَطَعَ الواشُون ما كَانَ بَينَنا ... وَنحنُ إلىٰ أنْ نُوصِلَ الحَبلَ أحوجُ
رَأوا عَورَةً فاستَقبلُوها بِألبِهِم ... فَلم يَنهَهُم حِلمٌ وَلَم يَتَحرَّجُوا
وَكَانُوا أُناساً كُنتُ آمنُ غَيبَهم ... فراحُوا على ما لا نُحبُّ وأدلَجُوا

---

١. «وتر» على وزن «فكر» و «وتر» على وزن «سطر» كليهما بمعنى الوحيد والمنفرد، وبما أنّ الإنسان عندما يقتل فإنّ أقرباءه يجدونه وحيداً، ومن الطبيعي أن يضمروا الحقد في قلوبهم، فاستخدمت هذه المفردة بمعنى اضمار الحقد والعداوة، وهو المراد في الجملة أعلاه.

٢. «تَغَاب» فعل أمر من مادة «تغابي» بمعنى تغافل من مادة «غباوة» بمعنى الجهل وعدم العلم، وكأنّ الشخص الذي يتغافل فكأنّه جاهل بذلك الشيء.

٣. «يضح» من مادة «وضوح» بمعنى وضوح الشيء.

٤. «ساع» من مادة «سعي» في الأصل بمعنى كلّ حركة ونشاط لإنجاز عمل معين، ولكن في هذه الموارد يطلق على الشخص الذي يسعىٰ في النميمة وذكر عيوب الآخرين.

٥. «غاشّ» بمعنى الخائن والمسيء من مادة «غشّ» بمعنى الخيانة والإساءة.

وبعكس ذلك فقد أذن الإسلام في عمليّة إصلاح ذات البين بالكذب لقلع فتيل العداوة وإزاحة غبار الكدورة عن القلوب، وبعبارة أخرى: على المسلم أن يصب الماء على نيران الخلاف والفرقة لا أن يضيف إليها حطباً ويزيدها اشتعالاً.

ونقرأ في الحديث الشريف عن النّبي الأكرمﷺ أنّه قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْمَعَايِبَ»[1].

## تأمّل

## موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس

ربّما يثار هذا السؤال بعدما رأينا ما يقوله الإمامعليه السلام في هذا القسم من الرسالة فيما يتصل بالتستر على الناس وطرد النمامين الذين يتحركون لفضح الناس أمام الوالي، والسؤال هو: إذن لماذا وضع النّبي الأكرمﷺ والإمام أميرالمؤمنينعليه السلام نفسه العيون والجواسيس في شتى نقاط البلاد الإسلاميّة، والذين كانوا يوصلون إليه أخبار الأُمراء والولاة الخفية والجلية، فهل يعتبر هذا العمل مخالفاً لمسألة التستر؟

أضف إلىٰ ذلك أنّه ورد في التعاليم الإسلاميّة فيما إذا استشارك شخص حول أحد الأفراد، فلو كنت تعرف منه بعض العيوب الخفية فعليك أن تذكر ذلك لمن يستشيرك فيه وأنّ هذه المسألة من الأمور المستثناة من الغيبة.

ولا يخفى الجواب عن مثل هذا السؤال، لأنّ كلام الإمامعليه السلام فيما يتصل بالتستر وعدم الكشف عن عيوب الناس، يخص العيوب الشخصيّة والخصوصيّة التي لا تؤثر في مصير الأُمّة أو يكون لها تأثير خفيف جدّاً، ولكن عندما تتعرض مصالح الأُمّة والنظام الإسلامي للخطر ويدور الحديث حول وجود مؤامرة تستهدف مصالح النظام والأُمّة، فهنا يكون لهذه المسألة حكم آخر، وبديهي أنّ الواجب في هذه

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٩، ح ١.

الحالة هو التحقيق والتجسس وإيصال الخبر إلىٰ الوالي لئلا يتسبب في إيجاد الإرباك والخلل في المجتمع الإسلامي وربّما تسفك بسببه الدماء وتنهب به الأموال وتنتهك به الحرمات، ففي هذا المورد لا مكان للتستر عن العيوب ونقاط القصور والتقصير.

وهكذا إذا أراد المسلم أن يقدم على عمل معين، سواء يتعلق بأمر الزواج، أو المشاركة في تجارة، أو اختيار شخص لوظيفة وأمثال ذلك، وسأل شخص خبير ومطلع واستشاره في ذلك، فهنا يعتبر التستر على ذلك الشخص نوعاً من الخيانة، فلا يحق للمستشار أن يكتم عيوب الطرف الآخر الذي استشاره صاحبه في هذه الأمور.

وعلى ضوء ذلك يتبيّن الحد الفاصل بين لزوم التستر على عيوب الناس وحرمة فضحهم وكشف أسرارهم، وبين عمل الاستخبارات في الأمور الاجتماعيّة والسياسيّة وفي مقام المشورة.

80 03

## القسم السابع

**وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.**

## الشرح والتفسير

### إحذر هؤلاء المستشارين!

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته وعهده عن مسألة المشاورين للوالي وصفاتهم وخصائصهم، والملفت للنظر أنّ الإمام لا يتحدّث عن لزوم المشورة لأنّه يعتبر أمراً مسلّماً ومطلوباً بأن يكون للوالي مستشارون أكفاء في شؤون الإدارة السياسيّة والعسكريّة، ليستطيع من خلال الاستفادة من أفكارهم وآرائهم أن يختار الطريق الأفضل لتدبير الأمور ويبتعد بذلك عن الإستبداد بالرأي والاعتماد فقط على أفكاره الفردية، وبالتالي يمكنه مراعاة مصالح الرعيّة مع المشورة بالمقدار الممكن.

يقول الإمام عليه السلام محذّراً مالك الأشتر من مشاورة ثلاث فئات ويبيّن له الآثار والتداعيات السيئة لهذه المشورة، وذلك بعبارات بليغة وموجزة ويقول: «**وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ[1] بِالْجَوْرِ**».

وفي الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام يوصي بالتحلي بثلاث قيم وملكات مهمّة ومؤثرة

---

١. «الشره» بمعنى الحرص الشديد.

على مستوى التدبير والإدارة: السخاء، الشجاعة والقناعة، وبديهي أنّ استشارة الشخص البخيل سيقف حائلاً أمام السخاء والكرم، ومشاورة الجبان من شأنها اضعاف عزيمة وجرأة الرجل الشجاع، وأمّا استشارة الحريص فإنّها تضعف القناعة وتثير في الإنسان الطمع، وبالتالي تقوده هذه الصفات والحالات السلبية إلىٰ ظلم الرعيّة.

ومن جهة أخرى فإنّ البخلاء يعيقون كلّ عمل من شأنه الترفيه والترويح عن الرعيّة، وأمّا في الأمور الدفاعية العسكرية فالجبناء يضعون العصي في عجلات المواجهة مع الأعداء ويضخمون خطرهم ويحبّذون للوالي حالة الخنوع، وأمّا في الأمور الاقتصاديّة فالحريص يقف حائلاً أمام الإزدهار الاقتصادي، وعلى هذا الأساس فالمشاورون للوالي يجب أن يتمّ انتخابهم بما ينتفع بهم في شؤون إدارة البلاد ومدّ يد العون للوالي وتقوية عزيمته وإرادته ويحذرونه من الأمور التي تؤدّي إلىٰ إرباك المجتمع وتعريض مصالح الناس للخطر.

وفي ختام هذا البحث يؤكّد الإمام‌عليه‌السلام على البحث في جذور هذه الصفات الذميمة ويقرر أنّها تمتد إلىٰ أصل واحد ويقول: «فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ[1] شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ».

في هذه العبارة يدرس الإمام‌عليه‌السلام هذه المسألة من زاوية سيكولوجيّة عميقة ويقول: إنّ البخلاء لا يبخلون بشيء من مالهم إلّا بسبب سوء ظنّهم بالله بأنّه سيمنعهم من فضله ومواهبه ويتصوّرون أنّهم إذا أنفقوا اليوم من أموالهم فإنّهم سيكونون غداً فقراء ومحتاجين، أمّا الجبناء فإنّهم يسيئون الظنّ بالله في وعده للمؤمنين بالنصر على أعدائهم ويتصوّرون أنّهم إذا لم يتراجعوا في المعركة فربّما

١. «غرائز» جميع غريزة بمعنى الطبيعة والقريحة والدوافع المتمركزة في باطن الإنسان أو الحيوانات الأخرى، وهي من مادة «غرز» على وزن «قرض» بمعنى ثقب الشيء أو إحداث ثقب فيه وكأنّ باطنه يثقب وتوضع الغريزة في ذلك المكان.

بقوا لوحدهم وهلكوا في مواجهة العدو، أمّا الأشخاص الذين يعيشون الحرص على المال والثروة، فإنّهم لا يملكون حالة التوكل على الله، وفي الحقيقة أنّهم يسيئون الظن بقدرة الله تعالى.

والآيات القرآنيّة بدورها شاهدة على هذه الحقيقة، ففي مورد يقول القرآن: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[١].

وفي آية أخرى يقول: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وفي مورد ثالث يقول: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة، يماثل ما ورد في كلام النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في وصيته للإمام علي عليه السلام. فنقرأ في كتاب «علل الشرائع» حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطب الإمام علي عليه السلام ويقول:: «يَا عَلِيُّ لاَ تُشَاوِرْ جَبَاناً فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ الْمَخْرَجَ وَلاَ تُشَاوِرِ الْبَخِيلَ فَإِنَّهُ يَقْصُرُ بِكَ عَنْ غَايَتِكَ وَلاَ تُشَاوِرْ حَرِيصاً فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ شَرَّهَا وَاعْلَمْ يا عَلِيُّ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ»[٤].

## تأمّل

## أهمّيّة المشورة في حياة الإنسان

إنّ مسألة المشورة والاستشارة تعدّ من أهم المسائل الاجتماعيّة، والدليل على ذلك واضح، لأنّ المشكلات الاجتماعية وحتى الشخصيّة تكون في الغالب معقدة

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

٣. سورة التغابن، الآية ١٦.

٤. علل الشرايع، ج ٢، ص ٥٥٩، ح ١. وينبغي الالتفات إلى أنه عندما يقول الإمام عليه السلام «غرائز شتى» وفي كلام النّبي صلى الله عليه وآله «غريزة واحدة» وذلك بسبب النظرة من زوايا مختلفة إلى هذه المواضيع الثلاثة وهي بحسب الظاهر منفصلة عن بعضها ولكنّها في الواقع تعود إلى أصل واحد.

ومشوشة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكل واحد من الأفراد يملك رأياً وفكراً ربّما يختلف عن الآخرين ويرى المسألة من زاوية واحدة، فلو اجتمعت الآراء والعقول لحلّ مشكلة معينة فربّما نحصل على حلول ناجعة للمشاكل الفرديّة والاجتماعيّة.

ومن هذه الجهة نقرأ في حديث شريف في «غرر الحكم» عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «حَقٌّ عَلىٰ العَاقِلِ أنْ يُضيفِ إلىٰ رَأيِهِ رَأيَ العُقَلاءِ وَيَضُمَّ إلىٰ عِلمِهِ عُلُومَ الحُكَماءِ»[1].

وبديهي كلّما إزداد الأمر أهميّة وخطورة فإنّ أهميّة المشورة ستزداد أيضاً، والتجربة تدل على أنّ الأشخاص الذين يتحركون في أعمالهم المهمّة بآلية المشورة والتباحث مع العقلاء وأهل الخبرة في هذا الشأن فإنّهم قلّما سيواجهون الخلل والفشل، وبعكسهم المستبدون برأيهم الذين يشعرون بالاستغناء عن أفكار الآخرين نرى أنّهم في الغالب يتورطون في أخطاء وأخطار تعود عليهم بالضرر الفاحش، ولذلك نقرأ في كلمات الإمام عليه السلام النورانيّة: «مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»[2].

وجاء في حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه قال: «مَا تَشَاوَرَ قَومٌ إلَّا هُدُوا إلَى رُشْدِهِمْ»[3].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه نقل من التوراة هذه الحكمة: «مَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَم»[4].

ولا فرق أن يستشير الإنسان من هو أعلم وأعقل منه أو يستشير من هو أدنى منه في المرتبة كما ورد عن علي بن الجهم قال: كنّا عند أبي الحسن الرضا عليه السلام

---

١. غرر الحكم، ح ٤٩٦.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦١.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٥، ح ٤.

٤. المصدر السابق، ج ٧٤، ص ٤٣، ح ١٣.

فذكرنا أباه قال: «كانَ عَقلُهُ لا يُوازِن بِهِ العُقُول، وَرَبَّما شاورَ الأسوَدَ مِن سُدانِهِ، فَقيَل لَهُ: تُشاوُر مِثلَ هَذا؟ فَقالَ إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالىٰ رُبَّمَا فَتَحَ عَلَى لِسانِه»[1].

والملفت للنظر أنّ الغرض من المشورة، مضافاً إلىٰ ما تقدّم بيانه من التأكيد البالغ على الاستشارة، أنّ المستشار يفكر في المسألة بنزاهة وبفكر خالص في ذلك الموضوع في حين أنّ صاحب المشكلة الذي يفكر بمنافعه، فإنّ فكره مشوب بالأهواء والمنافع الذاتية: «إنّما حُضَّ عَلىٰ المُشاوَرةِ لأنَّ رَأى المُشيرِ صَرفٌ وَرَأى المُستَشيرِ مَشُوبٌ بِالهَوىٰ»[2].

كما ورد في كلام الإمام علي عليه السلام في هذا العهد: لا يصح استشارة أيّاً كان، فالمستشار يجب أن يكون فرداً عاقلاً ومؤمناً لا يريد إلّا الخير لصاحبه، ولذلك نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المشورة لا تكون إلّا بحدودها، فمن عَرَفَها بِحُدُودِها وَإلّا كانَتْ مَضَرَّتها عَلىٰ المُستَشيرِ أكثَرَ مِن مَنفَعَتِها لَهُ:

أَوَّلُها: أنْ يَكونَ الّذي يُشاوُره عاقِلاً.

وَالثانية: أنْ يَكونَ حُرّاً مُتديّناً.

الثّالثة: أنْ يَكونَ صَديقاً مُؤاخياً.

الرّابعة: أنْ تُطلِعَهُ عَلىٰ سِرِّكَ فَيكُونَ عِلمُهُ بِهِ كَعِلمِكَ بِنَفسِك، ثُمَّ يستر ذلِكَ وَيَكتُمُهُ، فإنَّهُ إذا كَانَ عَاقِلاً انتَفعت بِمشوَرتِه، وإذا كَانَ حُرّاً مُتديّناً جَهَدَ بِنَفسِهِ فِي النَّصِيحَةِ لَكَ، وَإذا كَانَ صَديقاً مُواخياً كَتَمَ سِرَّكَ».

وقال في ختام كلامه عليه السلام: «إذا أطلَعتَهُ عَلَيهِ، وَإذا أطلَعتَهُ عَلىٰ سِرِّكَ كَانَ عِلمُهُ بِهِ كَعِلمِك، وَتَمَّتْ المَشورَةُ وَكَمُلتْ النَّصِيحَةُ»[3].

وفي عالمنا المعاصر أضحت المشورة والشورى أوسع بكثير من السابق،

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠١، ح ٢٥.

٢. غرر الحكم، ح ١٠٠٤٩.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٢، ح ٣٠.

فأحياناً يظنّ الإنسان أنّ اتساع أمر المشورة من شأنه إصلاح أحوال الدنيا في حين أنّ مجالس الشورى هذه ـ وللأسف ـ ترتبط بصبغة سياسية وتتحرك في خط المنافع الفردية أو الفئوية، وفي الحقيقة أنّها تفقد الخلوص والقداسة، والشاهد على ذلك أنّ الكثير من الأشخاص أو الفئات يسعون من خلال بذل نفقات باهظة ليكونوا نوّاباً ينتخبهم الناس لمثل هذه المجالس، وهذا يبيّن بوضوح أنّ هدفهم ليس تأمين مصالح الأمّة، بل بما يعود عليهم أنفسهم بالنفع عاجلاً أم آجلا.

والكلام عن المشورة كثير ومفصّل، والغاية هنا مجرّد إشارة مختصرة في هذا الباب وفي صفات المستشار الذي يتولى مسؤوليّة ثقيلة في هذا الأمر، ونختم هذا البحث بحديث شريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَلَمْ يَمْحَضْهُ النَّصِيحَةَ سَلَبَهُ اللهُ لُبَّهُ»[1].

ﮜﮛ

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٤، ح ٣٦.

## القسم الثامن

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

## الشرح والتفسير

### الوزير الجيد والوزير السيىء!

بعد أن بيّن الإمام عليه السلام صفات المستشارين في المقطع السابق، فإنّه يتحدّث في هذا المقطع عن خصائص الوزراء والمعاونين في الحكومة، ففي البداية يعرّف الإمام عليه السلام الأشخاص الذين يملكون صفات سلبية، ثمّ يتحدّث عن الواجدين للصفات الحسنة والإيجابية، ثمّ يطرح توصياته اللازمة فيما يتصل بكيفية التعامل معهم، يقول عليه السلام: «إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً[1]».

---

١. «بطانة» في الأصل بمعنى الملابس الداخلية (ضد «ظهارة» وهي الملابس الخارجية) ثمّ استخدمت هذه المفردة بمعنى الشخص الموثوق لدرجة حفظ الأسرار، محرم السرّ.

في هذه العبارة يشير الإمام عليه السلام إلىٰ مسألة حسن السابقة وسوء السابقة، ولزوم التحقيق في سوابق الأشخاص الذين يروم اختيارهم لمناصب مهمّة ومسؤوليّات ثقيلة، وهذا هو المتعارف عليه في عالمنا المعاصر فيما يتصل بملف وسوابق المسؤولين.

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام الدليل على ذلك بشفافية ويقول: «فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ[1]، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الشخص الذي عاش مع الظالمين وساند الجائرين والأشرار فإنّ هذه الصفة الذميمة ستتحول في نفسه ملكة وسجية، فحتى لو أظهروا التوبة والإنابة فإنّهم لا يصلحون للوثوق بهم وبخاصة مع وجود الأفراد اللائقين في المجتمع الإسلامي الذين لا يملكون مثل هذه السوابق السيئة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في سياق كلامه: «وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ[2] وَأَوْزَارِهِمْ[3] وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ».

ويستفاد من هذه العبارة أنّ الأشخاص الذين يملكون نقطة سوداء واحدة في ملف أعمالهم السابقة، فلا ينبغي اختيارهم للأعمال المهمّة كالوزارات وأمثالها، بل ينبغي أن يكون تاريخهم وسابقتهم الحسنة واضحة للجميع.

وفي ختام هذا الكلام يستنتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة: «أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى[4] عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً[5] فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ

---

١. «الأثمة» جمع «آثم» بمعنى المذنب.

٢. «آصار» جمع «اصر» على وزن «مصر» في الأصل بمعنى الحفظ والحبس، ثمّ أطلقت على الأعمال الثقيلة التي تمنع الإنسان من النشاط والفعاليّة وكذلك تطلق على الذنوب التي تثقل كاهل الإنسان، وفي الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٣. «أوزار» جمع «وزر» على وزن «مصر» في الأصل بمعنى الحمل الثقيل، وتطلق على الذنوب الكبيرة التي تثقل مسؤوليتها كاهل الإنسان، وذهب البعض إلى أنّ الوزر ذنوب أكبر وأثقل من الاصر.

٤. «احنى» في الأصل بمعنى عطف وإلفات نظر أو الشيء، والعطف هنا بمعنى المحبّة.

٥. «الف» بمعنى ألفة وأنس.

خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ[١]».

في هذه العبارات الموجزة والعميقة في معناها يطرح الإمام عليه السلام أربع نقاط القوّة للذين ليس لهم سابقة سيئة في تاريخهم وحياتهم، ويقول:

١. أنّ هؤلاء الأفراد لا يثقلون على كاهل الوالي في النفقات، لأنّهم في السابق لم تكن لهم منافع غير مشروعة مع حكّام الجور والظلم ليتوقعوا أكثر من حقهم.

٢. أنّ مساهمتهم في تحمل المسؤوليّة أفضل وأكبر لأنّ نياتهم خالصة في هذا السبيل وما يقدمونه من معونة في أمور تحمل المسؤوليّة يقصدون بها الخير للناس والقربة إلىٰ الله.

٣. أنّ حبّهم للوالي أكثر من غيره، لأنّهم يتفقون معه في الفكر والدوافع والنيّات ممّا يتسبب في فوران محبّتهم وشدّة تعاطفهم مع الوالي.

٤. أنّ هؤلاء لا يرتبطون برابطة مشبوهة مع الأجانب والغرباء، فلا يتواصلون إلّا معك ولا يرون سواك.

ومن الجلي أنّ أنصار الظلمة السابقين ليسوا فقط غير صالحين للتعاون معهم، بل بما أنّ الناس يعرفون سوابقهم السيئة ممّا يؤدّي إلىٰ ضعف اعتمادهم علىٰ الوالي وعدم التعاون معه بشكل جيد.

وينقل ابن أبي الحديد هذه القصة بعد أن يروي هذا الخبر الوارد في الروايات: «يُنادىٰ يَومَ القِيامَةِ أَينَ مَنْ بَرىٰ لَهُم ـ أي للظّالِمينَ ـ قَلَما» أتى الوليد بن عبدالملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول في الحجّاج؟ قال: ما عَسيت أن أقول فيه، هل هو إلّا خطيئة من خطاياك، وشرر من نارك؟ فلعنك الله ولعن الحجّاج معك، وأقبل يشتمهما. فالتفت الوليد إلىٰ عمر بن عبدالعزير فقال: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه، هذا رجل يشتمكم، فإمّا أن تشتموه كما يشتمكم، وإمّا أن تعفو عنه. فغضب

---

١. «حفلات» جمع «حفل» على وزن «حرب» في الأصل يعني المحل الذي يتجمع فيه الماء، ثم اطلق على المحل والمجلس الذي يجتمع فيه كثير من الناس، ويقال للمجلس محفل أيضاً.

الوليد وقال لعمر: ما أظنّك إلّا خارجياً، فقال عمر: وما أظنّك إلّا مجنوناً، فقام وخرج مغضباً، ولحقه خالد بن الريّان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاك إلىٰ ما كلّمت به أميرالمؤمنين، لقد ضربت بيدي إلىٰ قائم سيفي أنتظر متى يأمُرني بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم، فلمّا استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلّداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضع سيفك، فإنّك مطيعنا في كلّ أمر نأمرك به ـ وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: ضع أنتَ قلمك، فإنّك كنت تضرّ به وتنفع، اللّهم إنّي قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعَين مهينين حتى ماتا[1].

وبعد أن ذكر الإمامعليه السلام مسألة حسن السابقة في الوزراء والمسؤولين تطرق إلىٰ ذكر الصفات والخصوصيات لدى الجيدين منهم، بداية يقول: «ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ».

وفي الخصوصية الثانية يقول: «وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّك لو سلكت سبيل الخطأ أحياناً فإنّهم سوف لا يساعدونك في ذلك، لتكون منتبهاً وتتجنب التورط في الخطأ والضلالة وتعود إلىٰ خط الصواب، وبعبارة أخرى أنّهم يملكون شخصيّة مستقلة وتفكيراً مستقلاً، فهم يعينونك في الحقّ ولا يعينونك في الباطل.

وفي الخصوصية الثالثة والرابعة يقول الإمامعليه السلام: «وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ».

«الورع» يعني التقوى في حدّها الأعلى، و«الصدق» هو الإخلاص في المشورة وإيصال الأخبار الحسنة والسيئة للوالي.

وعبارة «بِمُرِّ الْحَقِّ» الواردة في العبارة أعلاه، تبيّن أن بيان الحقّ أحياناً يكون

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٧، ص ٤٣.

مستساغاً وحلواً ولكن في الكثير من الأوقات يكون مرّاً وصعباً، ولكنّه بمثابة الدواء الشافي الذي ربّما يكون مرّاً لشاربه بصورة مؤقتة، إلّا أنّه يبعد عن الإنسان المرض الخطير، وهذه إحدى الاختبارات للخواص والمعاونين للوالي، وذلك بأن يملكون الجرأة والشّجاعة لقول الحقيقة للحاكم ولو كانت مرّة ولكنّها مفيدة، فلا يخشون سخط الحاكم لأجل قول الحقيقة.

وفيما لو سلك الحاكم طريق الخطيئة والزيغ فإنّ ذلك يشكل امتحاناً آخر لبطانته، بأن يتحلوا بالشجاعة اللازمة ولا يعينونه أو يتماهوا معه في هذا الطريق بل يعيدونه إلىٰ صوابه وينبهونه من غفلته ولا يتبعونه اتّباع الأعمى ويرجحون رضاه على رضا الله والخلق.

وفي ختام هذا المقطع من التوصيات يقول الإمام عليه السلام فيما يتصل بالوزراء والمعاونين: «ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ[1]، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ[2]».

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «رضهم» من مادة «رياضة» فإنّه في هذا المورد تعني التمرين والتربية، وجملة «يطروك» من مادة «اطراء» بمعنى المدح والثناء الكثير، و«يبجحوك» ما مادة «بجح» (على وزن فرح) وتعني الفرح، وغرض الإمام عليه السلام أنّه لا ينشرح صدرك وينفتح وجهك في مقابل مدح المداحين، فلا ينبغي أن تظهر السرور لذلك، سواء فيما يتصل بأعمالك الحسنة أو ترك الأعمال السيئة، لأنّ تكرار هذا العمل من قِبل الحاشية سيؤدّي تدريجاً إلىٰ التأثير في قلب الوالي، وزرع الغرور والعجب في نفسه، ومعلوم أنّ الغرور بذاته منبع الكثير من الانحرافات الخطيرة.

وجاء في الحديث الشريف عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تُطرُوني

---

١. «الزهو» بمعنى التكبر والعجب.

٢. «العزة» في هذا المورد تعني الغرور، وجاء في بعض النسخ «غِرة» واستعمالها في هذا المعنى أوضح.

كَمَا أَطرَتْ النّصارىٰ عِيسىٰ بنَ مَريم إنّما أنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبدُهُ»[١].

ونقرأ في رواية معروفة: «احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَاب»[٢].

وجاء في حديث عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام في كتاب «غرر الحكم»: «إِيَّاكَ أَنْ تَثنِي عَلىٰ أَحَدٍ بِمـا لَيسَ فِيهِ فَإِنْ فَعَلَهُ يَصدُقُ عَنْ وَصفِهِ وَيُكَذِّبُكَ»[٣].

ومعلوم أنّ هذا العمل ليس باليسير بأنّ تتحدّث البطانة والحاشية مع الحاكم بدون خوف وخشية منه وبدون توقع للصلة والثواب، فيمحضوه النصيحة ويخبروه بالحقائق دون أن يخافوا بطشه ولا يتوقعون ماله ورضاه، وهذا هو شأن الموحّدين الحقيقيين.

وكما قال الخطيب المعروف: إنّ النصيحة للملوك هي من شأن من لا يخاف ولا يطمع.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام يعدّ توصية أكيدة لجميع المسؤولين في مراكز القدرة والسلطة بأن يعلّموا مشاوريهم وبطانتهم على قول الحقّ وأن يكونوا مستعدين لقبول الحقائق المرّة[٤].

---

١. الموطأ، ج ١، ص ١٢ وكتب أخرى.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

٣. غرر الحكم، ص ٤٦٦، ح ١٠٧٣٥.

٤. تحدّثنا عن المدح والثناء في غير محلّه وحالات التملق والتزلف بشكل مفصل في الجزء الثامن ذيل الخطبة ٢١٦.

## القسم التاسع

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ! وَأَلْزِمْ كُلّاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ. وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

## الشرح والتفسير

### إحيي السنن الحسنة

يوصي الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة العهدية لمالك الأشتر بعدّة وصايا أخرى.

بداية يؤكّد الإمام عليه السلام على الإحسان للمحسنين وإنزال العقوبة بالمسيئين ويقول: «وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ

الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَذْرِيباً[١] لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَأَلْزِمْ كُلّاً مِنهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ».

ما يبيّنه الإمام عليه السلام في هذه التوصية يعتبر أحد الأصول المهمّة للإدارة الجيدة، من إدارة الله تعالى والأنبياء للبشرية إلىٰ إدارة ربّ الأُسرة لعائلته وأبنائه.

القرآن الكريم يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالبشارة والإنذار ويعتبره «مبشراً» و«نذيراً»، وكذلك وعد الله تعالى الصالحين بالثواب الجزيل والنعيم الدائم في الجنّة، ووعد المسيئين بالنار والعذاب الأليم.

وهذا الأصل موجود في جميع الأقوام البشرية مع تنوعهم واختلافهم في العقائد والثقافات والأنظمة الحكوميّة، ويندرج تحت عنوان الترغيب والترهيب، والدليل على ذلك بيّن، لأنّ استمرار عمليّة الإحسان وإسداء المعروف للآخرين يتطلب تحفيز الباعث النفسي، ومنع المخالفات أيضاً يستدعي وجود المحفز والباعث، فربّما تؤثر الدوافع المعنويّة والعقائد الدينيّة في هذا المجال، ولكن هذا الدوافع لا تتوفر في جميع الأفراد، أضف إلىٰ ذلك فإنّ وجود مسألة الثواب والعقاب من قِبل الوالي والحاكم من شأنه تجميد البواعث السلبية وترشيد الدوافع الخيرة.

وجملة «وَأَلْزِمْ كُلّاً...» إشارة لطيفة لهذه النقطة، وهي أنّ المرء عندما يتقبل شيئاً لنفسه فلا مسوغ لأن يقوم الحاكم بمنعه، فالمحسن اختار الثواب لنفسه، والمسيىء اختار العقاب لنفسه، ومن هذا المنطلق ينبغي اعطاء كلّ ذي حقّ حقّه.

والأهم من ذلك أنّ الإحسان للمحسنين يؤثر على عمل المسيئين ويرغبهم في ترك الإساءة، وعقوبة المسيئين تدعو بدورها المحسنين للإستمرار في إحسانهم كما ذكر الإمام عليه السلام في كلام آخر له في نهج البلاغة: «ازْجُرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ»[٢].

وهذه إشارة إلىٰ أنّ المسيىء عندما يرى نفسه محروماً من الثواب المادي

---

١. «تَذريب» بمعنى الاعتياد على شيء أو عمل معين، وفي هذا المورد تعني التشويق في مقابل «تزهيد».

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٧٧.

والمعنوي للمحسنين ينتبه إلىٰ خطئه ويثوب إلىٰ رشده وربّما يتوب من عمله ويرتدع عن سلوكه.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في بيان التوصية الثانية ويبيّن أفضل وسيلة لجلب حسن الظّن تجاه الوالي وكسب محبّة الرعايا له ويقول: «وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ».

والتعبير بـ «مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ» مع الالتفات إلىٰ أنّ «قِبَل» تأتي أحياناً بمعنى «عند» وأحياناً أخرى بمعنى «القدرة»، يمكن أن يكون معنى الجملة: الشيء الذي ليس عندهم (وليس في عهدتهم) أو الشيء الذي لا يقدرون عليه ولا يطيقونه[1].

وهذه الحقيقة قد أثبتتها التجارب الكثيرة، فالوالي إذا كان يفكر بأمر الرعيّة، وتحرك المسؤولون للتخفيف عن الضرائب التي تثقل كاهلهم ولم يحمّلوهم ما ليس في طاقتهم من الوظائف والتكاليف، فإنّ ذلك من شأنه تقوية الرابطة العاطفيّة وتوثيق العلاقة بينهم وبين الحكومة، هذه العلاقة الحميمة يمكنها أن تلعب دوراً فاعلاً في حلّ الأزمات والمشاكل المعقدة.

وهنا نقطة مهمّة أيضاً، وهي أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن عوامل حسن الظن للوالي برعيته لا حسن ظن الرعيّة بالوالي، في حين أنّ المناسب حسب الظاهر أن يكون التعبير الأوّل في مثل هذه الموارد أنسب، ولكن مراد الإمام عليه السلام التأكيد على أنّ الولاة وزعماء الأُمّة يسدون الخير والمعروف للرعية إلىٰ درجة أنّهم يطمئنون إلىٰ تأييدهم ووفائهم لهم.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليه السلام في سياق كلامه: «فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً[2] طَوِيلاً».

---

١. رغم أنّ البعض يعتقد بأنّ «قِبَل» إذا أُضيفت للضمير فإنّها تعني القرب، وإذا استعملت منفصلة تعني القدرة والقوّة.

٢. «نَصَب» بمعنى التعب والمشقّة، من مادة «نَصَب» على وزن «نصر» وتعني إثبات الشيء، مثلاً عندما يضعون ☜

وبديهي أنّ الوالي عندما يسيء الظن برعيته فإنّه يحتمل دوماً أن يثور الناس ضده أو يتعاملون معه بآليات التآمر والخيانة، وهذا التذكير والموقف السلبي من الرعيّة يجعله يعيش دائماً حالات التوجس والخوف وعدم الاطمئنان، ولكن عندما يطمئن الوالي لوفاء الرعيّة له وتأييدهم لحكومته فإنّه سيتحرك على مستوى تدبير ونظم الأمور وإعمار البلاد ودفع شرّ الأعداء براحة بال وثقة بالنفس.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام شرحه لهذه التوصية بعبارات بليغة أخرى يقول: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ[1] عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الإحسان للرعية يسبب حسن الظن بهم، فكلما زاد إحسانك لهم زاد حسن الظن بهم، وكما أنّ الإساءة لهم تتسبب في سوء الظن، فكلما إزدادت الإساءة إزداد سوء الظن أيضاً.

وجاء في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة: «كان ابن عباس يقول: ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلّا أضاء بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءً إلاّ أظلم ما بيني وبينه»[2].

ونستوحي ممّا تقدم هذه النتيجة، وهي أنّ الأشخاص الذين وقعوا مورد العقوبة والمؤاخذة، مهما كان الدليل والمسوغ، فإنّ على الوالي والحاكم أن يلتزم جانب الحذر منهم ويتجنب حسن الظن بهم.

٨٠٠٣

---

الرمح في الأرض ويثبتونه يقال نصب الرمح، وبما أنّ التعب يؤدّي إلى توقف الإنسان عن العمل فأطلقت هذه الكلمة عليه، ويطلق على أعداء أهل البيت عليهم السلام نواصب لأنّه رفعوا لواء العداوة لهم.

١. «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجهة تطلق كلمة بلاء بمعنى النعمة وبمعنى المصيبة أحياناً أخرى، وفي الجملة أعلاه أريد بها كلا المعنيين أي بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفردة من مادة «بلىٰ يَبلُو»).

٢. عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج ١، ص ٦٤، حسب نقل شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج ٨، ص ٥١٩.

يذكر الإمام عليه السلام في سياق كلامه نقطة مهمّة أخرى، ويحذر مالك الأشتر من نقض السنن والتقاليد الصالحة، ويقول: «وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ[1] هَـذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ».

وتأتي كلمة «سنّة» على معنيين: فأحياناً يراد منها العادات والتقاليد الموروثة من الأسلاف والقدماء، وهذه بدروها على قسمين: حسنة وسيئة، كما ورد هذا المعنى في الحديث الشريف المعروف عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[2].

والمعنى الثاني للسنّة: كلام النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره، وكلام الإمام عليه السلام في هذه العبارة ناظر إلى المعنى الأوّل بقرينة جملة: «وَلاَ تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ...» مثلاً: أن يقوم شخص أو جماعة في كلّ اسبوع معين من السنة بوصفه اسبوع الإحسان إلى اليتامى أو اسبوع تنظيف المساجد، أو غرس أنواع الأشجار دون أن ينسبوا هـذا الأمر للشرع المقدّس وتبقى هذه السنّة الصالحة ويعمل بها جملة من الناس وتفرز معطيات حسنة على المستوى العام، فالإمام عليه السلام يأمر مالك الأشتر بأن لا ينقض مثل هذه السنن الخيرة بل يترك الناس يعملون بها وينتفعون من بركاتها.

وطبعاً إذا كانت السنن فاسدة ومفسدة من قبيل ما كانت متداولاً في زمان الجاهليّة من ظاهرة الثأر والانتقام ووأد البنات وأمثال ذلك، فينبغي التصدي لمثل هذه السنن الخرافية والخاطئة وغير الإنسانيّة.

ويشير تاريخ الإسلام إلى أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد أمضى السنن الصالحة للقدماء

---

١. «صُدُور» تعني المتقدمين ومن كان يجلس في الصدر، وكذلك مسلمي صدر الإسلام.

٢. كنزالعمال، ح ٩١٠، ووقد ورد مثل هذا الحديث في المصادر الشيعية عن الأئمة المعصومين عليهم السلام بطرق مختلفة وبتعبيرات متفاوتة. أنظر: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٥٧ و ٢٥٨.

ولم ينقضها أبداً، من قبيل السنن التي تركها عبدالمطلب في قومه، ولكنّه حارب السنن الخرافية والسيئة ودعا إلىٰ تركها ونبذها.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام هذا الموضوع بصورة أخرى ويقول: «**وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا**».

وفي الحقيقة يريد الإمام عليه السلام القول: إنّ السنن الصالحة للقدماء لا ينبغي لك نقضها لا بصورة مباشرة ولا من خلال إيجاد العوائق أمامها ليتركها الناس، بل عليك بحفظ هذه السنن والتقاليد لينتفع الناس منها في حال ممارستها والمداومة عليها.

وحول أهميّة السنن الحسنة وفرقها مع البدع وكذلك مع السنن السيئة وإفرازاتها في المجتمعات البشرية، سنتحدّث عن ذلك في خاتمة هذا البحث.

وفي آخر توصية الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة العهدية، يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشتر بأن يكون إلىٰ جانب العلماء والحكماء ويقول: «**وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ**[1] **الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ**».

وفي الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصاياه لمالك الأشتر يؤكّد له السعي في الاستزادة من العلم والمعرفة فيما يتصل بالأحكام والموضوعات وذلك من خلال الإرتباط بالعلماء وأهل الخبرة ومجالستهم حتى يتعرف أكثر على الأحكام الإلهيّة وكيفية إدارة الأمور في حكومته وينتفع من تجاربهم في تشخيص الموضوعات المهمّة. وعندما تزداد معرفة الوالي بالنسبة لهذين القسمين، فإنّ ذلك من شأنه إصلاح أمر البلاد وبقاء السنن الحسنة للماضيين في واقع الحياة الاجتماعيّة.

وينقل الشيخ الكليني في الجزء الأوّل من أُصول الكافي في باب تحت عنوان

---

١. «مُناقَشة» من مادة «نقش» في الأصل تعني اخراج الشوك من البدن بواسطة المنقاش، ثمّ أطلقت على كلّ بحث دقيق وحساب كامل، وعليه فإنّ مناقشة الحكماء تعني البحث الدقيق مع العلماء.

«بابُ مُجالَسَةِ الْعُلَماءِ وَصُحْبَتِهِمْ» عدّة روايات في هذا المجال، منها:

عن الإمام صادق عليه السلام في حديث أنّه قال: «لَمَجْلِسٌ أَجْلِسُهُ إِلَى مَنْ أَثِقُ بِهِ أَوْثَقُ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ»[1].

وفي حديث آخر عن لقمان ينصح فيه ابنه ويقول: «يـا بُنَيَّ اختَرِ المَجالسِ عَلىٰ عَينِكَ فإنْ رَأَيتَ قَوماً يَذكُرُونَ اللهَ جَلَّ وَعَزّ فاجلِس مَعَهُم فإنْ تَكُنْ عَـالِماً نَـفَعَكَ عِلْمُكَ، وإنتْ تَكُنْ جَاهِلاً عَلّمُوكَ، وَلعلّ اللهُ أنْ يُظِلّهُم بِرحمَتِهِ فَيَعُمُّكَ مَـعَهُم، وَإِذا رَأَيتَ قَوماً لا يَذكُرُونَ اللهَ فَلا تَجلِس مَعَهُم، فإنْ تَكُنْ عَالِماً لَمْ يَنفَعُكَ عِلمُكَ، وإنْ كَنتَ جَهلاً يَزيدُوكَ جَهلاً، وَلعلّ اللهُ أنْ يُظلّهم بِعُقُوبَةٍ فَيَعُمُّكَ مَعَهُم»[2].

وفي الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي يتحدّث الإمام زين العابدين عليه السلام عن عوامل سلب التوفيق ويقول: «أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي».

ومن جملة بركات مجالسة العلماء ومحادثتهم أنّ الإنسان لا ينسى علومه ومعارفه، ولو لم يعرف شيئاً فإنّه سيتعلمه كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في كلام آخر له، قال: «مَنْ أَكْثَرَ مُذارَسَةَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْسَ ما عَلِمَ وَاسْتَفادَ ما لَمْ يَعْلَمْ»[3].

## تأمّل

## سبب ظهور السنن

كلمة «سنّة» في الأصل من مادة «سنّ» (على وزن فن) وتعني إجراء الماء على الوجه، ثمّ أُطلقت على كلّ أمر فيه جريان وسريان، وتشمل جميع العادات والآداب الحسنة والسيئة من قِبل شخص أو فئة في المجتمع، ولهذا السبب قسمت إلىٰ سنّة حسنة وسيئة، مثلاً: اقرار برنامج مستمر في كلّ عام من أجل إكرام اليتامى، أو المصالحة بين المتخاصمين والمتشاحنين، هذا يعتبر سنّة حسنة، وأمّا ما جرت عليه

---

١. الكافي، ج ١، ص ٣٩، ح ٥.

٢. المصدر السابق، ح ١.

٣. غرر الحكم، ص ٤٩، ح ٢٧٣.

عادة العرب في الجاهليّة من وأد البنات في التراب أو ما عليه بعض الشبّان في عصرنا الحاضر من اللعب بالمواد المتفجرة في يوم الأربعاء من آخر كلّ سنة يعتبر سنّة سيئة.

وقد ورد في الروايات الإسلاميّة بحوث كثيرة عن الأشخاص الذين يضعون سنّة حسنة أو سنّة سيئة، وقد تقدّمت بعض النماذج والأمثلة عن هذه المسألة في البحوث السابقة، وقد ورد التأكيد في هذه الروايات على أنّ من يضع سنّة حسنة فله أجر وثواب بقدر الأشخاص الذين يعملون بها دون أن ينقص من ثوابه شيء، وأمّا الأشخاص الذين يضعون سنّة سيئة فإنّهم يحملون وزراً بعدد الأشخاص الذين يعملون بها وتكتب في صحيفة أعمالهم دون أن يقل من عقوبة المرتكبين لهذه الأعمال السيئة، وهذا في الواقع من قبيل التسبيب والتعاون على الخير والشر، لأننا نعلم أنّ الإنسان تارة يقوم بعمل بشكل مباشر وأخرى بالتسبيب بإيجاد سنّة حسنة أو سيئة ممّا يدعو الآخرين للإقتداء به.

ومعلوم أنّ مسألة السنن والتقاليد الاجتماعيّة لا ترتبط بالبدع كما تصور بعض الوهابيين المتعصبين، لأنّ البدعة هي ما ينسب إلىٰ الشارع المقدّس والقرآن الكريم وسنّة نبي وليست منها، ولكن السنن والتقاليد المتداولة هي نوع من البدع العرفيّة والاجتماعيّة دون إسنادها إلىٰ الشرع المقدّس، فلو أنّها كانت تصب في مسير أهداف الشريعة المقدّسة، مثل إكرام اليتامى ومساعدة المحرومين فهي سنّة حسنة ومحبّذة وإذا كانت على خلاف ذلك مثل وأد البنات في الجاهليّة فهي سنّة سيئة وغير محبّذة.

ومن هنا يتبيّن ما عليه الوهابيون المتعصبون من موقفهم المخالف لبعض المظاهر العرفية والدينيّة من قبيل الاحتفال بميلاد النّبي الأكرم ﷺ أو إقامة مراسم العزاء على الأموات، وهو ناشىء من سوء فهمهم وخلطهم السنّة بالبدعة، في حين أنّ الروايات التي تتحدّث عن السنّة الحسنّة والسيئة واردة في كتبهم ومدوّناتهم[1].

---

١. سنن البيهقي، ج ٤، ص ١٧٦؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٦٢.

## القسم العاشر

**وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.**

## الشرح والتفسير

### الطبقات الاجتماعيّة المختلفة

في هذا المقطع من عهد الإمام عليه السلام المعروف يتطرق الإمام لأحد أهم البحوث الاجتماعيّة والسياسيّة ويقسم الناس في المجتمع إلىٰ سبع طبقات أو سبع شرائح وفئات، وقبل أن نستعرض هذه الأقسام والفئات نشير إلىٰ هذه النقطة التي أشار إليها بعض شرّاح نهج البلاغة، وهي أنّ الإنسان خلق اجتماعياً «مدني بالطبع» لأنّه من جهة يعيش حاجات متنوعة وكثيرة لا يستطيع كلّ فرد لوحده أن يؤمن هذه الحاجات، مضافاً إلىٰ أنّ كلّ فرد لا يقنع بحياة تسير على وتيرة واحدة، بل إنّ المجتمع البشري يسير دائماً نحو التحوّل والتكامل، وهذا التكامل يستدعي تنوع الحاجات وزيادتها، ومن أجل حلّ المشكلات وإشباع هذه الحاجات المتنوعة لا يوجد طريق عقلائي سوى أن تقوم كلّ جماعة بإشباع بعض هذه الحاجات، ويتمّ التبادل مع الآخرين في واقع الحياة الاجتماعيّة لينتفع الجميع من عملهم وأتعابهم،

فجماعة منهم يتولون مسؤوليّة النظم والأمن، وجماعة أخرى يهتمون بالزراعة والرعي لتأمين المواد الغذائيّة، وفئة منهم يختصون بأمر التعليم وتربية الأبناء والجيل الناشيء، وفئة يتجهون نحو الصناعات المختلفة، آخرون يتكفلون مسألة الطب وعلاج المرضى، وجماعة يأخذون على عاتقهم أمر القضاء وفصل الخصومات و...الخ.

وقد وصل الحال في هذا العصر إلىٰ حدٍّ أنّ تأمين حاجات البشر في مورد واحد يستدعي وجود مئات أو آلاف الفروع التخصصية، وكل جماعة يعملون في فرع خاص منها.

وعلى هذا الأساس قسّم الإمام عليه السلام المجتمع إلىٰ سبع طبقات، وهي في الواقع سبعة أعمدة لخيمة الحياة الاجتماعيّة، رغم وجود طبقات أخرى أيضاً يمكن فرضها في واقع المجتمع، ولكن العمدة والأساس هي سبع طبقات أو سبع شرائح اجتماعيّة.

يقول الإمام عليه السلام: «يا مالك» اعلم أنّ الناس في المجتمع أو البلد يتشكلون من فئات متعددة وأنّ كلّ فئة منهم لا تستغني في صلاحها إلّا بالأخرى، وكل واحد منها تحتاج إلىٰ أخرى.

فجماعة يمثّلون جنود الله (وهم الذين يتكفّلون حفظ الأمن والنظام في المجتمع ويتولون الدفاع عنه في مقابل الأعداء).

وفئة أخرى هم الكتّاب من العامّة والخاصّة (ومسؤوليّتهم حفظ الحسابات الماليّة للحكومة وتنظيم الميزانيّة وتثبيت الأسناد والوثائق وتعليم وتربية الناس).

وفئة ثالثة هم القضاة الذين يتولون إقامة العدل والفصل بين الخصومات وإحقاق الحقوق.

وفئة أخرى هم العاملون بالانصاف والرفق، وهم الموظفون في الدوائر الحكوميّة.

وفئة تتولى أخذ الجزية والخراج من غير المسلمين الذين يعيشون في ظلّ الحكومة الإسلاميّة، (ويدفعون الضرائب في مقابل حفظ أنفسهم وأموالهم من قِبل الحكومة الإسلاميّة).

والمسلمون الذين يعملون في الأراضي الخراجيّة ويدفعون خراجها إلىٰ الدولة.

وجماعة أخرى من التجّار وأهل الصنائع، وجماعة من الطبقة السفلى من المحرومين والمساكين (والعجزة والمسنين الذين لا يقدرون على الكسب والعمل:

«وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ».

ثمّ يشير الإمامعليه السلام إشارة إجماليّة لحقوق ووظائف كلّ منها، ثمّ يفصّل الكلام عن خصوصيات وصفات ووظائف وحقوق كلّ واحدة من هذه الفئات والطبقات.

ويقولعليه السلام في إشارة إجماليّة: «وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً».

ومعلوم أنّ المراد من جنود الله هم أفراد الجيش الذين يتولون حفظ الثغور وحدود البلد الإسلامي في مقابل هجوم الأعداء.

أمّا الفئة الثانية التي عبّر عنها الإمامعليه السلام بكتّاب العامّة والخاصّة. فالكتّاب الخاصّة هم الذين يكتبون الكتب الرسمية للوالي والمسؤولين ويحفظون أسرار الحكومة ويوقّعون على العقود المهمّة كعقود الصلح وأمثالها. وأمّا الكتّاب العامّة فهم جميع الموظفين الذين يتولون أمر حساب النفقات والواردات لخزينة الدولة ويتولون أمور القروض وتسديدها ويجمعون مطالب الناس، وربّما يشمل هذا المعنى في عصرنا مراكز التعليم والتربية للشبّان والفتيات.

أمّا قضاة العدل فيشمل جميع الموظفين في جهاز القضاء الإسلامي وعلى رأسه القضاة.

وأمّا عمّال الانصاف والرفق، فهو إشارة للأمراء والولاة على المحافظات لإدارة المدن والمناطق المختلفة في البلد الإسلامي، وإضافة كلمة «الإنصاف والرفق»

إشارة إلىٰ أنّه يجب انتخابهم من بين الأشخاص الذين يتمتعون بهاتين الصفتين: الانصاف من خلال إيصال الحقوق إلىٰ أصحابها، وكذلك يتعاملون مع الناس بآليات الرفق والمداراة والمحبّة.

وأمّا أهل الجزية والخراج فهي إشارة إلىٰ فئتين من المواطنين في البلد الإسلامي، فأهل الجزية إشارة إلىٰ غير المسلمين من أهل الكتاب الذين يعيشون في كنف الحكومة الإسلاميّة ويدفعون ضرائب سنوية، وهي في الغالب مبلغ زهيد، للحكومة، وفي مقابل ذلك تتولى الحكومة الإسلاميّة الدفاع عن حقوقهم وحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

والقسم الثاني هم الزراع الذين يتولون زراعة الأراضي المتعلقة بالمجتمع الإسلامي، (وتدعى الأراضي الخراجيّة) ويقومون بأمور الزراعة والبستنة في مقابل دفع مبلغ من المال في كلّ عام بعنوان الخراج، وهو في الواقع ثمن أُجرة تلك الأراضي.

أمّا التجّار وأهل الصناعات الذين يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم شريحة مهمّة من شرائح المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت وكذلك في هذا العصر، الإمام يوصي بعدّة وصايا في هذه الرسالة العهدية فيما يتعلق بهم.

وآخر فئة من الفئات السبع هي الطبقة السفلي ويتشكلون من العجزة والمسنين والمعاقين وأهل الحاجات الخاصّة الذين يؤكّد الإمام عليه السلام كثيراً في هذه الرسالة على ضرورة الاهتمام بأمورهم أكثر من أي فئة أخرى من هذه الفئات السبع التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلامه.

## تأمّل

### الشرائح الاجتماعيّة

يعبر عنها أحياناً الطبقات الاجتماعية، كلمة «طبقة» في اللغة تأتي لمعانٍ كثيرة

متقاربة، من قبيل: جماعة، مرتبة، نسل، صنف، وطبقات الأرض أو طبقات البناية، وفي هذا المقطع من الرسالة جاءت بمعنى الشريحة الاجتماعيّة، ولكنّ هذه المفردة تستخدم في عصرنا الحاضر للإشارة إلىٰ الفئات التي تعلو كلّ واحدة منها على الأخرىٰ في الامتيازات والمقامات، ومن هنا فإنّ الحياة الطبقية تشير إلىٰ الحياة التي يعيش فيها جماعة من الأثرياء وجماعة من الفقراء في المجتمع، ومن هذه الجهة يتبادر إلىٰ الذهن مفهوم سلبي عن هذه الكلمة، وطبعاً فإنّ هذا المفهوم السلبي ليس هو المعنى اللغوي في الأصل، وكلام الإمامعليه السلام بدوره لا يشير إلىٰ هذا المعنى السلبي للطبقيّة.

وهذه الكلمة من مادة «طَبَق» وتعني المساواة بين شيئين، ولذلك تستخدم كلمة المطابقة والتطابق بهذا المعنى.

وربّما يتصور البعض وجود مجاميع وفئات أخرى في المجتمع البشري لا ينضوون تحت أي عنوان من هذه العناوين السبعة، ومن ذلك: طبقة العمّال، الاستخبارات، عمّال الحسبة، وهم الأشخاص الذين يتولون الإشراف على الأمور الأخلاقيّة في المجتمع والمسؤولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثال ذلك.

ولكن مع التدقيق في المسألة يمكننا إدخال كلّ هذه الفئات تحت مجموعة من هذه المجاميع السبع المذكورة، مثلاً عمّال الحسبة يدخلون تحت مظلّة جماعة القضاة، والعمّال يندرجون في فئة «أَهْلَ الصِّناعَات»، والكسبة يدخلون تحت عنوان التجّار، وأفراد الاستخبارات تحت عنوان «عُمّالُ الإِنْصَافِ وَالرِّفْق».

ﮧﮨ

## القسم الحادي عشر

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

## الشرح والتفسير

### الأواصر بين الطبقات الاجتماعيّة

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الرسالة إشارة إجماليّة شاملة إلىٰ سبع فئات أساسيّة في المجتمع الإسلامي، ثمّ شرع في هذا المقطع والمقاطع التالية بشرح الوظائف والمسؤوليّات الملقاة على عاتق على كلّ واحدة من هذه الفئات، وبما أنّ قوات الأمن والجيش تعدّ أهم ركن من أركان المجتمع فقد بدأ الإمام عليه السلام

بهذه الشريحة.

يقول عليه السلام: «**فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ[1] الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ**».

في هذه الجمل الوجيزة يبيّن الإمام عليه السلام خمسة نتائج ايجابية ومعطيات مهمّة لوجود أفراد الأمن والجيش المخلصين.

الأولى: أنّهم حصون الرعيّة، وهذا يعني أنّ البلاد ومن أجل حفظها من خطر الأعداء تحتاج إلىٰ حصن حصين وملجأ آمن، وهذا الحصن والملجأ يتمثّل بأفراد الجيش الإسلامي المقتدر، لأنّ كلّ أشكال الضعف والفتور في القوات العسكرية يؤدّي إلىٰ طمع الأعداء ويورث أنواع المشكلات للمجتمع الإسلامي، وفي الماضي وبما أنّ الأسلحة كانت بسيطة جدّاً وابتدائية فإنّ وجود الحصون والقلاع القوية من شأنه أن يمنع الكثير من الأخطار والأضرار، رغم أنّ وجود هذه الحصون في هذه الأيّام ومع تطور الأسلحة من طائرات حربية وصواريخ ومدافع بعيدة المدى لم يعدّ مؤثراً كثيراً في ميزان القوى.

الثانية: يعتبر الإمام عليه السلام أنّ الجيش زينة القيادة والحكومة، لأنّ الحاكم أو القائد يحضى باحترام عامّة الناس ويملك القدرة والنفوذ في أمر الولاية، وهذه القدرة تتمثّل في الدرجة الأُولى بوجود جيش قوي ومطيع لأوامر القيادة.

الثالثة: أنّ الجيش سبب عزّة الدين وقدرته، وهذه إشارة واضحة إلىٰ هذه الحقيقة، وهي أنّ الأمور المعنويّة للناس لا تتيسر من دون وجود جيش قوي وفاعل، وقسم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحقاق الحقوق وإجراء الحدود وبسط العدل وإقامة القسط، يحتاج إلىٰ القدرة الكافية لتجسيدها وترجمتها

---

١. «عزّ» و «عزيز» من مادة «عزت» تعني في اللغة كلّ شيء يصعب الوصول إليه، ومن هذه الجهة يقال للأرض التي يصعب عبورها أو إيجاد الشق فيها أرض «عَزاز»، وكذلك يطلق على كلّ شيء يصعب الوصول إليه بسبب قلّته فيقال عزيز، وكذلك يطلق على الأشخاص الأقوياء الذين يصعب التغلب عليهم أو يستحيل الغلبة عليهم، ولذلك تأتي «عزة» بمعنى القدرة والندرة، وأيضاً بمعنى الثمين، وفي العبارة أعلاه جاءت بمعنى القدرة.

على الأرض والواقع الاجتماعي، وهذا مرتبط بوجود جيش قوي.

الرابعة: يتحدّث فيها الإمام عليه السلام عن حالة الأمن الذي يتحقق بواسطة الجيش القوي، ويشير إلىٰ أنّ الجيش القوي ليس فقط يتولى اخراج العدو من أراضي المسلمين: بل ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]. أي يخيف أعداء الداخل أيضاً، أو بمعنى أنّ الجنود في هذا المورد أعم من قوى الأمن والجيش، أو يراد بذلك أنّ الحكومة الإسلاميّة وفي موارد استثنائية لا تتمكن فيها قوات الأمن والشرطة من تحقيق الأمن في ربوع المجتمع الإسلامي، فإنّها تعتمد على الجيش في هذا الأمر لتحقيق الأمن في فضاء المجتمع.

الخامسة: يقول الإمام عليه السلام: إنّهم قوام الرعيّة، وربّما تكون هذه الجملة بمثابة النتيجة لما سبق بيانه في الجمل الأربع السابقة، ويحتمل أيضاً أن تكون جملة مستقلة، والمراد منها أنّ الجيش في الكثير من المواقع يهب لمساعدة الناس في الزلازل والسيول والحوادث الطبيعية الصعبة، بحيث تضطر الدولة للإستعانة بقوات الجيش لمساعدة الناس.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الإرتباط الوثيق بين هذه الفئة من المجتمع مع الفئات الأخرىٰ، ويتحدّث عن الرابطة بين الجيش وعمّال الخراج: «ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ».

ويستفاد من تاريخ الإسلام أنّ الجيش الإسلامي لم يكن في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل شريحة منفصلة ومستقلة عن المجتمع، بل إنّ كلّ أفراد المجتمع من الشبّان والشيوخ، الكبار والصغار الذين يستطيعون حمل السلاح يهبون للدفاع عن الإسلام والمسلمين في مقابل الأعداء ويتّجهون مع النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلىٰ ميادين الحرب والقتال، وفي الغالب يهيئون سلاحهم ودوابهم بأنفسهم، ومعلوم أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله

---

١. سورة الأنفال، الآية ٦٠.

وقبل حركة الجيش نحو ميدان القتال يأمر بتجهيز الزاد والمتاع لأفراد الجيش من طريق الزكاة والتبرعات التي يقدّمها المسلمون في سبيل الله.

ولكن في العصور اللاحقة وبعد أن اتسعت الدولة الإسلاميّة وإمتدت إلىٰ مساحات وبلدان كبيرة ولضطرت الحكومة لتجهيز جيش مدرّب ومهني لمقابلة الأعداء، واضطر المسلمون لتنظيم جيشهم وتوفير المعسكرات اللازمة له[1].

وأساساً فإنّ مدينة الكوفة عرفت بأنّها «كوفة الجند» وكانت بمثابة معسكر كبير للجيش الإسلامي.

طبعاً كان الأفراد العاديون يلتحقون بالجيش في المواقع الحساسة ويؤدّون دورهم تحت عنوان الجهاد في سبيل الله والذي هو وظيفة جميع الأفراد القادرين على الجهاد.

على أيّة حال فإنّ هذه الفئة التي وضعت نفسها في خدمة الإسلام وحفظ ثغور المسلمين والدفاع عن حياضهم ينبغي أن يعيش أفرادها الطمأنينة وفراغ البال من معيشتهم وممّا يحتاجونه في حياتهم المادية، ولذلك وضع الإسلام ضرائب خاصّة تدعى بالخراج وكذلك وضع سهماً من الزكاة بعنوان: في سبيل الله، لهؤلاء الجند.

والجمل الثالث المذكوة أعلاه ربّما تكون إشارة إلىٰ حاجات الجند المختلفة، فجملة «الَّذِينَ يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ» إشارة للحاجات التي تتصل بالحرب والقتال من قبيل السلاح والمركب.

وجملة: «وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ» إشارة لتأمين ضروريات الحياة.

وجملة: «وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ» إشارة إلىٰ الأمور الترفيهية، وذهب بعض الشرّاح إلىٰ أنّ المراد من هذه الجملة أنّ أفراد الجيش لابدّ أن يكون لهم مرتب مستمر وحقوق ماليّة من شأنها رفع جميع حاجاتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن إرتباط هاتين الفئتين مع الفئة الثالثة والرابعة والخامسة، أي

---

١. بحثنا حول الخراج بشكل مفصل في ذيل الرسالة ٥١.

القضاة والموظفين والمحاسبين، ويقول: «ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ[1]، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا».

وفي الواقع أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارة النورانيّة أدغم ثلاث فئات من الفئات الاجتماعيّة في صنف واحد، وبعنوان الصنف الثالث في مقابل الصنفين السابقين، أي الجيش وعمّال الخراج، وذكر لكلّ واحد من هذه الأصناف أثر اجتماعي مهم.

فبالنسبة للقضاة يقول عليه السلام: إنّهم يعملون على إحكام العقود، لأنّه لولا إشرافهم ومراقبتهم لهذه العقود والمواثيق فإنّ الكثير من الناس يجدون الفرضة في عدم الالتزام بعهودهم، ولكن وجود المحاكم العادلة يعمل على ضبطهم والتزامهم بالعقود، لأنّهم سيكونون ملاحقين من قبل المحاكم ويعاقبون على مخالفتهم.

ويتحدّث الإمام عليه السلام عن العمّال أي الموظفين والولاة والمسؤولين الذين يتولون الإشراف على جمع المنافع، فصحيح أنّ المأمورين على جمع الضرائب والخراج يتحركون على مستوى جمعها وإرسالها لبيت المال، ولكن المشرف على أعمالهم وسلوكياتهم هم العمّال، يعني الولاة ورؤساء مجالس المحافظات والنواحي التابعة لهم.

ويبيّن الإمام عليه السلام فائدة وجود الكتّاب، وذلك في ضبط الأمور العامّة والخاصّة النفقات وحساب بيت المال والميزانيّة في الحكومة الإسلاميّة، وعندما تتضامن وتتكاتف هذه الفئات الثلاثة فسيتمّ إصلاح أمر الخراج والضرائب، ومع إصلاحها سيتمّ إصلاح وضع الجنود وقوات الحرس والأمن.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هذه الفئات الثلاثة صنف واحد وتتلخص في القضاة والعمّال، وما ورد في الجمل الثلاثة يعود إلى القضاة، في حين أنّهم ثلاث

---

١. «مَعاقِد» جمع «مَعْقِد» على وزن «مسجد» في الأصل بمعنى محل العقدة في الخيط أو الحبل، ثمّ أطلقت على كل معاملة وعقد اعتباري لمناسبة وجود عقدة تربط بين الطرفين، والجذر الأصلي لها «عقد» بمعنى ربط الطرفين.

فئات اجتماعيّة قطعاً، وسبق أن أشار إليها الإمام عليه السلام في كلامه، وفي هذا المورد أيضاً، ذكر الإمام عليه السلام وظيفة وبرنامج كلّ واحدة منها، بالرغم من وجود الارتباط القريب والوثيق بينها، ومن هنا ذكرت هذه الفئات بوصفها صنف ثالث.

وربّما يطرح هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام سبق وأن أشار إلىٰ صنفين، وطرح مسألة جمع الخراج بوصفها الصنف الثاني فكيف يكون العمّال هنا واحدة من الفئات الثلاثة التي يتشكل منها الصنف الثالث؟

والجواب على هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام كان يتحدّث في بداية كلامه عن الجيش والمزارعين الذين يزرعون الأراضي الخراجيّة ويدفعون الخراج إلىٰ الحكومة، ولكنّه في هذا المورد يتحدّث عن عمّال الدولة، أي الولاة والمحافظين الذين يقع على عاتق أمر الإشراف على جمع الخراج ويتصدى موظفيهم لجمعه.

والجدير بالذكر أنّ العمّال جمع «عامل» وردت في كلمات الإمام عليه السلام كرات عديدة ويراد بها منصب المحافظ والقائم مقام وغير ناظر إلىٰ ما ورد في القرآن الكريم في مورد الزكاة من قوله: «عٰامِلينَ عَلَيْهٰا» أي المأمورون على جمع الزكاة.

والتعبير بـ «خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا» إشارة إلىٰ أنّ عمل الكتّاب تارة يتحدد في إثبات وضبط المسائل السرّيّة، وأخرى يرتبط بإثبات النفقات والموارد الماليّة الاعتيادية، فهؤلاء يتولون وظيفة حفظ الاسناد والوثائق وترتيبها، وكذلك حساب النفقات والواردات.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام إرتباط فئة أخرى مع الأصناف السابقة ويقول: «وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ[1]، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ[2] بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ».

---

١. «مَرَافِق» جمع «مرفق» على وزن «مسجد» وكذلك جمع «مرفق» على وزن «محور» ويعني الأمور التي ينتفع بها الإنسان.

٢. «التَّرَفُّق» يعني الاستفادة والانتفاع من الشيء، وجملة (مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ) إشارة إلىٰ أنّ الله تعالى قد ☜

ومعلوم أنّ جملة: «فِيمَا يَجْتَمِعُونَ...» و «يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ» إشارة إلىٰ التجّار والكسبة الذين يقع على عاقتهم تجميع وتوفير ما يحتاجه الناس من المناطق القريبة والبعيدة وعرضها في الأسواق ووضعها تحت اختيار المستهلكين، ولكن جملة «وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ...» إشارة إلىٰ أهل الصنائع الذين يوفرون بتعبهم وعملهم الوسائل التي تحتاجها الناس في معيشتهم، وذلك بصناعتها بأيديهم (طبقاً لظروف ذلك الزمان) ويضعونها في اختيار من يحتاجها من الناس.

وربّما يتصور البعض أنّ التجّار ليس لهم دور مهم في حياة الناس، فلا يقومون بعمل إنتاجي ولا صناعي، ولا يعملون بالزراعة والرعي، فكيف جعلهم الإمام عليه‌السلام من أركان المجتمع البشري، ولكن إذا كان التاجر ملتزماً بالقيم الإيمانيّة والأخلاقيّة فإنّه يلعب دوراً مهماً في نسيج المجتمع، لأنّه من جهة يقوم بتوفير الأجناس والبضائع من مناطق مختلفة من العالم لا تتوفر في مناطق أخرى، فلو أنّ الناس أرادوا الانتفاع من جميع النعم والبركات الإلهيّة على الأرض، فينبغي أن تتولى جماعة نقل هذه البضائع التي يحتاجها الناس من نقطة إلىٰ أخرى، وهذه الجماعة هم التجّار، ومن جهة أخرى ففي الموارد التي يتولى فيها أهالي المدينة الواحدة إنتاج ما يحتاجونه من البضائع واللوازم المعيشية فإنّ المنتجين في الغالب لا يستطيعون عرض ما ينتجونه في السوق ويبيعونه إلىٰ المشترين، بل يضطرون لبيع منتوجاتهم جملة واحدة لشخص يملك رأس مال كافٍ، ويتولى ذلك الشخص بيعها إلىٰ الكسبة في السوق، والكسبة بدورهم يبيعونها إلىٰ المشترين.

ومن جهة ثالثة فإنّ الكثير من المحاصيل الزراعية والمنتوجات الصناعية التي ربّما لا يتسنى لها التصريف والبيع في محل إنتاجها وينبغي جمعها وعرضها على السوق، فهنا يجب أن تتولى جماعة هذا العمل على أساس أنّه من الصادرات

---

☜ خلق للإنسان قابليات وملكات مواقع اجتماعيّة مختلفة، فكثير من الأعمال التي يستطيع البعض القيام بها لا يستطيع البعض الآخر، وهذه هي طبيعة الحياة الاجتماعيّة، بحيث إنّ كلّ شخص يشتغل بعمل ينسجم مع استعداده وطاقاته، والآخرون ينتفعون من عمله وينتفع بدوره من أعمالهم وطاقاتهم.

والواردات، وهذه الجماعة هم التجّار وبخاصة المحاصيل التي تحتاج في حفظها وإدخارها إلىٰ مخازن مجهّزة خارجة عن عهدة المنتج وأرباب الصناعات، فالتجّار لهم دور مهم في هذه الأمور الثلاثة، وهذا يعني أنّ وجود هاتين الواسطتين «التجّار والكسبة» ضروري لغرض تداول أموال المحاصيل والمنتوجات بشكل صحيح، ولكن إذا تعددت الوسائط وأرادت كلّ جماعة أن تستغل التجار بدون أن توفر عملاً إيجابياً وتريد زيادة ثمن البضاعة أو المنتوجات الزراعية والصناعية، أو يقوم بعض التجّار والكسبة باحتكار البضائع أو تداولها من يد إلىٰ أخرى وتشكيل سوق سوداء بأثمان زائفة ووهميّة، فذلك يعدّ انحرافاً في التداول الاقتصادي للمال ولا يرتبط بمسألة التجارة.

ولهذا السبب نرى أنّ جميع الحكومات جعلت إحدى الوزارات باسم وزارة التجارة من أجل الإشراف على أمر التجارة، بل تساهم في مدّ يد العون للتجار واعطائهم رؤوس أموال لازمة للقيام بعمليّة الصادرات والواردات، وهذا العمل يمثّل في الواقع حلقة مكملة لعمل أصحاب الصناعة والزراعة والرعي.

ثمّ يتحدّث الإمامعليه السلام عن الطبقة الدنيا في المجتمع ويقول: «ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ[1] وَمَعُونَتُهُمْ».

ومن المعلوم أنّ في كلّ مجتمع بشري هناك أفراد لا يستطيعون العمل والكسب وهم مستهلكون فقط، وذلك بسبب الشيخوخة، المرض المزمن، الإعاقة في الأعضاء، وبسبب الحوادث المختلفة، المتخلفون ذهنياً وعقلياً وأمثالهم من ذوي الحاجات الخاصّة، فالكثير من أفراد هذه الفئة كانوا في السابق وفي أيّام الشباب يعيشون سلامة الجسم والروح ومن المنتجين والفاعلين في المجتمع، ولكن بسبب مرور الزمان والحوادث المختلفة صاروا بهذه الحالة، فلا العقل ولا الوجدان يقبل أن يهمل هؤلاء ولا تتمّ حمايتهم على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، ولهذا السبب

---

١. «رفد» يعني العطاء والعفو.

نجد في كافة أقطار الدنيا أنّهم يفتحون حساب خاصّاً لهؤلاء المقعدين ويخصصون قسماً من ميزانيّة الدولة لانفاقه عليهم ويفتحون لهم مراكز لاحتضانهم وحمايتهم، وقد وردت التوصيات الأكيدة في الإسلام فيما يتصل بالتواصل مع هذه الفئة المحرومة، وقد فرضت الشريعة الإسلاميّة سهماً خاصاً لهم من الخمس والزكاة.

أضف إلىٰ ذلك لو اهملت هذه الشريحة فإنّ ذلك من شأنه إفراز مشكلات مهمّة لباقي الشرائح والفئات الأخرىٰ في المجتمع، فمن جهة ربّما يسعى أفراد هذه الفئة المحرومة ومن أجل تأمين معيشتهم، لإرتكاب جرائم مختلفة وسلوك طريق الانحراف والجنوح، أو ترى الفئات الأخرىٰ حال هؤلاء فيؤثر ذلك على معنوياتهم ويفكرون في أنّهم إذا حلّ بهم يوماً ما حلّ بهؤلاء فماذا يكون مصيرهم؟ ولكن عندما يرون أنّ الحكومة والمجتمع سيعتني بهم ويهب لحمايتهم في حال إعاقتهم وعجزهم عن العمل والكسب، فإنّهم سيعيشون الأمل في مستقبلهم.

وعبارة «أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ...» إشارة إلىٰ طائفتين: أهل الحاجة هم الأشخاص الذين يعملون للكسب وتوفير المعيشة ولكنّ عائدهم المالي لا يسدّ نفقاتهم، وأهل المسكنة إشارة إلىٰ العجزة والمقعدين الذين ليس لهم وارد مالي ولا يتمكنون من العمل مطلقاً.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام وضعية الترابط بين هذه الطبقات الاجتماعيّة، أشار إلىٰ نقطة مهمّة وقال: «وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ جميع هذه الطبقات والفئات ومن أجل التوصل لتحقيق مرادهم، فإنّهم يستمدون المعونة من مصدرين: الأول: مصدر الخلق والرزق، وهو الله الذي خلق كلّ هذه المواهب والنعم والإمكانات في هذا العالم، وكل واحدة من هذه الفئات بإمكانها الانتفاع من هذه المواهب من خلال السعي وبذل الجهد، هذا بحسب عالم التكوين، أمّا بحسب عالم التشريع، فالحكومة الإسلاميّة موظفة بمدّ يد العون لجميع هذه الفئات لإيصالها إلىٰ مقاصدها، لأنّ الحكومة تملك القدرة الماليّة

من جهة، وتملك من جهة أخرىٰ أخرى القدرة التنفيذيّة، وبإمكانها من خلال هاتين القدرتين مساعدة جميع الطبقات الاجتماعيّة.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه في كيفية أداء الوظيفة الشرعية للوالي بصورة صحيحة، ويقول: «وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ[١] نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ».

وفي الواقع ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة شروط لنجاح الوالي في أداء وظيفته في مقابل هذه الفئات الاجتماعيّة وقال: الشرط الأوّل: السعي وبذل الجهد في هذا السبيل، الشرط الثاني: الاستمداد من لطف الله وكرمه، والشرط الثالث: الاستعداد لتحمل الصعاب والمشكلات في هذا الطريق، ومعلوم أنّ الوالي إذا توكل على الله تعالى وسعى جاهداً ومخلصاً، ولم يتردد في طريق أداء الوظيفة من مواجهة المشكلات والتحديات، فإنّه سينجح في عمله وسيكتب له التوفيق في إدارته.

---

١. «توطين» يعني دفع الشخص باتجاه معين و«توطين النفس» يعني جعل النفس تعمل العمل الفلاني، في الأصل من مادة وطن، وكأنّ الإنسان يجعل هذا العمل وطناً له ويتوقف فيه، وتأتي هذه المفردة أحياناً بمعنى الاعتياد على شيء أيضاً.

## القسم الثاني عشر

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ. ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

## الشرح والتفسير

### شروط قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة العهدية يتحدّث الإمام عليه السلام بالتفصيل عن شروط قادة الجيش، وهذا من قبيل ذكر التفصيل بعد الاجمال، وفي المجموع يذكر الإمام عليه السلام أربعة عشر صفة لقادة الجيش، ويقول: «فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً[1]، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً».

---

١. «جيب» في الأصل بمعنى الشق في الثوب من جهة الصدر، وبما أنّ هذا القسم من الثوب يكون على الصدر، والصدر بدوره مجاور للقلب، فستخدم هذه المفردة على الصدر وأحياناً أخرى على القلب.

وهذه الصفات الثلاث اللازم توفرها في قادة الجيش، تؤدي: أوّلاً: أن يعيش القائد العسكري هاجس الحقّ ويفكر في نصرة الدين واعلاء كلمة التوحيد ونصرة النّبي الأكرمﷺ والإمامعليه السلام، وثانياً: أن يسعى في هذا الطريق من موقع الإخلاص والتفاني، ثالثاً: يعمل على تدبير أمور الجيش بآليات المداراة والعقلانيّة والخبرة الكافية.

مفردة «حلم» في هذا المورد يمكن أن تشير إلىٰ العقل[1] ويحتمل أن تأتي بمعنى الصبر وضبط النفس، ولكن الجمل اللاحقة تقوي المعني الثاني.

وبعد أن يذكر الإمامعليه السلام هذه الصفات الثلاث يشير إلىٰ صفتين أخريين، وهما في الواقع من باب التفصيل للصفة الأخيرة، يقول: «مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ».

وبديهي أنّ مرادهعليه السلام ليس التساهل وقبول العذر في مقابل المسائل المهمّة والمصيرية بل المراد التسامح في مقابل الأخطاء الجزئية التي ربّما يمكن صدورها من جميع الأفراد. فالقائد العسكري يجب أن يتعامل مع هذه الأخطاء بدم بارد وبآليات التسامح وقبول العذر.

وفي سياق هذا الكلام يتعرض الإمامعليه السلام للصفة الرابعة ويقول: «وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو[2] عَلَى الأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ[3] الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ».

وهذه الصفات الأخلاقيّة من شأن الأشخاص الذين يتمتعون بشخصية قوية وشجاعة، فمثل هؤلاء يتعاملون مع الضعفاء من موقع المحبّة والشفقة، ويتحركون لحمايتهم ومدّ يد العون إليهم، أمّا في مقابل أصحاب القدرة والثروة فإنّهم يقفون موقفاً صلباً ولا يطأطؤون برؤوسهم لهم، ويحلّون المشاكل التي تواجههم بآليات

---

١. يقول القرآن الكريم في الكافرين: ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾. (سورة الطور، الآية ٣٢).

٢. «ينبو» من مادة «نبو» على وزن «نذر» في الأصل بمعنى عدم تأثير السيف والسهم وأمثال ذلك، ثمّ أطلقت على عدم التوافق وعدم التسليم، وفي العبارة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٣. «لا يُثيرُه» من مادة «إثارة» بمعنى تحريك الشيء أو دفعه باتجاه معين.

العقل والتدبير والحزم، ولا يبدون حالات الضعف والتراجع أمام أي شخص وأي عمل.

وبعد أنّ بيّن الإمامعليه السلام هذه الصفات التسع، يشير إلىٰ ثمان صفات أخرى لابدّ أن يتمتع بها القائد اللائق أو الوالي المحنك، ويقول: «ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ».

«مُرُوءَاتِ» جمع «مروة» من مادة «مَرء» وتأتي عادة بمعنى أصحاب الشخصيّة المتميزة.

«أَحْسَابِ» جمع «حَسَب» إشارة إلىٰ أصالة النسب والأبعاد الإيجابية في الوراثة، كأن نقول إنّ الشخص الفلاني من طائفة بني هاشم ومن السادات المحترمين.

«أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ» إشارة إلىٰ الأُسر والعوائل النظيفة والمرموقة في المجتمع.

و«السَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ» ناظرة إلىٰ الأُسر التي تملك سمعة حسنة، ليس فقط في هذه الأيّام بل في الماضي بسبب أعمالهم الصالحة بحيث إنّهم تركوا سمعة حسنة في الذهنية العامّة.

«النَّجْدَةِ» في الأصل تعني الارتفاع وفي هذا المورد تعني الرفيع في المقام والكبير في الروح والعالي في مكانته الاجتماعيّة.

«الشَّجَاعَةِ» وتعني من يملك الجرأة في مواجهة الصعوبات.

«السَّخَاءِ» يعني الكرم والجود.

و«السَّمَاحَةِ» تعني سعة الصدر والتحلي بالحُلم.

وعلى هذا الأساس فإنّ لكلّ وحدة من هذه الكلمات الثمان معنىً مختلفاً وتشير إلى إحدى الفضائل والصفات المتميزة للإنسان، رغم أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة

ذهبو إلىٰ أنّ بعض هذه الكلمات مترادفة، مثل: «النجدة» و«السخاوة»، وكذلك: «السخاء و«السماحة»، وهكذا في «أحساب» و«أهل البيوتات الصالحة».

وعبارة «أَلْصِقْ» إشارة إلىٰ الروابط القريبة والعلاقات الوثيقة، وهذا يعني لزوم إيجاد رابطة عميقة مع هذه الجهات التي تملك هذه الخصائص المتميزة لغرض اختيار قادة الجيش منها.

ولا شك أنّ الأشخاص الذين يملكون مثل هذه الصفات المتميزة يكونون جديرين بالاعتماد عليهم ويتحركون بفاعليّة أكثر في مسألة كسب النصر والظفر.

أمّا الحسب والوراثة وحسن السابقة والأعمال التي تشير إلىٰ الحلم والشجاعة والسخاء والفتوة فإنّها تصلح أن تكون دليلاً على شخصيّة صاحبها السامية، وفي الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام في هذا المورد يتحدّث بمنطق علم النفس والتحليل النفسي ليتمكن مالك الأشتر من اختيار أفضل الرجال لقيادة الجيش.

ومن هذه الجهة يواصل الإمام عليه السلام كلامه ويقول: «فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ[1] مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ».

كلمة «عُرْف» إشارة إلىٰ جميع أنواع المحاسن والفضائل، وهذه المفردة من مادة «عرفان» و«معرفة» وتأتي بمعنى المعروف أيضاً، وبما أنّ الفضائل معروفة لدى عقل الإنسان وروحه، فقد وردت التعبير عنها بالمعروف أو العرف، خلافاً للقبائح والرذائل التي لا تتناسب وفطرة الإنسان النقيّة، فهي أمور منكرة وغير معروفة، فيقول الإمام عليه السلام في هذه العبارة إنّ الأشخاص الواجدون لهذه الصفات الثمان يمثّلون مركزاً مجسّداً للفضائل والصفات الإنسانيّة المتميزة.

وبعد أنّ ذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات المهمّة والمتميزة، يتحرك على مستوى بيان أربع توصيات لقادة الجيش فيما يتصل بسلوكهم ونشاطهم بداية يقول: «ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا».

---

١. «جماع» كما قلنا سابقاً إنّها في الأصل مصدر، وفي هذه الموارد جاءت بمعنى الوصف أي الجامع والمجمع.

وعلى ضوء ذلك فقائد الجيش ينبغي أن يتعامل مع القادة في المراتب الأدنى، بل مع جميع أفراد الجيش، كالوالد الحنون والأمّ العطوف، ويتواصل معهم من موقع المحبّة والسؤال والاستفسار عن حاجاتهم وتعميق العلاقة العاطفيّة معهم فيما يتسبب في بقاء وفائهم وإخلاصهم وطاعتهم لقائد الجيش وثباتهم في ميدان القتال.

ويضيف الإمام عليه السلام في التوصية الثانية: «وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ[1] فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ خدماتك مهما تكن كبيرة وكثيرة فينبغي أن تعدّها صغيرة وتفكر في الإتيان بالأفضل منها.

وفي التوصية الثالثة يقول عليه السلام: «وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ[2] بِهِ وَإِنْ قَلَّ».

ثمّ يقيم الإمام عليه السلام دليلاً لهذه المقولة (وهي الاهتمام بالأمور الكليّة والجزئيّة لقادة الجيش والجنود) ويقول: «فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ».

وفي التوصية الرابعة يقول عليه السلام: «وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ».

وهذه النقطة جديرة بالانتباه والتدقيق، وهي أنّ القادة بل جميع مدراء المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن يغفلوا عن الأمور الصغيرة والكبيرة، أو يهتموا فقط بالأمور الكبيرة والمصيرية ويعتنوا بالحاجات المهمّة للمجتمع، بل يضعون كلّ واحدة في مكانها، لأنّه أحياناً تكون الغفلة عن الأمور الفرعية مضرّة بقدر الغفلة عن الأمور الكلّية.

والنقطة الملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام في جميع المسائل السابقة وبدلاً من اهتمامه

---

١. «لَا يَتَفَاقَمَنَّ» من مادة «تفاقُم» بمعنى الكبير والخطير، من مادة «فقم» على وزن «فهم».

٢. «تَعَاهَدْتَهُمْ» من مادة «تعاهُد» ومن مادة «عهد» وأحياناً تأتي بمعنى إيجاد العقد والمعاهدة، وأخرى بمعنى القوامة على الشيء وبالاهتمام به، وما جاء في بعض الروايات أنّ المسلم عندما يدخل إلىٰ المسجد يتعاهد النعالين، إشارة إلىٰ هذا المعنى والتحقيق في نعليه لئلا يكونا ملوثتان، وجاء في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «تَعَاهَدُوا نِعَالَكُمْ عِنْدَ أَبْوَابِ مَسَاجِدِكُمْ» (بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٣٦٧). وجاءت في العبارة أعلاه بهذا المعنى أي الاهتمام بأمر الجيش.

بمسائل التعليم والعسكري والأُمور المتعلقة بالأسلحة وأمثال ذلك يهتم بالأمور المعنويّة والأبعاد الروحية لقادة الجيش، لأنّ العنصر الأساس في تحقيق النصر هو هذه الأمور رغم أنّ الأمور الأخرىٰ لها مكانها المناسب.

في عالمنا المعاصر قلّما يُبحث، في مسألة اختيار القادة العسكرين ومدراء المجتمع، عن الخصائص العائليّة والصفات المعنويّة وحالات الكرم والتقوى والطهارة من الرذائل في شخصيّة الأفراد، ومن هذه الجهة حدثت الكثير من الخيانات الكبيرة من قِبل هؤلاء المدراء والمسؤولين الكبار.

☙❧

## القسم الثالث عشر

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ. ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً.

## الشرح والتفسير

### أفضل قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة يتابع الإمام عليه السلام توصياته في اختيار قادة الجيش، ويتجه نحو الاهتمام بأمر الجند وأفراد الجيش ويوصي مالك الأشتر باختيار القادة والضباط من الذين يهتمون بأمر الجيش بشكل أفضل، يقول عليه السلام: «وَلْيَكُنْ آثَرُ[1]

---

١. «آثر» صيغة أفعل التفضيل، وتعني الأفضل، من مادة «إيثار» وتعني أفضلية الآخر وترجيحه على النفس.

رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ[١]، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ[٢] أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ».

وفي عالمنا المعاصر نرى أنّ العلاقة بين قادة الجيش والجنود تتميز بالجفاف وانعدام الاحساس العاطفي، وتكون العلاقة عسكرية أكثر منها عاطفية، فمثل هذه العلاقة تدور في الغالب حول محور العقوبة والسجن والتهديد، في حين أنّ الإمام عليه السلام أكد قبل أربعة عشر قرناً على أن تكون العلاقة عاطفية، وينبغي على قادة الجيش أن يأخذوا بنظر الاعتبار مشاكل الجنود وحتى مشاكل عائلاتهم أيضاً ويوفروا لهم معيشة مقبولة وبالمقدار الممكن، كيما يتحرك الجنود في ميدان القتال بالتركيز على مسألة الجهاد وقتال الأعداء لا غير، وبديهي أنّ مثل هذا الجيش سيكون أقرب لتحقيق النصر والغالبة.

عندما ينظر الجيش بعين إلىٰ ميدان المعركة وبالعين الأخرىٰ إلىٰ الأهل والأولاد ويعيشون القلق تجاههم فإنّ إرادتهم على قتال العدو ستضعف وترتبك.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام راعى في حياته الشخصيّة الحد الأعلى من الزهد وقد أمر الولاة والقادة أيضاً بهذه التوصية، وقد سبق الحديث عن ذلك في شرح رسالة الإمام عليه السلام لعثمان بن حنيف، ولكن بالنسبة للمجموعات الخاضعة لكفالته أوصى بتوفير المعيشة الكافية والمعقولة.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام في مقام بيان العلة لهذه التوصية يقول: «فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ».

ومع الالتفات إلى أنّ الضمير في «عَلَيْهِم» و«قُلُوبَهُم» يعود إلىٰ أفراد الجيش

---

١. «جدة» بمعنى القدرة المالية، وهذه المفردة مصدر من مادة «وجود».

٢. «خلوف» جمع «خلف» بمعنى من يبقيه المسافر في بيته ووطنه ويتركهم ويسافر، وعادة تطلق على النساء والأطفال والصغار والعاجزين.

ظاهراً، فإنّ معنى هذا الكلام: عندما تتواصل مع أفراد الجيش بالمحبّة من خلال محبتك قادة الجيش فإنّ أفراد الجيش سيمنحوك حبّهم ووفائهم من صميم القلب[١].

ثمّ يواصل الإمامعليه السلام هذا الكلام ويشير إلىٰ نقطة مهمّة هي السبب في دوام الحكومة والدولة، ويقول: «وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ إقامة العدل والقسط تتسبب في تقوية العلاقات العاطفيّة بين الناس من جهة، والقادة والولاة من جهة أخرى، ولذلك يعتبر إقامة العدل أفضل وسيلة لحفظ الحكومة ودوامها.

ثمّ يشير الإمامعليه السلام إلىٰ عوامل ظهور المودّة والمحبّة من قِبل الناس تجاه الوالي ويقول: «و إِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ».

وسلامة الصدور إشارة إلىٰ حسن الظن ونفي كلّ أشكال الحقد والعداوة، وبديهي أنّ الرعيّة إذا كانت تملك حسن الظنّ بأعمال الولاة والمسؤولين ولم يشعروا نحوهم بأي حقد وعداء، فإنّ مظاهر المحبّة والوفاء تجاه الحكومة ستظهر جليّاً.

وربّما تكون هذه العبارة إشارة إلىٰ الكثير من الناس وبحكم الاجبار والخوف يتحركون على مستوى المدح والثناء للوالي والمسؤولين في حين أنّهم لا يعيشون سلامة الظهر وحسن الظن بهم، فالمودة الواقعية لا تظهر إلّا إذا كانت القلوب تعيش المودة والمحبّة تجاه المسؤولين.

ويضيف الإمامعليه السلام: «وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَقِلَّةِ

---

١. انظر إلى أنّ هذا الكلام ينطلق من العلاقة العاطفيّة بين قادة الجيش والجنود ولا ينطلق من علاقة مالك الأشتر بأفراد الجيش، ولذلك جاء مرجع الضمائر أعلاه بشيء من عدم الاتساق والتناسب، ولكن إذا التفتنا إلىٰ هذه الحقيقة وهي أنّ المرحوم السيّد الرضي قد حذف العبارات والجمل التي تقع في مطاوي هذا الكلام وهي الجمل التي وردت في كتاب «تحف العقول» وكذلك كتاب «تمام نهج البلاغة» فحينئذٍ يتبيّن أنّ الإمامعليه السلام كان قد أوصى مالك الأشتر بالاهتمام بأمور قادة الجيش وقال: «ثُمَّ وَاتِرْ إِعْلَامَهُمْ ذَاتَ نَفْسِكَ فِي إِيثَارِهِمْ وَالتَّكْرِمَةِ لَهُمْ، وَالإِرْصَادِ بِالتَّوْسِعَةِ وَحَقِّقْ ذٰلِكَ بِحُسْنِ الْفِعَالِ وَالأَثَرِ وَالْعَطْفِ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ». وبذلك يتبيّن أنّ ضمائر الجمع تعود إلىٰ قادة الجيش وعلاقة مالك الأشتر بهم. «فتدبّر».

اسْتِثْقَالِ[۱] دُوَلِهِمْ، وَتَرْكَ اسْتِبْطَاءِ[۲] انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ».

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام ولأجل بقاء واستمرار الحكومات لا يعتمد على عنصر الاقتدار الظاهري وتسلط الجيش وقوى الأمن والاستخبارات على الناس، بل يعتمد تماماً على قلوب الناس والبعد العاطفي لهم ويهتم بكيفية كسب محبّتهم وجذبهم، في حين أنّ الكثير من الحكومات في الماضي وحتى في الحال الحاضر يعتقدون أنّ بقاءهم علىٰ رأس السلطة منوط بالقدرة الظاهريّة على الناس، ونرى غالباً أنّ الناس الذين يعيشون عدم الرضا عن الحكومة بمجرّد أن تتوفر لهم الفرصة فإنّهم يثورون ضد الحكومة ويزيحونها ويلقونها في مزبلة التاريخ.

وجاء في شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري أنّ الزهري قال: دخلت يوماً على عمر بن عبدالعزيز، فبينا أنا عنده إذا أتاه كتاب من عامله أنّ المدينة قد احتاجت إلى مرمّة، فقلت له: إنّ بعض عمّال علي بن أبي طالب كتاب بمثل هذا، فكتب عليه السلام إليه: «أَمَّا بَعْدُ، فَحَصِّنْهَا بِالْعَدْلِ وَنَقِّ طُرُقَهَا مِنَ الْجَوْرِ» فكتب (عمر بن عبدالعزيز) ذلك إلىٰ عامله[۳].

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسألة التشويق المادي ويقول: «فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ[٤]». للآمال مفهوم واسع يشمل جميع الحاجات الضرورية والترفيهيّة، وبديهي أنّ قادة الجيش والجنود إذا لم يعيشوا راحة البال والفكر من جهة تأمين معيشتهم فإنّ أداءهم العسكري في ميدان القتال سيشهد الضعف والفتور.

---

۱. «اسْتِثْقال» من مادة «ثِقْل».

۲. «استبطاء» بمعنى المشي الخفيف من مادة «بُطء» على وزن «قطب».

۳. شرح نهج البلاغة، للعلّامة التستري، ج۸، ص۵۳۸. وردت هذه القصة في تاريخ اليعقوبي، ج۲، ص ۳۰٦.

٤. يتصور أحياناً أنّ ضمير في «آمالِهم» وضمائر الجمع التي تأتي بعد ذلك ينبغي أن تعود إلىٰ الرعيّة، لوجود ضمائر مشابهة قبل ذلك تعود جميعها عليهم، ولكن القرائن الموجودة في عبارة (كلمة شجاع وناكِل) تشير إلى أنّ الجمل تعود إلىٰ المسائل المتعلقة بقادة الجيش.

مضافاً إلىٰ ذلك أنّ المرحوم السيّد الرضي عندما انتقى هذه الجمل والعبارات، حذف الجمل في الوسط، في حين أنّ هذه الجملة تبيّن عودة هذه التوصيات إلىٰ قادة الجيش، وجاء في كتاب «تحف العقول» بعد ذكر جملة «انقِطاعِ مُدّتِهِم»: «ثُمَّ لا تَكِلَنْ جُنُودَكَ إِلىٰ مَغْنَمٍ وَزَعْتَهُ بَيْنَهُمْ». (تحف العقول، ص ۸۹).

ويتحدّث الإمام عليه السلام في سياق كلامه هذا عن التشويق النفسي والمعنوي ويقول: «وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ[1] مِنْهُمْ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ[2] الشُّجَاعَ وَتُحَرِّضُ[3] النَّاكِلَ[4] إِنْ شَاءَ اللهُ».

ومعلوم أنّ مسألة تشويق أفراد الجيش اللائقين والفعّالين سيقع مؤثراً في تطوير وتفعيل النشاطات الاجتماعيّة، وخاصّة أنّه يحضى في عالمنا المعاصر بالأهميّة القصوى، فاختيار الاستاذ النموذجي، والعامل النموذجي، والمزارع النموذجي، والقادة المثاليين وإعطائهم لوحات التقدير والجوائز الكبيرة وذكر أسمائهم في أجهزة الإعلام العام يدخل كلّه في هذا الباب.

والجدير بالذكر أنّ مثل هذا التشويق، كما ذكر الإمام عليه السلام في كلامه أعلاه، له أثر من جهتين: فمن جهة يحثّ الأفراد اللائقين على العمل والفعّاليّة، ومن جهة أخرى يؤثر على الأفراد الكسالى الذين يرون أنفسهم في هذا الحال منكسرين فيفكرون في تغيير سلوكهم وتنشيط أدائهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتابع في كلامه هذا، أي في مسألة التشويق، ليتعرض لتوضيح أكثر في هذا المجال ويقول: «ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّنَّ[5] بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ».

في هذه العبارات الثلاث والتي تتضمّن كلّ واحدة منها إشارة نقطة خاصّة في ذات الوقت مكملة للأخرى، يؤكّد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر أن يكون منتبهاً ومراقباً

---

١. «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجهة تطلق كلمة بلاء بمعنى النعمة وبمعنى المصيبة أحياناً أخرى، وفي الجملة أعلاه اريد بها كلا المعنيين أي بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفردة من مادة «بلَى يَبْلُو»).

٢. «تهزّ» من مادة «هزّ» على وزن «حظّ» بمعنى التحريك الشديد والتثوير.

٣. «تحرّض» من مادة «تحريض» بمعنى الترغيب لعمل معين أو لشيء وإيجاد الدافع له.

٤. «النّاكِل» يعني الشخص الجبان أو المتكاسل والمتراجع عن العمل، من مادة «نكول» بمعنى الخوف والتراجع.

٥. «لا تضمّنّ» من مادة «تضمّن» على وزن «تعهد» بمعنى أخذ الشيء وتحمل مسؤوليته، وفي الجملة أعلاه إشارة إلى أنك لا ينبغي أن تجعل نقاط قوّة شخص إلى آخر وتضمه إليه.

لأعمال وسلوكيات من هم تحت إمرته ويقدّر لهم أتعابهم، فإذا قام أحدهم بعمل مهم فينبغي أن ينسب له ذلك العمل، ومضافاً إلىٰ لزوم معرفة الشخص الجيد والذي يقدّم خدمة جليلة للجيش، أن يتعرف بدقّة على مقدار خدمته أيضاً.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام توصيتين أُخريين في سياق إكمال هذه التوصيات ويقول: «وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً».

وبعبارة أخرى أن تنظر إلىٰ العمل نفسه ثمّ إلىٰ العامل، بخلاف ما هو متداول لدى غالبية الناس أنّهم ينظرون إلىٰ العامل أولاً ثمّ إلىٰ عمله، وهذا الأمر يتسبب في وقوع الخطأ في تقييم أعمال الأشخاص.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر يبيّن في البداية الصفات البارزة في قادة الجيش، ثمّ يبيّن التوصيات اللازمة بالنسبة لأفراد الجيش، وبعد ذلك يتحدّث عن عامّة الرعيّة، وفي الختام يتحدّث مرّة أخرى عن المسائل المتعلقة بتشويق وحثّ قادة الجيش ويبيّن توصياته المؤكّدة لهم.

ومن هنا يبدو أنّ الإمام عليه السلام في ثنايا البحوث المتعلقة لقادة الجيش وجنوده وبشكل جملة معترضة، يتوجه في كلامه مخاطباً جميع أفراد المجتمع الإسلامي.

❧

## القسم الرابع عشر

**وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.**

## الشرح والتفسير

### طرق حلّ المشكلات

في هذا المقطع من الرسالة بيّن الإمام عليه السلام وظيفة مالك الأشتر فيما يتصل بأحكام الشرع، وكما يقال في الشبهات الحكميّة وطريق الكشف عن الأحكام الإلهيّة في المسائل المتعلقة بالجيش والحرب والصلح وسائر المسائل التي تتصل بشأن الحكومة وإدارة البلاد حيث يدعوه الإمام عليه السلام للاجتهاد في الأحكام الإلهيّة من خلال استفادة من المنابع الأصليّة، لأنّه يرى فيه القابلية لمثل هذا الاستنباط الشرعي يقول عليه السلام: «**وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ**».

ثمّ يستند الإمام عليه السلام إلى الآية الشريفة ويقول: «**فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾**[1]».

---

١. سورة النساء، الآية ٥٩.

ثمّ يضيف عليه السلام: «فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ».

وجملة «مَا يُضْلِعُكَ» مع الالتفات إلىٰ أنّ «ضَلْع»؛ (على وزن منع) في الأصل تعني الحمل الثقيل الذي يجعل حامله يميل من هذه الجهة إلىٰ الأخرىٰ، وهذه إشارة إلى أنّ كلّ حكم مشكل ومعقد يواجهه الإنسان لابدّ له لحمله من مراجعة الكتاب والسنّة.

وكلمة «خُطُوب» جمع «خطب» (على وزن ختم) ويعني الأمر المهم، تطلق على أي نوع من الأعمال، وهذه إشارة إلىٰ أنّ الإنسان المؤمن يجب عليه، سواءً في الأمور الهامة أم في الأمور العادية، الرجوع إلىٰ نصوص الكتاب أو السنّة أو العمومات والإطلاقات، فيما لو واجه مشكلة في حكم من الأحكام الشرعية ويستوحي من النصوص الشريفة الحلول لتلكم المشاكل.

وعبارة «أُولِي الأَمْر» تعني أصحاب الاختيار وذوي الشأن، وهذه إشارة إلىٰ الأئمّة المعصومين عليهم السلام ومصداقها البارز في ذلك الوقت الإمام علي عليه السلام نفسه.

وعبارة «مُحْكَمُ كِتَابِهِ» إشارة إلىٰ محكمات الآيات القرآنيّة التي لا شك ولا شبهة في مفهومها وتفسيرها.

وعبارة «السنّة الجامعة غير المفرّقة» إشارة إلىٰ الأحاديث النبوية وسيرة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله المقبولة والمشهورة بين المسلمين ولا يتسبب الأخذ بها الخلاف والفرقة بأي شكل من أشكال .

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا لم يتحدّث الإمام عليه السلام عن دليل العقل والإجماع اللذين يعتبران من الأدلّة القطعيّة في عمليّة الاستنباط الفقهي في دائرة الأدلّة الأربعة المعروفة؟

والجواب عن هذا السؤال بيّن، لأنّ الكتاب والسنّة أيدا بصراحة حجّية دليل العقل وحجّية الإجماع أيضاً، سواءً قلنا بأنّ الإجماع يعدّ دليلاً مستقلاً أو أنّه يعود إلىٰ السنّة وكلام المعصوم.

## تأمّل

## من هم أُولوا الأمر؟

بالنسبة لتفسير «أُولوا الأمر» هناك خلاف بين المفسّرين، فالمفسّرون من أهل السنّة يرون أنّ أولي الأمر هم القادة والولاة والحكّام في كلّ عصر، والعجيب أنّهم لم يقولوا بوجود استثناء من هذه القاعدة، وبالتالي يجب على المسلمين اتّباع كلّ شكل من أشكال الحكومة حتى لو كانت حكومة المغول والتتر، ولكن بعض المفسّرين المتأخرين منهم، الذين يتمتعون بأُفق أوسع وذهن أرحب كصاحب تفسير «المنار» و«في ظلال القرآن»، يعتقدون بأنّ المراد من أولي الأمر هم نوّاب الشعب والعلماء وأصحاب المناصب الذين لهم دور مهم في حياة الناس، ولكنّهم يشترطون بأن لا يسير هؤلاء بخلاف مقررات الإسلام وأحكامه.

هذا والحال أنّ البعض الآخر يحصر أُولوا الأمر بالعلماء والزعماء المعنويين فقط، وذهب آخرون إلىٰ أنّ أولي الأمر هم الخلفاء الأربعة عشر ولازمه عدم وجود أولوا الأمر في الأزمنة الأخرىٰ.

وذهب بعضهم إلىٰ أنّ الصحابة من أولي الأمر أيضاً، حيث يرد عليه نفس الإشكال والايراد.

ولكنّ المفسّرين الشيعة متفقون بأنّ أولي الأمر هم أئمّة المعصومين عليهم السلام فقط وهم قادة الخلائق إلىٰ الله في جميع الأمور الماديّة والمعنويّة، والدليل على ذلك واضح، وهو أنّ إطاعة أولي الأمر الوارد في الآية الشريفة مطلقة، وبديهي أنّ الطاعة المطلقة للشخص الذي يتورط في الذنب أو الخطأ لا معنى لها، وخاصّة أنّ أولي الأمر معطوفة مباشرة على رسول الله صلى الله عليه وآله، وجملة «اطيعوا» التي جاءت قبل ذلك تشمل الإطاعة للنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأولي الأمر على حدّ السواء.

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسّرين من أهل السنّة تحركوا في هذا المورد من موقع الانصاف واعترفوا بهذه الحقيقة، يقول الفخر الرازي في تفسيره في ذيل هذه

الآية: «إنّ قوله «وأولي الأمر منكم» يدلّ عندنا على أنّ إجماع الأُمّة حجّة والدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومَن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً من الخطأ، وإذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال. فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ فثبت قطعاً أنّ أولي الأمر المذكورة في هذه الآية، لابدّ أن يكون معصوماً»، وبما أنّ الفخر الرازي لم يعتقد بعصمة أئمّة أهل البيت عليهم السلام يقول: «ذلك المعصوم إمّا مجموع الأُمّة أو بعض الأُمّة، لا جائز أن يكون بعض الأُمّة لأنا بيّنا أنّ الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر في هذه الآية قطعاً (وهم الأُمّة)»[1]. النتيجة أنّ أولى الأمر يقصد به الإجماع!

ولكن الفخر الرازي غفل عن هذه النقطة، وهي أنّ القرآن الكريم يقول إنّ المسائل المشكلة والمعقدة التي تواجهكم في الحياة، عليكم حلّها بواسطة إطاعة أولي الأمر، ومن المعلوم أنّ المسائل مورد الاتفاق محدودة ومعدودة ولا يمكن حلّ جميع المشكلات عن طريق تحصيل اتفاق جميع أفراد الأُمّة أو علمائها، أضف إلى ذلك أنّ المستفاد من الآية الشريفة أنّ المسلمين يجب أن يذعنوا لحكومة أولي الأمر، وحكومة مجموع الأُمّة واتفاقهم غير ممكن حتى لو استخدمنا آلية الانتخابات لاختيار نوّاب الأُمّة لمثل هذه الأمور، فقلّما يمكن أن يتفق الناس على اختيار هؤلاء النوّاب، ومن هذا المنطلق فإنّ إطاعة أولي الأمر بمعنى حكّام البلاد الإسلاميّة مجانب للصواب.

يبقى سؤال مهم، وهو أنّ أولي الأمر بمعنى الإمام المعصوم لم يكن موجوداً في زمان النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله فكيف أمر القرآن الكريم باطاعتهم؟

---

١. تفسير الفخر الرازي، ج ١٠، ص ١٤٤، مطبعة مصر، سنة ١٣٥٧.

والجواب عن هذا السؤال بيّنٌ، لأنّ المخاطبين لهذه الآية ليسوا فقط الأشخاص الذين كانوا في زمن النّبي الأكرمﷺ وفي عصر نزول هذه الآية، بل الآية ناظرة لجميع الأزمنة والعصور، ولذلك فجميع القادة والحكّام مشمولون لمدلول الآية. وحتى الفخر الرازي الذي يرى أنّ أولي الأمر تعني إجماع المسلمين، يرى أيضاً أنّ المعيار هو تحقيق الإجماع في كلّ عصر وزمان.

وينبغي القول أنّ المنابع الإسلاميّة، من الشيعة وأهل السنّة، ذكرت روايات عديدة في أنّ المراد من أولي الأمر علي بن أبي طالبعليه السلام (بوصفه المصداق الكامل)[1].

ﮩﮨ

---

١ . لمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث أنظر: إحقاق الحقّ، ج ٣، ص ٤٢٥ والتفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٩ من سورة النساء.

## القسم الخامس عشر

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ. وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ. وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

## الشرح والتفسير

### يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر!

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لمالك الأشتر عن موضوع مهم في شأن القضاة، ويجعله بحثاً مستقلاً عن البحوث السابقة، للإشارة إلىٰ مسألة الاستقلال القضائي المتداولة في عالمنا المعاصر والذي يحضى بأهميّة كبيرة حيث تكون السلطة القضائيّة قوّة مستقلة في عرض السلطة التنفيذيّة (الحكومة) والسلطة التشريعية (البرلمان)، مضافاً إلىٰ ذلك فإنّ الإمام عليه السلام ذكر خصائص القضاة بعد ذكر خصائص قادة الجيش ممّا يوحي إلىٰ أنّ الجيش الإسلامي يحفظ الأُمّة في مقابل

الأجانب، والسلطة القضائيّة تحفظ الأُمّة في مقابل المخاصمات والنزاعات الداخليّة، وبعبارة أخرى أنّ أحدهما يؤدّي دور حفظ الأمّة من الخارج، والآخر حفظ الأمّة من الداخل.

بداية يقول عليه السلام: «ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ».

وهذا التعبير يوحي أنّ الحاكم في مورد اختيار القضاة يجب أن يختار الأفضل والأجدر منهم، لأنّ مسألة القضاء أمر حساس وخطير جدّاً وأنّ الأفضل والأجدر من الجميع هو الذي يستطيع تولي هذا المنصب.

وجملة «اخْتَرْ» تشير إلىٰ أنّ القضاة لا ينتخبون بآراء الناس، كما هو المتداول في بعض البلدان المعاصرة، بل يختارهم القائد والإمام بشكل مباشر أو بواسطة الأفراد الموثوقين، لأنّ مسألة صلاحية القضاة ليست شيئاً يمكن الرجوع فيه إلىٰ آراء الناس للحكم في ذلك.

ثمّ يعدد الإمام عليه السلام اثني عشر صفة لابدّ من توفرها في القاضي، وهذا في الواقع من قبيل التفصيل بعد الاجمال، ويشير إلىٰ من هو الأفضل والأجدر لحيازة هذا المنصب المهم:

١. يقول عليه السلام: «مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ معرفة القاضي فيما يتصل بالمسائل المختلفة والقوانين الإسلاميّة ومعرفة الموضوعات إلىٰ درجة من التعقيد في كلّ مسألة بحيث ينبغي للقاضي معرفة طريق الحلّ فيها ولا يواجه مشكلة في هذا الأمر، وبعبارة أخرى أن يكون عارفاً بأحكام الشرع من جهة، وله معرفة في تشخيص الموضوعات أيضاً من جهة أخرى، ليستطيع ردّ الفروع على الأصول واستنباط الفروع من الأصول، وهذه الصفة لا توجد إلّا في المجتهدين المبرزين.

٢. ويقول عليه السلام في بيان الصفة الثانية: «وَلَا تُمَحِّكُهُ[1] الْخُصُومُ».

---

١. «تُمَحِّكُهُ» من مادة «مَحْك» على وزن «مكر» بمعنى اللجاجة والعناد والتعدي.

يعني أن يملك من سعة الصدر بحيث لو تنازع المتخاصمين في مجلسه وارتفعت أصواتهم فلا يثيره ذلك ولا يخرجه عن حدّ الاعتدال، بل يصدر الحكم الإلهي العادل في حقّهما مهما كانا وشرسين وعدمي الإدب.

٣. ويقول الإمام عليه السلام في بيان الصفة الثالثة للقضاة الموثوقين واللائقين: «وَلَا يَتَمَادَى[١] فِي الزَّلَّةِ».

ومعلوم أنّ الشخص اللجوج والمعاند عندما يرتكب خطأ ويلتفت إلىٰ هذا الخطأ لا يجد في نفسه استعداداً للاعتراف بهذا الخطأ وتغيير مساره والعودة إلىٰ الصراط المستقيم، وهذا بدوره يتسبب في أن يصدر أحكاماً جائرة وغير واقعية، وهو من الظلم المتعمد وغير القابل للمغفرة.

ويتحدّث القرآن الكريم عن جماعة من الكفّار: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢].

وكثيراً من يؤثر العناد والتعصب في فكر الإنسان إلىٰ درجة أنّه يرى الباطل حقّاً والحقّ باطلاً، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «اللِّجَاجُ يُفْسِدُ الرَّأْيَ»[٣] ويقول في مورد آخر: «اللِّجَاجُ أَكْثَرُ الْأَشْيَاءِ مَضَرَّةً فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ»[٤].

٤. ويقول عليه السلام في بيان الصفة الرابعة: «وَلَا يَحْصَرُ[٥] مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ».

وهذه الصفة في الحقيقة وجه آخر لعدم العناد واللجاج، وبعبارة أخرى هي نتيجة لها، فالإنسان إذا لم يتحرك في خط اللجاج والعناد وتبيّن له الحقّ في المسألة فإنّه سيعود إليه بكل سهولة ويصلح جميع تداعيات الخطأ الذي اقترفه، وبعبارة أخرى

---

١. «يَتَمَادىٰ» من مادة «تمادي» ومن مادة «مَدى» على وزن «دوا» ويعني الاستمرار والدوام والإصرار على عمل شيء.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٧٥.

٣. غرر الحكم، ص ٦٥، ح ٨٥٣.

٤. المصدر السابق، ص ٤٦٣، ح ١٠٦٤٠.

٥. «لايَحْصَر» من مادة «حصر» على وزن «نصر» ويعني الوقوع في مضيقة، وكثيراً ما تطلق على التوقف والعجز عن الاستمرار في الكلام، وفي العبارة وردت بكلا المعنيين.

هو الشخص الذي يملك الشجاعة للاعتراف بخطئه وإصلاح هذا الخطأ والاشتباه، ومثل هذه الشجاعة تعتبر من أهم أغصان الفضيلة الإنسانيّة.

٥. قوله عليه السلام: «وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ».

وبديهي أنّ القاضي إذا كان يعيش حالات الطمع، حتى في أدنى مستوياته فبالإمكان إغوائه بسهولة عن طريق تقديم الرشوة وبالتالي منعه من إصدار الحكم بما يتفق مع الحقّ في الحكم.

ونقرأ في حديث شريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «رَأْسُ الْوَرَعِ تَرْكُ الطَّمَعِ»[1].

ونقرأ أيضاً في الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام: «أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ»[2].

وببيان آخر، مع الالتفات إلىٰ أنّ الإشراف يعني النظر إلىٰ الشيء من جهة العلو فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يشير إلىٰ أنّ الإنسان الطامع من شأنه أن يسقط من ذروة الفضيلة إلىٰ هوة الرذيلة.

٦. قوله عليه السلام: «وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ القاضي ينبغي، في مجال فهم المسائل، أن يملك من سعة الصدر بحيث يحيط بجميع جوانب المسألة، سواءً في الشبهات الحكميّة أم في الشبهات الموضوعيّة، ويحقق في شروط المتخاصمين الذين حضرا عنده في القضاء والحكم بينهما، ثمّ بعد ذلك يصدر حكمه من موقع الوضوح في الرؤية.

٧. يقول عليه السلام: «وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ».

ونعلم، كما ورد في الحديث النبوي المعروف، أنّ الأمور على ثلاثة أنحاء: فمنها ما يكون الحقّ فيها جليّاً، والآخر ما يكون الباطل فيها جليّاً، ولكن القسم الثالث هو

---

١. غرر الحكم، ص ٢٧٢، ح ٥٩٥٤.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢١٩.

الشبهات، يعني الأمور التي لا يتسنى للإنسان الاحاطة بها بسهولة، ففي مثل هذه الموارد يجب أخذ جانب الاحتياط، والشخص الذي يتحرك في وادي الشبهات فسوق يقوده ذلك إلىٰ دورب المحرمات والغرق في المتاهات، والشخص الذي يجتنب الشبهات فإنّه يترك المحرمات الواقعية بشكل أفضل ويجتنبها.

يقول رسول اللهﷺ: «حَلَالٌ بَيِّنٌ وَحَرَامٌ بَيِّنٌ وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ»[١].

وهذا الكلام لا يعني أنّ القاضي يمتنع من إصدار الحكم لأنّ وظيفته الشرعية فصل الخصومة وانهاء النزاع، بل المراد أن يتوقف ويحتاط ويدرس جميع جوانب المسألة ويزيل ظلمة الشبهات بنور العلم والمعرفة، وأحياناً يقوم بمصالحة طرفي النزاع فيما تدعوه مواقف الاحتياط.

٨. يقول عليه السلام: «وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ».

إنّ أهم عمل القاضي التحقيق في أدلّة الطرفين، فيأخذ بالأدلة القوية والمقبولة، ويمتنع عن قبول الأدلّة الضعيفة والمهزوزة.

ويحتمل أيضاً أنّ مراده من هذه الجملة أنّ القاضي يجب أن يتحرك أكثر من أي شخص آخر في البحث عن الدليل، بمعنى أنّه أحياناً لا يوجد أي دليل حسب الظاهر في المسألة مورد الخصومة ليبيّن الحقّ في المسألة، ولكن القاضي يستطيع ومن خلال البحث والتدقيق في زوايا القضيّة، أن يعثر على أدلّة قوية لكشف الحقّ من الباطل، كما هو الحال في الكثير من قضاء أميرالمؤمنين عليه السلام، إذ أنّ الإمام عليه السلام ومن خلال استخدام أساليب نفسية يستطيع إمّا في أخذ الاعتراف والإقرار من المجرم، وإمّا أن يتوفر له العلم من مجمل القرائن والشواهد المتوفرة، مثلاً في قصّة اختلاف امرأتين على طفل واحد، وإصرار كلّ واحدة منهما على أنّ هذا الطفل هو ابنها،

---

١. الكافي، ج ١، ص ٦٨، ح ١.

فحسب القاعدة يجب على القاضي في هذا المورد اللجوء إلىٰ القرعة للفصل بينهما، ولكن الإمام عليه السلام تحرك على مستوى البحث عن الأدلّة، فأمر بأن يأتوا له بالسيف وقال: سوف أشق هذا الولد إلىٰ نصفين، فكل واحدة منكما تأخذ نصفاً من هذا الطفل. فصاحت الأم الحقيقية بأنني تنازلت عن حقّي فادفعوا هذا الطفل إلىٰ المرأة الأُخرى، فعرف الإمام عليه السلام بهذه الطريقة المدعي الحقيقي من الكاذب، وهناك الكثير من هذه الأمثلة في قضايا أميرالمؤمنين عليه السلام وقضائه[1].

٩. وقوله عليه السلام: «وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً[2] بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ».

في الكثير من الحالات يكون لكلّ واحد من الطرفين المتخاصمين أدلّة وشواهد عديدة ويطرحها بالتالي على القاضي ممّا يسبب له إزعاجاً وإرهاقاً، وإذا كان القاضي ضيق الصدر وسريع الانفعال فسيقوم بطردهما، وما أكثر الأدلّة الواقعية التي تبقى طي الكتمان بهذا العمل، ولكن إذا كان يملك سعة الصدر ولا ينفعل بسهولة فإنّه يستطيع إعادة الحقّ إلىٰ أهله.

يجب على القاضي أن يمنح طرفي النزاع مقداراً كافياً من الوقت ليبيّنا له ما أمكنهما من الشواهد والأدلّة لإثبات الدعوى.

١٠. وقوله عليه السلام: «وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ».

وبديهي أنّ القاضي لو كان عجولاً ومتسرعاً فسوف لا تتضح لديه حقيقة الأمر وبخاصّة في الدعاوى المعقدة، ولكن إذا كان يتحلّى بالصبر والتريث ولا يصدر حكمه النهائي بسرعة، فإنّه يستطيع بشكل أفضل أن يكشف الستار عن وجه الحقّ في المسألة، وهذا الكلام لا يعني أنّ الملفات القضائيّة، كما هو الحال في زماننا، يتمّ تأخيرها إلىٰ أيّام وشهور عديدة بحجّة التحقيق في الملف، وأحياناً يتأخر الحكم

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٢١٢، ح ١١؛ بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٢٥٢، ح ٢٦، ولاطلاع أكثر أنظر: وسائل الشيعة، ج ١٨، كتاب القضاء الباب ٢١.

٢. «تَبَرُّم» من مادة «برم» في الأصل بمعنى حياكة الحبل وأمثاله، ثمّ أطلقت على كلّ شيء يثير التعب والملل، وفي العبارة أعلان وردت بمعنى الانزعاج الشديد والتعب.

في قضية معينة لسنوات عديدة، وخاصّة إذا قام المحامون بوضع العصي لإعاقة عجلة الحكم، فأحياناً وبذريعة بسيطة يتمّ تأخير إصدار الحكم في القضية في الحكم.

١١. قوله عليه السلام: «وَأَصْرَمَهُمْ[١] عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ الاحتياط الذي يمارسه القاضي والصبر في مقابل بيان حجج الطرفين والتحقيق في الأدلّة لا يعني أنّه سيتردد في مقام إنشاء الحكم ويبتلي بالوساوس ويوكل إنشاء الحكم إلىٰ غدٍ وبعد غد، بل ينبغي أن يكون كالسيف الصارم في الحزم وفصل الخصومة بإنشاء الحكم القاطع ولا يفكر بتداعياته وآثاره فيما بعد، لأنّ إنشاء الحكم عادة يقع بنفع أحد الطرفين ويؤدّي بالتالي إلىٰ امتعاض الطرف الآخر وعدم رضاه وسيلجأ للمحامين والأصدقاء وأحياناً للقبيلة والطائفة لفرض رأيه على القاضي، وهذه المسألة من اللوازم الطبيعية للقضاء، ومَن يفكر في هذه الأمور ويتحرك على مستوى الاحتياط في إصدار الحكم لا ينبغي أن يجلس على كرسي القضاء.

١٢. وفي آخر صفة من الصفات القاضي اللائق يقول الإمام عليه السلام: «مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ[٢] إِطْرَاءٌ[٣] وَلَا يَسْتَمِيلُهُ[٤] إِغْرَاءٌ[٥]».

وغير خفي عن البيان أنّ الأشخاص المغرورين والمعجبين بأنفسهم عندما يسمعون عبارات المدح والثناء والتمجيد من قِبل البعض تجاههم، فربّما ينحرفون عن مسير الحقّ ويؤثر حبّ الذات في ميلهم إلىٰ جهة المداحين، وبسبب هذه العلاقة النفسية يحكم هذا القاضي بما يصبّ في نفع هذا الشخص ظلماً وعدواناً، وهنا يؤكّد

---

١. «أصْرَم» من مادة «صرم» على وزن «سرد» بمعنى قطع الشيء، وتأتي أحياناً للقطع المعنوي والقاطعيّة والحزم في إدارة الأمور.

٢. «يَزْدَهيه» من مادة «إزدهاء» ويعني العجب والغرور والأنانية.

٣. «إطْراء» بمعنى المدح والثناء الكثير والتبجيل.

٤. «يَسْتَميلُه» من مادة «استمالة» بمعنى جذب الشخص أو الشيء نحوه.

٥. «إغراء» في الأصل بمعنى الصاق شيء بشي آخر، ثمّ استخدمت بمعنى التشويق والتحريك لإنجاز لعمل معين، وفي الجملة أعلاه وردت بمعنى التشويق الكثير.

الإمام عليه السلام أنّ مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا جديرين بمنصب القضاء بين المسلمين حتى لو توفرت فيهم الصفات الأخرىٰ.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر هذه الصفات الإثني عشر، التي كلّ واحدة منها أهم من الأخرىٰ، يتوجه نحو القضاة الذين يستطيعون، عند مواجهة أعقد المسائل وأصعب الملفات، من تشخيص الحقّ من الباطل بكل شجاعة وفطنة ويحكمون وفق ما توفر لديهم من أدلّة وشواهد ويعيد الحقّ إلىٰ صاحبه حتى لو كان من أضعف الأفراد في المجتمع، وكان مخالفه من أقوى الأفراد، وطبعاً كما قال الإمام عليه السلام في نهاية حديثه عن هذه الصفات: «وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ».

ولكن المهم للوالي أن يدرس جميع جوانب المسألة بصبر وأناة وللعثور على هذا القليل ممَن تتوفر فيهم هذه الشروط من بين المرشحين لهذا المنصب ووضعه على كرسي القضاء بين المسلمين.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام خصوصيات وصفات القاضي اللائق، تحدّث عن وظائف الوالي في مقابل هؤلاء القضاة ويأمره بثلاثة أوامر مهمّة جدّاً.

بداية يقول عليه السلام: «ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ[1] قَضَائِهِ»، وهذه إشارة أنّه مهما كان هؤلاء القضاة واجدين لهذه الصفات ومورد الاعتماد، فمع ذلك وبما أنّ مسألة القضاء مهمّة جدّاً وربّما يبتلي القاضي بالخطأ والزيف أو الانحراف، فمن الضروري أن ترسل بعض المفتشين ليحققوا في الأحكام القضائيّة الصادرة عنهم، أو تتولى هذه المسألة بنفسه وتحقق عن كثب في بعض الأحكام القضائيّة لهم، ومثل هذا العمل يمنح القاضي قوّة في التزامه الواعي بقيم العدالة.

طبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعني وجود مسألة الاستئناف والتمييز في نظام القضاء الإسلامي بل بمعنى أنّ الوالي لو عثر على خطأ مسلّم في الحكم وجب عليه ابطاله وتجري إعادة التحقيق مرّة أخرى.

---

١. «تَعَاهَدَ» بمعنى التحقيق والدراسة وقد ورد ذكر هذه المفردة فيما سبقها من الصفحات.

وفي التوصية الثانية يقول عليه السلام: «وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ أحد عوامل الفساد في السلطة القضائيّة، قلّة الحقوق الماليّة للقضاة والموظفين في الجهاز القضائي، فينبغي أن يضع الوالي لهم مخصصات ورواتب شهرية كبيرة ليتنسى لهم العيش بشكل معقول وشريف ولا يفكروا بعد ذلك بقبول الرشوة.

يقال إنّ في بعض البلدان في هذا العصر يصدرون صكاً أبيضاً ويسلّموه للقضاة ليكتبوا فيه أي رقم يريدونه لتمرير المسألة لصالحهم.

وهذا الكلام، سواءً كان صحيحاً أو مبالغ فيه أو كان كاذباً يعكس لنا هذه الحقيقة، وهي أنّ القاضي يجب أن يكون له نصيب من بيت المال يتناسب مع حياته ومعيشته.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام بالنسبة لمسألة تأمين الحقوق الماليّة لضمان معيشة محترمة، سواءً بالنسبة للقضاة أم بالنسبة لقادة الجيش كما تقدّم سابقاً، يبرز الإمام عليه السلام حساسية شديدة تجاه هذه المسألة، فصحيح أنّ جميع الموظفين والمسؤولين وحتى أفراد الجهاز القضائي وأفراد الجيش الإسلامي يجب أن تتوفر لهم معيشة كافية، ولكنّ تأكيد الإمام عليه السلام على هاتين الفئتين بالخصوص يشير إلىٰ لزوم الاهتمام أكثر بأعمال هاتين الفئتين من أجل حفظ الحدود والثغور وكذلك من أجل حفظ حقوق الناس.

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثالثة ويقول: «وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ[1] الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكِ».

وهذه النقطة مهمّة، وهي أنّ القاضي يجب أن يعيش الحرية الكاملة في إنشاء الحكم العادل ولا ينبغي أن يخضع تحت أية ضغوط اجتماعيّة وفئويّة، وهذا لا يتسنى إلّا إذا كان القاضي أقرب الناس إلىٰ الوالي والقائد، لأنّه لو كان هناك أفراد

---

١. «إغْتِيال» في الأصل بمعنى إغفال الشخص الإضرار به، وأحياناً تطلق على القتل غدراً، وفي العبارة أعلاه وردت بالمعنى الأوّل.

أقرب منه إلىٰ الوالي، فسوف لا يشعر القاضي بالأمن من حكمه وقضائه، فربّما يتوجه الخصم إلىٰ حاشية السلطان ويسعى في تشويه سمعة القاضي لديه فيضطر القاضي إلىٰ إصدار حكمه وفقاً لما يريده الخصم، وبعبارة أخرى يجب أن يكون القضاة مصونين من كلّ جهة ليحفظوا لهم استقلالهم القضائي.

وبعد هذه التوصيات الثلاث يقول الإمام عليه السلام مؤكّداً: «فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً».

وكلمة «ذٰلِكَ» ربّما تشير إلىٰ التوصية الأخيرة أو إلىٰ التوصيات الثلاث بل حتى إلى الصفات الاثني عشر للقاضي، بمعنى ينبغي أن تنظر بدقّة في اختيار القضاة وكذلك في التحقيق في أعمالهم ورفع حاجاتهم وضمان حريتهم في ممارسة دورهم القضائي.

وفي نهاية هذا المقطع من الكلام يتجه الإمام عليه السلام لذكر الدليل على كلّ هذه التأكيدات التي سبق ذكرها، ويقول: «فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا».

ومعلوم أنّ هذا الكلام يشير إلىٰ زمان الخليفة الثالث عثمان حيث أمسك بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين من بني أُميّة وبني مروان زمام السلطة والقدرة ونهبوا أموال بيت المال ولم تكن مسألة حفظ الإسلام والرسالة الإلهيّة مطروحة في قاموسهم.

أمّا أنّ الفساد الإداري والمالي في زمن عثمان قد امتد بشكل واسع في تفاصيل وأبعاد الحكومة فلا يشك أحد من المؤرخين في ذلك، غاية الأمر أنّ بعض علماء أهل السنّة ومن أجل حفظ مكانة عثمان قالوا: كان رجلاً ضعيفاً لم يتمكن من السيطرة على هذه الجماعة الشريرة وبالتالي فلت زمام الأمور من يديه وتولى رجال بني أُميّة الحكم، ومن هنا فهو معذور!! وأمّا الكلام في معقوليّة مثل هذا العذر، فهي مسألة أخرى.

وقد أشار الإمام عليه السلام في الخطبة الشقشقية إلىٰ هذه المسألة حيث قال: «وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ».

ملاحظة: قمنا بتقسيم عهد مالك الأشتر التاريخي إلىٰ ثلاثين مقطعاً، تحدّثنا عن ١٥ مقطعاً منها في الجزء العاشر، وسيأتي الكلام عن ١٥ مقطع آخر في الجزء الحادي عشر، وذلك لحفظ التعادل في صفحات الكتاب.

ولا يسعني في هنا إلّا أن نذكر صديقنا العزيز المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ محمّد جعفر الإمامي الذي واكبنا إلى آخر لحظة ثمّ وافاه الأجل ولبى دعوة الحقّ وانتقل إلىٰ رحمة الله الواسعة، وكذلك الصديق الوفي المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادري حيث انتقل إلى رحمة قبل فترة وجيزة، وكان المرحومين من المخلصين والمتقين والمؤمنين وباحثين ومحققين جادين في عملهما وعالِمَين عاملَين، فبقيت ذكرياتهم في خواطرنا ولا ننساهم إن‌شاءالله، ونسأل الله الغفور الرحيم أن يجعلهما في غريق رحمته الواسعة.

اللّهم! لك الحمد ولك الشكر على هذه النعمة العظيمة أن وفقتنا لإكمال هذا المشروع المبارك وإدامة شرح نهج البلاغة حتى أتممنا الجزء العاشر منه ببركة مولى الموحدين ـ عليه آلاف التحية والثناء ـ وقريباً سنقدم للقرآء الأعزاء الجزء الحادي عشر منه، والذي به ينتهي قسم الكتب والرسائل في نهج البلاغة، وفي القريب العاجل سنقدم للطبع الأجزاء الخاصّة بشرح وتفسير الكلمات القصار للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وبذلك يكتمل هذا الشرح الجامع في أربعة عشر جزءً (بحول الله وقوّته وبمنّه وكرمه).

نهاية الجزء العاشر

ربيع‌الأوّل ١٤٣١ هـ ـ ٢٠٠٩ م

# فهرس

**الرسالة ٣٢** ........ ٥

نظرة عامّة للرسالة ........ ٥

الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس ........ ٧

تأمّل: رسائل متوالية ........ ١١

**الرسالة ٣٣** ........ ١٣

نظرة عامّة للرسالة ........ ١٣

الشرح والتفسير: راقب أوضاع مكّة بدقّة ........ ١٥

تأمّل: من هو قثم بن العباس؟ ........ ١٩

**الرسالة ٣٤** ........ ٢١

نظرة عامّة للرسالة ........ ٢١

الشرح والتفسير: تطييب خاطر محمّد بن أبي بكر ........ ٢٣

تأمّل: من هو محمّد بن أبي بكر؟ ........ ٢٧

**الرسالة ٣٥** ........ ٢٩

نظرة عامّة للرسالة ........ ٢٩

الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء ........ ٣١
تأمل: روعة البلاغة في هذه الرسالة ........ ٣٥

**الرسالة ٣٦ ........ ٣٩**
نظرة عامّة للرسالة ........ ٣٩
القسم الأول ........ ٤٣
الشرح والتفسير: قصّة الضحاك بن قيس ........ ٤٣
القسم الثاني ........ ٤٩
الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعة الخائنين ........ ٤٩

**الرسالة ٣٧ ........ ٥٣**
نظرة عامّة للرسالة ........ ٥٣
الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان؟ ........ ٥٥
تأمل: رسالة معاوية إلى ابن عباس وجوابه ........ ٥٨

**الرسالة ٣٨ ........ ٦١**
نظرة عامّة للرسالة ........ ٦١
القسم الأول ........ ٦٣
الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا لله ........ ٦٣
القسم الثاني ........ ٦٧
الشرح والتفسير: نصبت عليكم والياً مقتدراً وبصيراً بالأمور ........ ٦٧

**الرسالة ٣٩ ........ ٧٣**
نظرة عامّة للرسالة ........ ٧٣

الشرح والتفسير: لقد بعت دينك بدنيا غيرك! ........ ٧٥
تأمّلان ........ ٧٩
١. عمرو بن العاص في الجاهليّة والإسلام ........ ٧٩
٢. بعض أعمال معاوية ........ ٧٩

ꕤ

**الرسالة ٤٠ ........ ٨١**
نظرة عامّة للرسالة ........ ٨١
الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام ........ ٨٣

ꕤ

**الرسالة ٤١ ........ ٨٧**
نظرة عامّة للرسالة ........ ٨٧
القسم الأوّل ........ ٨٩
الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟! ........ ٨٩
القسم الثاني ........ ٩٥
الشرح والتفسير: لا أتسامح في بيت المال حتى مع أولادي ........ ٩٥
تأمّل: من هو ابن عباس؟ ........ ٩٩

ꕤ

**الرسالة ٤٢ ........ ١٠٧**
نظرة عامّة للرسالة ........ ١٠٧
الشرح والتفسير: أحسنت! لقد أدّيت الأمانة ........ ١٠٩
تأمّل: التعرّف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟ ........ ١١٠

ꕤ

**الرسالة ٤٣ ........ ١١٣**
نظرة عامّة للرسالة ........ ١١٣

الشرح والتفسير: جميع المسلمين سواسية في بيت المال ........ ١١٥
تأمّل: جواب مصقلة للإمام عليه السلام ........ ١٢٠

٤٤ الرسالة ........ ١٢١
نظرة عامّة للرسالة ........ ١٢١
الشرح والتفسير: إحذر من أغوائهم! ........ ١٢٣
تأمّل: قصّة نسب زياد المعقدة ........ ١٢٨

٤٥ الرسالة ........ ١٣٥
نظرة عامّة للرسالة ........ ١٣٥
القسم الأوّل ........ ١٣٩
الشرح والتفسير: دعوة الوالي إلى مأدبة فاخرة! ........ ١٣٩
تأمّل: من هو عثمان بن حنيف؟ ........ ١٤١
القسم الثاني ........ ١٤٣
الشرح والتفسير: لم أدّخر من الدنيا شيئاً لنفسي ........ ١٤٣
القسم الثالث ........ ١٤٧
الشرح والتفسير: كيف أكون أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟ ........ ١٤٧
تأمّل: قصّة فدك المحزنة ........ ١٥٤
القسم الرابع ........ ١٥٩
الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطة! ........ ١٥٩
القسم الخامس ........ ١٦٧
الشرح والتفسير: أيّتها الدنيا ابتعدي عنّي! ........ ١٦٧
تأمّل: طلاق الدنيا ........ ١٧٣

القسم السادس ........ ١٧٥
الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟ ........ ١٧٥
تأمّل: الرياضة المشروعة وغير المشروعة ........ ١٧٨
القسم السابع ........ ١٨٣
الشرح والتفسير: أيّها الوالي! إحذر المشاركة في مثل هذه الضيافة! ........ ١٨٣
تأمّلان ........ ١٨٦
١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهيّة ........ ١٨٦
٢. من هم حزب الله؟ ........ ١٨٩

ﮋﮊ

**الرسالة ٤٦ ........ ١٩١**
نظرة عامّة للرسالة ........ ١٩١
الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق! ........ ١٩٣

ﮋﮊ

**الرسالة ٤٧ ........ ١٩٩**
نظرة عامّة للرسالة ........ ١٩٩
القسم الأوّل ........ ٢٠١
الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً! ........ ٢٠١
القسم الثاني ........ ٢٠٧
الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين! ........ ٢٠٧
القسم الثالث ........ ٢١١
الشرح والتفسير: وصايا هامّة على فراش الشهادة! ........ ٢١١
تأمل: أهمّية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ........ ٢٢٢
القسم الرابع ........ ٢٢٥
الشرح والتفسير: توصية الإمام عليه السلام المؤكدة حول قاتله! ........ ٢٢٥

**الرسالة ٤٨ .............................................. ٢٢٩**

نظرة عامّة للرسالة .............................................. ٢٢٩

الشرح والتفسير: نصيحة جامعة لمعاوية .............................................. ٢٣١

**الرسالة ٤٩ .............................................. ٢٣٥**

نظرة عامّة للرسالة .............................................. ٢٣٥

الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلىٰ شيء! .............................................. ٢٣٧

**الرسالة ٥٠ .............................................. ٢٤٣**

نظرة عامّة للرسالة .............................................. ٢٤٣

القسم الأوّل .............................................. ٢٤٥

الشرح والتفسير: لا يبعدنّكم المقام عن الناس! .............................................. ٢٤٥

القسم الثاني .............................................. ٢٤٧

الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القادة .............................................. ٢٤٧

**الرسالة ٥١ .............................................. ٢٥٥**

نظرة عامّة للرسالة .............................................. ٢٥٥

القسم الأوّل .............................................. ٢٥٧

الشرح والتفسير: حذارِ من ظلم الناس! .............................................. ٢٥٧

تأمّل: ماذا يعني الخراج؟ .............................................. ٢٥٩

القسم الثاني .............................................. ٢٦١

الشرح والتفسير: رعاية إنصاف في أخذ الخراج .............................................. ٢٦١

**الرسالة ٥٢** ........ ٢٦٧
نظرة عامّة للرسالة ........ ٢٦٧
الشرح والتفسير: آداب الصلاة وأوقاتها! ........ ٢٦٩
تأمّل: أداء الصلوات الخمس في ثلاثة أوقات ........ ٢٧٣

ﮜﮝ

**الرسالة ٥٣** ........ ٢٧٩
نظرة عامّة للرسالة (المهمّة جدّاً لمالك الأشتر) ........ ٢٧٩
خمسون نكتة مهمّة في عهد واحد ........ ٢٧٩
القسم الأوّل ........ ٢٨٩
الشرح والتفسير: التوصية الأُولى: التقوى وجهاد النفس ........ ٢٨٩
تأمّل: أخطار النفس الأمارة ........ ٢٩٣
أهميّة بلاد مصر ........ ٢٩٥
القسم الثاني ........ ٢٩٩
الشرح والتفسير: إحترام حقوق جميع المواطنين! ........ ٢٩٩
القسم الثالث ........ ٣٠٧
الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً! ........ ٣٠٧
القسم الرابع ........ ٣١٥
الشرح والتفسير: إحذر من لعنة المظلومين! ........ ٣١٥
القسم الخامس ........ ٣١٩
الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس! ........ ٣١٩
تأمّل: أنواع الحكومات ........ ٣٢٥
القسم السادس ........ ٣٢٧
الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب! ........ ٣٢٧

تأمّل: موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس ........ ٣٣١
القسم السابع ........ ٣٣٣
الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين! ........ ٣٣٣
تأمّل: أهمّيّة المشورة في حياة الإنسان ........ ٣٣٥
القسم الثامن ........ ٣٣٩
الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيىء! ........ ٣٣٩
القسم التاسع ........ ٣٤٥
الشرح والتفسير: إحيي السنن الحسنة ........ ٣٤٥
تأمّل: سبب ظهور السنن ........ ٣٥١
القسم العاشر ........ ٣٥٣
الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعيّة المختلفة ........ ٣٥٣
تأمّل: الشرائح الاجتماعيّة ........ ٣٥٦
القسم الحادي عشر ........ ٣٥٩
الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعيّة ........ ٣٥٩
القسم الثاني عشر ........ ٣٦٩
الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش ........ ٣٦٩
القسم الثالث عشر ........ ٣٧٥
الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش ........ ٣٧٥
القسم الرابع عشر ........ ٣٨١
الشرح والتفسير: طرق حلّ المشكلات ........ ٣٨١
تأمّل: من هم أُولوا الأمر؟ ........ ٣٨٣
القسم الخامس عشر ........ ٣٨٧
الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر! ........ ٣٨٧

دار جواد الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

00961 3 13 73 73

00961 70 69 29 12

00961 70 70 45 67